د. هـ. لورانس

ترجمة
شفيق مقار

أبناء وعشاق

الجزء
الثاني



روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر من مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٥٦ – ابريل ١٩٧٠ صفر ١٣٩٠

No. 256 – April 1970

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات ادارية

ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – عن الكميات المرسلة بالطائرة – في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحاد البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ – في سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . في الخارج بتحويل او بشيك مصرفي قابل الصرف في « ج.ع.م » – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي – وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

●

الغلاف بريشة الفنان : هبة عنايت

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة
الفنان هبة عنايت

أبناء
و
عشاق

الجزء الثانى

بقلم

ذ. هـ. لورانس

ترجمة

شفيق مقار



دار الهلال

ملخص ما نشر

بعد قصة حب فاشلة مع ابن تاجر ثرى ، تزوجت جرترود كوبارد، ابنة الطبقة المتوسطة الصغيرة ، من والتر مورل عامل المناجم • سرعان ما اكتشفت مسز مورل أن زوجها رجل لا يركن اليه • خذلها وخيب كل آمالها فيه ، فحدا ولت أن تصلب عوده ، وأن تجعل منه الرجل الذى تصورته عندما قبلته زوجا لها • لكن تلك المحاولة فرقت بينهما أكثر ، حتى انقلب بيتهما الى ميدان قتال •

فى ذلك الجو من الصراع ، والفقر ، والخوف ، وخيبة الامل ، رزقت الاسرة بأبنائها : ويليم ، ومن بعده أخته آنى ، ثم الصغير بول الذى لم تكن تريده أمه ، اذ جاءها فى ظروف ضاقت فيها بالحياة مع زوجها حتى لم تعد تطيق العيش معه ، وأخيرا الغلام الجميل آرثر ، الذى دلله أبوه ، واصطفاه من بين أخوته •

لا يكاد الابن الاكبر ، ويليم ، يشب عن الطوق ، حتى تكون الام قد حسمت الامر — فى دخيلة نفسها — بينها وبين زوجها الذى بات سكيرا لا يرجى منه ، وأفقده صراعه غير المتكافىء معها كل ما كان قد بقى له من تماسك شخصيته ، فاعتبرت علاقتهما كرجـل وامرأة علاقة منتهية ، وانصرفت عنه الى أولادها •

كل ما خلفته فى قلبها قصة حبها الأول من فراغ عمقته الزيجة الفاشلة ملأته مسز مورل بحبها لابنها الاكبر ويليم • أغدقت عليه كل ما فى قلبها من حب محبط لا يجد له موضوعا ، وعلقت عليه كل آمالها التى لم تقض عليها ضيعة الوهم فى الحب ومرارة الفشل فى الحياة الزوجية • اتخذت منه ابنا وحبيبا ، وشدته اليها بأغلال حبها، حتى استوعبت كل حياته •

فلما بدأ الفتى يعرف الحب طاردت الحب من حياته بكل قواها ، حتى يكون لها وحدها •

فى أثناء ذلك يكبر الابن الثانى ، بول ، ويتم دراسته ، فتجـــد له أمه عملا فى أحد المصانع بنوتينجهام ، وتبدأ بينه وبين الفتاة ميريام صداقة سرعان ما تنقلب الى قصة حب ، بينما الام لاهية عنهما فى غمرة انشغالها بابنها الاكبر ٠

يترك ويليم بيت أهله ذاهبا الى لندن ، حيث وفق الى عمل مجز فى مكتب أحد المحامين ، وهناك يقع فى حب فتاة حسناء تعمل سكرتيرة فى احدى الشركات : يأسره حسنها وشبابها ، ويحنقه اسرافهـــا وطيشها ، فيجد نفسه متأرجحا بين رغبته فى الزواج منها ، ورغبة أقوى تلح عليه فى الخلاص منها ، وهو فى حقيقة أمره يعانى من حبه لامه الذى يفجر فى وجه ذلك الحب الدخيـــل صراعا مهلكا ينتهى بموته ٠

الفصل الأول

حب فى الصبا

طيلة الخريف تردد بول على مزرعة ويللى عدة مرات ، فعقد أواصر صداقة مع الولدين . أما ادجار ، الابن الاكبر ، فلم يتنازل ويقبله صديقا فى مبدأ الأمر . وكذلك ميريام ، لم يكن من سبيل اليها ، وان كان ذلك التباعد من جانبها قد نجم عن خوفها من أن يستصغر شأنها ويستهين بها كما يفعل أخواها . كانت رومانسية فى دخيلة نفسها. فحيثما ذهبت تكون بطلة من بطلات والترسكوت ، يحبها رجال ذوو خوذات أو ريش فى قبعاتهم ، ماتلبث أن تتخيل نفسها وقد انقلبت الى راعية خنازير . وهذا الفتى ، رغم انه يشبه بطلا من أبطال سكوت ، ويستطيع أن يصور ، وأن يتحدث بالفرنسية ، وأن يفهم ما الذى يعنيه علم الجبر ، ويذهب فوق هـذا الى نوتينجهام بالقطار كل يوم ، هذا الفتى قد يتصورها مجرد راعية خنازير ، فيعجز عن رؤية الأميرة الخبيئة تحت السطح . لذلك تباعدت .

أصدق صديقة لها كانت أمها . ففيهما صفات مشتركة ، وتقارب يتجاوز مجرد علاقة الأم والابنة . كلتاهما لها عينان بنيتان ، وميل طبيعى الى ما يشبه التصوف ، فهما من ذلك الصنف من النسوة اللائى يختزن الدين كالـكنز فى أعماقهن ، يتنفسنه بخياشيمهن ، فيرين الحياة كلها مغلفة بضباب ذلك التدين الراسخ . فالمسيح والله ، عند ميريام ، كانا كائنا واحدا عظيما ، تحبه بحرارة وتعبده بجوى عندما يشعل غروب روائع الارض والسماء ، أو عندما ينهمر البرد ، فتلوذ بغرفتها العلوية وحدها ، أوعندما يدب بين الاوراق المشمسة الخضراء أبطال وبطلات من أمثال أيديث ، ولوسى ، ودوينا ، وبريان دى بوا جيلبرت ، ورب روى ، وجاى مانرنج . أما فيما خـلا ذلك ، فهى تعمل بجد ، فلا تكل ، فى عمل البيت ، وهو ما كانت حرية بألا تضيق به لولا أن الارض النظيفة الحمراء التى تشقى فى تنظيفها سرعان ما يغطيها الطين من أحذية أخوتها . كان لها غير ذلك القطيع الصغير المعربد من الاخوة ، أخ فى الرابعة طالما تحرقت شوقا الأن يدعها تغير له ثيابه وأن تغمره بحبها . كانت تذهب الى

الكنيسة بانتظام ، بورع وتقديس ، خافضة رأسها ، تنتابها رعدة من الضنى لسوقية البنات الاخريات فى جوقة الترتيل ، وينقبض قلبها لصوت القس اذ يقع من أذنها موقعا دارجا لا سحر فيه . كثيرا ما تشاحنت مع أخوتها الذين اعتبرتهم على الدوام أفظاظا لا يرجى منهم ، وحتى الأب لم تكن تنطوى له على كبير تقدير أو تبجيل لأنها لم تجده ذا مثل وتصوف ورؤى يعتبرها أثمن ما فى الحياة ، بل كل همه أن يعيش حياة منعمة ما أمكنه ، بغير منغصات ، وأن يجد وجبة طيبة فى انتظاره كلما تهيأ للطعام .

ولقد كرهت وضعها كراعية خنازير . فهى تشتهى أن تكون موضع تقدير ، وأن يحس الكل وجودها . كانت تريد أن تتعلم ، وفى ظنها أنها متى استطاعت أن تقرأ ، مثلما يقول بول انه يقرأ ، أشياء « ككولومبا » ، و « رحلة بين جدران حجرتى » ، فان العالم سيطالعها بوجه مختلف ، وباحترام أعمق . فهى غير قادرة على أن تكون أميرة بالثراء أو بالمكانة . لذلك جنت شوقا الى العلم حتى تزهو به . لأنها مختلفة عن عامة النـــاس ، وحرام أن تتوه فى زحامهم . وليس من منقذ من ذلك التيه الا أن تكون صاحبة علم ، فتتفرد .

بدا لها جمـــالها ــ وهو من النوع الخجول ، البرى ، مفرط الحساسية ــ شيئا لا قيمة له . حتى روحها ، بتشوفها وحماسها ، لم تجدها كافية . كان لابد لها من شىء يشد أزر كبريائها ، لأنها تحس نفسها مختلفة عن غيرها من الناس . بول كانت ترمقه بتطلع فيه خوف وفيه رغبة ، رغم أنها تحتقر الرجال ، كمبدأ عام . لكنها وجدت فيه براعة ، ومعرفة بدت لها غزيرة ، فوق انه ، بصبغة مأساوية ، قد جرب الموت فى أسرته . فالمزقة الضئيلة من المعرفة رفعته فى عينيها الى عنان السماء . ومع ذلك بذلت قصارى جهدها فى احتقاره ، لأنه غير قادر على أن يستشف الأميرة فيها ، فلا يرى منها الا راعية الخنازير . فوق انه لا يكاد يلحظ وجودها .

ثم أصابه ذلك المرض ، فأحست ان مرضه سوف يجعله ضعيفا ، فتبيت أقوى منه . وبذلك يمكنها أن تحبه . أى والله ، كم ستحبه لو استطاعت أن تسوده فى ضعفه ، أن تعنى به ، وأن تجعله يعتمد عليها ، حتى يمسى وكأنه طفل بين ذراعيها .

بمجرد أن بات الجو صحوا ، وازهرت أشجار البرقوق ، ذهب بول الى المزرعة فى عربة بائع اللبن . صاح مستر ليفرز مرحبا به

فى ود ، ثم استحث الحصان بصوت من لسانه والعربة تصعد سفح التل ببطء فى بكور الصباح الندى . سحب بيضاء كانت تسبح ى السماء ، ذاهبة تتزاحم وراء التلال التى بدأت تتيقظ لمقدم الربيع، ومياه نذرمير تترقرق ، بالفة الزرقة ، بأسفل ، ازاء المروج التى أذبلها صقيع الشتاء ، وأشجار الحسك .

أربعة أميال ونصف ميل قطعتها العربة الى المزرعة ، بين براعم تتوهج بخضرة نحاسية ، تتفتح فى ورود صغيرة ، وطيور مفردة تنادى ، فيجيبها الشحرور من قلب الخضرة . عالم جديد باهر .

كانت ميريام تختلس نظرة من نافذة المطبخ فرأت الحصان يدخل من البوابة البيضاء الكبيرة الى الفناء الذى يترامى وراءه دغل من أشجار بلوط ما زالت عارية من أوراقها . ثم ترجل من العربة شاب فى معطف ثقيل ، فرفع يديه يتناول السوط والحرام من الفلاح الوسيم متورد الوجه .

ظهرت ميريام فى اطار الباب . كانت قد ناهزت السادسة عشرة ، أخاذة الحسن ، بلونها الدافىء ونظرة الجد المرتسمة على وجهها ، وعينيها اللتين تتسعان فجأة كأنما فى نشوة .

قال بول وهو يشيح خجلا :

ــ أترين ؟.. هذه الزهور قد أوشكت أن تتفتح . أليس ذلك قبل أوانها ؟ تبدو كما لو كانت مثلوجة !

قالت ميريام بصوتها الموسيقى الذى يدغدغ الحواس :

ــ مثلوجة !

تلعثم بول قائلا ثم سكت :

ــ هذه الخضرة فى براعمها ..

فقالت ميريام برفق زائد :

ــ دعنى أحمل هذا الحرام عنك .

قال ، كأنما آلمه قولها :

ــ أستطيع أن أحمله .

لكنه أعطاه لها .

ثم ظهرت مسز ليفرز . قالت له :

ــ لاشك انك متعب وبردان . دعنى أعاونك فى خلع معطفك . فهو ثقيل . لا يجب أن تسير طويلا وأنت تلبسه .

ساعدته على خلع المعطف . لم يكن معتادا على كل ذلك الاهتمام بأمره . كادت تختنق تحت ثقل المعطف .

قال الفلاح ضاحكا وهو يعبر المطبخ حاملا أقساط اللبن :
ـ ما هذا يا أمي ! يبدو أن هذا المعطف أضخم من أن تحميله .
رصت وسائد الاريكة وسوتها لضيفها الشاب حتى يستريح فى جلسته .

كان المطبخ بالغ الصغر ، غير منتظم الشكل . فالبيت كان فى الاصل كوخا يقيم فيه العمال . والاثاث كان قديما ورثا . لكن بول أحبه . أحب الجوال المفروش أمام المدفأة كبساط ، والركن الصغير المضحك تحت الدرج ، والنافذة الصغيرة الغائرة فى الركن التى يستطيع ، اذا ما انحنى قليلا ، أن يرى منها أشجار البرقوق فى الحديقة الخلفية ، والتلال الجميلة المستديرة مترامية وراءها .

قالت مسز ليفرز :
ـ هلا رقدت قليلا ؟..
فقال :
ـ كلا .. لست متعبا . أليس رائعا أن يستطيع المرء الخروج فى هذا الجو ؟ ألا ترين ذلك ؟ رأيت فى الطريق شجيرة مزهرة ، والارض تغطيها زهور الربيع الصفراء . وضوء الشمس يغمر كل شيء . لا تعرفين كم أنا فرح به .
ـ هل أستطيع أن أقدم لك ما تأكله أو تشربه ؟
ـ كلا .. شكرا لك ..
ـ كيف حال أمك ؟..
ـ أظنها أصبحت متعبة . فقد أرهقت نفسها كثيرا . قد تذهب معى الى سكجنس قريبا ، فيمكنها اذ ذاك أن تأخذ قسطا من الراحة . سيسعدنى أن تفعل ذلك .
أجابت مسز ليفرز :
ـ نعم .. من العجيب انها لم تمرض بعد كل ما عانته .

كانت ميريام رائحة غادية تعد الغداء . أخذ بول يرقب كل ما يجرى حوله . كان وجهه شاحبا نحيلا ، لكن عينيه كانتا يقظتين براقتين بالحياة كعهدهما . تابع الفتاة بعينيه مأخوذا بالطريقة الغريبة المنتشية التى تخطو بها وتتحرك ، حاملة اناء الى الفرن ، أو ذاهبة تنظر فى المقلاة . جو البيت بدا له مختلفا عن جو بيتهم حيث كل شيء دارج ومألوف . عندما رفعت مسز ليفرز صوتها صائحة فى الحصان الذى كان يمد عنقه ليلتهم شجيرات الورد فى الحديقة ، جفلت الفتاة والتفتت وراءها بعينين داكنتين مستديرتين

كأنما اقتحم عالمها شيء . البيت كله ، داخله وخارجه ، كان يغلفه صمت ناعم غـريب ، وميريام تتراءى لعينيـه كشخصية فى حكاية خرافية : جارية مستعبدة ، تتعذب روحها فى الأسر فتحلم بأرض بعيدة مسحورة . ثوبها الأزرق العتيق الباهت ، وحذاؤها القديم رآهما أسمالا رومانسية ترتديها وصيفة الملك كوفيتوا الشحاذة .

شعرت فجأة بعينيه الزرقاوين الحادتين عليها ، تستوعبانها ، فأوجعها لتوها الحذاء القديم الزرى والثـوب المتهرىء العتيق . أحنقها أن يرى كل شيء . حتى هو يعرف أن جوربها ليس مشدودا على ساقيها . أسرعت خارجة من المطبخ وقد التهب وجهها خجلا ، فلما عادت لم تفارقها رعدة يديها وهى تعمل ، حتى أوشك كل شيء تمسك به أن يسقط منها . كلما اهتز حلمها الداخلى ارتعد جسدها فرقا . أحنقها أن يرى كل ما رآه .

جلست مسز ليفرز تتحدث اليه بعضا من الوقت ، رغم ماينتظرها من عمل . لـكنها لم تستطع أن تتركه لفورها ، تأدبا . ثم استأذنت منه وهمت واقفة . بعد قليل رفعت غطاء اناء موضوع على النار ونظرت بداخله ، ثم صاحت :

ـ يالله يا ميريام ! هذه البطاطس تركتها حتى جف الماء وأوشكت أن تحترق .

جفلت الفتاة كأنما لدغت . صاحت :

ـ حقا يا أماه ؟..

قالت الأم ، وهى تمعن النظر فى الاناء :

ـ كيف تركتها تحترق ياميريام . لقد عهدت بها اليك .

تصلبت الفتاة فى وقفتها كأنها تلقت لطمة ، وقد اتسعت عيناها وتسمرت فى مكانها . قالت والخجل يغمرها :

ـ صدقينى يا أماه ! لقد كشفت غطاء هذا الاناء منذ خمس دقائق فقط .

فقالت الأم :

ـ نعم .. سرعان ما يتبخر الماء .

قال بول :

ـ انها لم تحترق كثيرا . ليس الأمر مهما ، أليس كذلك ؟..

نظرت اليه الأم بعينيها البنيتين وقالت :

ـ ليس مهما ، نعم .. لولا الاولاد . ميريام تعرف ما يسببونه من

مشاكل اذا « شاطت » البطاطس .
فقال بول فى دخيلة نفسه :
ـ عليك اذن ألا تدعيهم يحدثون تلك المشاكل .
بعد قليل جاء ادجار ، يغطى حذاءه الطين . كان صغير الحجم ، كثير التحفظ ، لا يدل مظهره على انه فلاح . رمق بول بنظرة سريعة، وأومأ اليه برأسه ، ثم قال لأمه :
ـ الغداء معد ؟..
قالت أمه بلهجة اعتذار :
ـ تقريبا يا ادجار .
قال وهو يتناول الصحيفة فيأخذ فى القراءة :
ـ أنا أموت جوعا .
سرعان ما توافد الباقون من أفراد الأسرة ، وقدم الطعام . كانت وجبة اتصفت بالفظاظة. رقة الأم المفرطة ولهجتها المعتذرة استنفرتا كل ما فى أبنائها من فظاظة . ذاق ادجار البطاطس وهو يحرك فكيه بسرعة كالأرانب ، ثم نظر الى أمه باستنكار وغضب قائلا :
ـ هذه البطاطس محروقة يا أماه !
ـ نعم يا ادجار . لقد سهوت عنها لحظة . لعلك تفضل بعضا من الخبز اذا كنت لا تستطيع أن تأكلها ؟
نظر ادجار مغضبا ، عبر المائدة ، الى ميريام :
ـ وما الذى كانت ميريام تفعله حتى احترقت البطاطس ؟
رفعت ميريام رأسها ، وقد فغر فاها ، واتقدت عيناها غضبا ، لكنها لم تقل شيئا . ابتلعت غضبها ومهانتها ، فأحنت رأسها بشعره الداكن .
قالت الأم :
ـ كانت منهمكة فى العمل .
قال ادجار :
ـ ليس لديها من رجاحة العقل ما يمكنها من أن تسلق بعض البطاطس . أى شيء يجعلنا نبقيها فى البيت ؟
فقال موريس :
ـ لكى تأكل كل ما يبقى فى الكرار من طعام .
قال الأب ضاحكا :
ـ انهم لا ينسون لعزيزتنا ميريام أنها أكلت تلك الفطيرة !
اكتمل ذلها بينما الأم لائذة بالصمت ، تتعذب كقديسة ضلت

طريقها الى هذا البيت الفظ الخشن .
حار بول فى أمرهم . تعجب لـكل ذلك الهياج حول بضع حبات محترقة من البطاطس . لكن الأم تبالغ فى كل شيء فترفعه الى مصاف الأحداث الخطيرة .. حتى عمل البيت تجعله أشبه بالطقوس الدينية ، وقد أثار ذلك نقمة أبنائها ، أحسوا أنهم قد بتروا من حيـاتها ، وطوح بهم فى أسفل سافلين ، فكان ردهم فظاظة متعمدة وازدراء فيه قحة وتهكم .
كان بول على أعتاب التفتح من الصبا الى الرجولة ، وقد أحس لذلك الجو الذى يتخذ كل شيء فيه قيمة دينية انبهارا سحره وأدار رأسه . فى جو ذلك البيت شيء يشده . أمه كانت دائما عملية ، منطقية . لكن كل شيء هنا يختلف . هنا شيء يحبه ، شيء فى بعض الأحيان ، يمقته .
نشب شجار عنيف بين ميريام واخوتها . عندما انصرفوا ، بعد الظهر ، بادرتها أمها قائلة :
ــ خيبت أملى اليوم ياميريام .
أحنت الفتاة رأسها ، ثم صاحت فجأة وعيناها تبرقان :
ــ انهم وحوش ، لا يطاقون .
قالت أمها :
ــ لقد وعدت الا تردى عليهم . فصدقتك . أنا لا أطيق كل هذا الشحان .
صاحت ميريام :
ــ لـكنهم بغيضون .. و .. وضعاء ..
ــ نعم ياعزيزتى . ولـكن كم مرة رجوتك الا تردى على ادجار؟ لم لا تدعينه يقول ما يشاء ؟
ــ ولم يجب أن يقول ما يشاء ؟
ــ ألست من القوة بحيث تحتملين ذلك ياميريام ، ولو من أجلى؟ هل أنت من الضعف بحيث لاتقوين على التعفف عن الشجار معهم ؟

فمسز ليفرز من المتمسكات بمذهب « الخد الآخر » ، باستماتة لا تحيد . غير أنها لم تستطع أن تغرسه فى نفوس أبنائها ، وان حققت بعض نجاح مع الفتيات ، خاصة مع ميريام ، ابنتها الأثيرة الى قلبها . لطالما كره الأولاد ذلك « الخد الآخر » اذ يدار لهم . وقد كانت ميريام ، فى معظم أمرها ، من سمو الخلق بحيث تدير ذلك الخد فعلا . فتثير فيهم الازدراء والكراهية . وتنصرف عنهم بتواضع

ـ هو فى حقيقته منتهى التعالى عليهم ، وتعيش بمعزل عمن حولها ، داخل ذاتها .
ساد ذلك الجو من النقار والشحان المتصل بيت آل ليفرز. رغم ان أبناء الأسرة كان يحنقهم ذلك الالحاح المتصل من جانب الأم على وجوب التسامح ، والتواضع ، فانه كان ذا أثر عليهم . باتوا غير قادرين على أن يقيموا بينهم وبين أى غريب عنهم علاقة انسانية سوية أو صداقة غير مبالغ فيها . فهم دائما فى قلق ، يبحثون عما هو أعمق، يبدو الناس لهم على ضحالة وتفاهة لا تدع سبيلا لأخذهم فى الحسبان. وهكذا أصبحوا غير قادرين على أبسط أشكال التعامل الاجتماعى . وقد عانوا من ذلك كثيرا ، وان تستروا وراء القحة والتعالى . لكن ، تحت السطح ، كان دائما ذلك النزوع الى اتصال روحى حميم بالغير ، لا يستطيعون اليه سبيلا ، اذ سد عليهم كل السبل اليه ..احتقارهم لغيرهم من الناس . كانوا يطلبون علاقة انسانية حميمة حقا ، لكنهم غير قادرين على أى تقارب سوى من أحد لأنهم يترفعون عن الخطوة الأولى اليه ، ويزدرون التفاهة التى تشكل التعامل الانسانى الدارج .
وقع بول فى اسار مسز ليفرز . كل شىء كان يبيت ذا مغزى دينى ويزداد حدة وعمقا كلما كان معها . اشرأبت روحه بأوجاعها ونموها المبكر الى المرأة كأنما تبحث عن غذاء لديها . فهما اذ يجتمعان يبدو انهما يقدران معا على استخلاص المغزى من كل تجربة .
كانت ميريام بنت أمها . فى الاصيل ، وضوء الشمس يغمر الحقول صحبته الأم والابنة . أخذوا يبحثون عن أعشاش الطيور . وجدوا فى السياج عش طائر صغير قرب بستان الفاكهة .
قالت مسز ليفرز :
ـ أريدك أن ترى هذا .
أقعى أمام السياج فوضع اصبعه بحذر بين الاشواك داخل باب العش المستدير .
قال وهو يتحسس العش من داخله :
ـ كأنما يتحسس المرء جسد الطائر ذاته من داخله . كم هو دافىء ! يقولون ان الطائر يجعل عشه مستديرا كفنجان بأن يضغط عليه من الداخل بصدره . لكن كيف يجعل السقف مستديرا أيضا ؟
بدا العش للمرأتين وكأنما دبت فيه الحياة فجأة . ظلت ميريام تزوره بعد ذلك ، كل يوم ، وقد بات قريبا الى قلبها . فى مرة أخرى وهو يسير مع الفتاة بجوار السياج لاحظ زهور السيلاندين ،

أشبه بمحارات من ذهب ، على جانب القناة .

قال لها :

ــ أحب هذه الزهور . خاصة عندما تتفلطح وريقاتها اذ يسقط ضوء الشمس عليها ، فكأنها تتمسح بالشمس .

منذ تلك اللحظة باتت زهور السيلاندين تشدها بسحر خاص . أثرت فى نفسه رؤيتها لله فى كل شىء ، فبات يرى الاشياء مثلها ، كل شىء فيه حياة خاصة به . كانت فى حاجة دائمة الأن تتسوقد الاشياء فى مخيلتها أو فى روحها قبل أن تحسها أو تعى وجودها ، وقد عزلتها حميتها الدينية تماما عن كل حياة عادية دارجة . فالعالم بالنسبة اليها اما حديقة دير للراهبات أو جنة نعيم لا وجود للخطيئة أو للمعرفة فيها ، واما شىء قبيح بالغ القسوة .

هكذا بدأ حبهما ، فى ذلك الجو من التواصل الحميم المستدق ، ذلك اللقاء على أرض حسهما المشترك بشىء فى الطبيعة .

مر وقت طويل ، فيما يخصه ، قبل أن يعيها . لزم البيت عشرة أشهر بأكملها بعد مرضه . صحب أمه آلى سكجنس حيث قضيا بعض الوقت معا ، فعرف معها السعادة الكاملة . لكنه حتى من تلك البلدة الساحلية ظل يكتب خطابات طويلة الى مسز ليفرز عن الشاطىء والبحر . عاد من رحلته القصيرة بعدة لوحات أثيرة الى قلبه صور فيها ساحل لينكولن المنبسط ، وهو يتحرق شوقا لأن يريهم اياها . كان موقنا من أن لوحاته ستثير اهتمام آل ليفرز أكثر مما تثير اهتمام أمه . فلم يكن فنه مثار اهتمام مسز مورل ، بل شخصه ، وما يحققه من نجاح فى الحياة . أما مسز ليفرز وأولادها فقد باتوا أشبه بحواريين له . فهم يوقدون جذوة فى داخله ويجعلونه يتوهج لعمله ، بينما تأثير مسز مورل عليه أن تجعله صبورا ، ذا تصميم هادىء ، صامدا لا يكل ولا يلين .

سرعان ما عقد أواصر ود وصداقة مع أبناء ليفرز . فخشونتهم كانت قشرة سطحية ، تستكن تحتها رقة غريبة تجعلهم محببين الى النفس ، لكنها لا تظهر الا عندما يستطيعون أن يثقوا بأنفسهم .

قال له ادجار بشىء من التردد :

ــ هلا أتيت معى الى الحقل ؟

ذهب بول فرحا ، فقضى بعد الظهر يساعد صديقه فى عزق الارض وفرز اللفت . كان يرقد مع الاخوة الثلاثة فوق أكوام الدريس فى مخزن الغلال ، ويحكى لهم عن نوتينجهام ومصنع جوردان . فعلموه

مقابل ذلك ، كيف يحلب الابقار ، وأشركوه معهم فى بعض الاعمال الصغيرة ، كلما أراد ذلك . فى منتصف الصيف شاركهم أعمال الحصاد . وأحبهم . كانت الأسرة مقطوعة الصلة بالعالم تماما ، حتى بدا أفرادها كآخر أبناء جنس وشيك الفناء . رغم ان أبناء الأسرة كانوا أصحاء أقوياء ، فانهم كانوا يعانون من تلك الحساسية المفرطة والنكوص عن الاتصال بالآخرين ، مما زاد وحدتهم حدة ، وجعلهم فى الوقت ذاته ، ذوى ود وصداقة قل نظيرها ، متى توصل المرء الى اجتياز أسوار عزلتهم . أحبهم بول من كل قلبه ، وأحبوه هم أيضا .

أما ميريام فكان حبه لها لاحقا لحب اخوتها . وقد دخل حياتها قبل أن تحدث هى اى أثر فى حياته . ذات أصيل يثقله الملل ،والرجال فى الحقول ، وليس فى البيت الا ميريام وأمها ، قالت له الفتاة بعد تردد طال قليلا :

ــ هل رأيت الأرجوحة ؟

قال :

ــ كلا . . أين ؟

ــ فى حظيرة الأبقار .

كانت تتردد دائما قبل أن تقدم اليه أو تريه شيئا . فالرجال لديهم معايير يقيسون بها قيم الاشياء تختلف عن معايير النساء ، ولطالما ضحك أخوتها من كل الاشياء العزيزة عليها ، الاشياء ذات القيمة بالنسبة اليها ، وسخروا منها .

قالت وهى تقفز واقفة :

ــ تعال معى اذن .

كانت أبنية المزرعة تضم حظيرتين للأبقـــار ، على جانبى مخزن الفلال . فى الحظيرة الاكثر انخفاضا واعتاما التى تتسع لأربع أبقار، طار الدجاج فوق أحواض العلف مطلقا صيحات احتجاج وتأنيب ، والفتى وصاحبته يتقدمان من حبل غليظ مدلى من العارضة المختفية فى ظل السقف ، وطرفه السفلى معلق فى مسمار بالحائط .

صاح باعجاب وهو يجلس على مقعد الأرجوحة ، يتعجل تجربتها :

ــ انها شىء مثل الحبل !

لـكنه هم واقفا لفوره .

قالت وهى تدلف الى مخزن الفلال :

ــ انتظر ، نحن نضع بعض الأجولة على المقعد لنجعله مريحا .

عادت ففرشت الأجولة على مقعد الأرجوحة ، وقد لذ لها أن تفعل شيئا فى سبيل راحته • وقف وهو ممسك بالحبل •
قال لها :
ـ هيا .. اجلسى .
فأجابته :
ـ كلا .. لن أركب أولا .
وقفت جانبا بطريقتها الهادئة المتباعدة .
ـ لم ؟ ..
قالت متوسلة :
ـ انت أولا .
لأول مرة فى حياتها أحست متعة التنازل عن شىء لرجل ، متعة تدليله . نظر بول اليها ، ثم قال وهو يجلس :
ـ طيب .. حاذرى لنفسك !

بدأ يتأرجح ، وسرعان ما كان طائرا فى الهواء ، يكاد يخرج من باب الحظيرة الذى كان نصفه العلوى مفتوحا ، يتراءى منه المطر المنهمر ، والفناء الموحل القذر ، والماشية لاصقة بكآبة فى جدار مخزن العربات الاسود ، ووراء كل ذلك ، الغابة كجدار رمادى ضارب الى الخضرة • وقفت هى بأسفل ، يغطى رأسها بيريه اسكتلندى قرمزى اللون ، رافعة وجهها ترقبه . نظر اليها فرأت عينيه الزرقاوين تتألقان .
قال ضاحكا :
ـ هذه أرجوحة لذيذة للغاية .
ـ نعم ..
كان يطير بأرجوحته عاليا فى الهواء ، وكل جزء فى جسده يتأرجح ، كطائر يحلق وينقض لمجرد أن يحس نشوة الحركة ، وينظر اليها من عليائه ، فيرى غطاء رأسها القرمزى تنساب منه غدائرها الداكنة ، ووجهها الحلو الدافىء ، فيه سكينة التأمل ، مرفوعا اليه . كانت الحظيرة معتمة اقرب الى البرودة . فجأة طار عصفور من فصيلة السنونو من السقف المرتفع ، وانقذف خارج الباب •
صاح بها :
ـ لم أكن أعرف أن طائرا يراقبنا .
كان يتأرجح باندفاع ، غير معنى بسلامته • أحسته صاعدا هابطا فى الهواء وكأنما يستجمع قواه لوثبة هائلة .

قال لها بصوت حالم لا انفعال فيه كأنه صوت الارجوحة التى توشك أن تتوقف حركتها :
ـ الآن سأموت .
وقفت ترقبه مسحورة . فجأة توقف وقفز أرضا .
قال لها :
ـ لقد أطلت . لكنها أرجوحة لذيذة للغاية . متعة حقيقية !
سرت ميريام ، وعجبت له ، وفى الوقت ذاته اذ يأخذ الأرجوحة ذلك المأخذ الجدى ، بكل تلك الحرارة . قالت له :
ـ كلا .. استمر أنت .
فقال دهشا :
ـ كيف ؟ الا تريدين دورا ؟
ـ طيب . لكن دورا قصيرا فقط .
جلست على مقعد الأرجوحة وهو ممسك بالأجولة حتى لا تتزحزح تحتها .
قال وهو يدفع الأرجوحة بيديه :
ـ لا تتصورين كم هى ممتعة ! لا تدعى كعبيك يلمسان الارض ، ارفعيهما حتى يلمسا الحائط .
أحست دقته فى الامساك بها ، تماما فى اللحظة المناسبة ، وقوة دفعه لها ، فخافت . كانت بين يديه . مرة أخرى أحست الدفعة التى لا مهرب منها ، فى اللحظة المناسبة ، فأطبقت على الحبل بيديها وهى توشك أن تفقد وعيها ، وموجة ساخنة من الخوف تهبط الى أحشائها .
ضحكت فى خوف :
ـ ها ! لا تدفعنى أعلى من ذلك ..
فصاح محتجا :
ـ لكنك لم ترتفعى على الاطلاق ..
ـ أرجوك .. هذا يكفى .
سمع نبرة الخوف فى صوتها ، فكف . ذاب قلبها فى قبضة ألم ساخن عندما حانت اللحظة التى سيدفعها فيها ثانية . لكنه تركها وشأنها ، فبدأت تتنفس من جديد ..
سألها :
ـ الا تريدين أن ترتفعى أكثر من ذلك حقا ؟ هل أبقيك حيث أنت ؟

فأجابته :

ــ كلا .. دعني أتأرجح بمفردي ..

فتنحى جانبا ووقف يرقبها . قال لها :

ــ أنت تتحركين بالـكاد ..

فضحكت ضحكة خفيفة خجلى ، وفي اللحظة التالية نزلت من الأرجوحة .

قال وهو يحتل مكانها :

ــ يقولون أن من يجيد التأرجح لا يصاب بدوار البحر . لا أعتقد انى سأصاب بدوار البحر أبدا .

ثم طار بأرجوحته . وقفت ترقبه وشيء فيه يشدها ويسحرها. لمدى لحظة لم يعد الا مادة حية متأرجحة . لم تعد فيه ذرة لا تتأرجح. لم تكن مستطيعة أن تندمج بهذا الشكل ، ولا أخوتها . بعث مرآه فيها دفئا . فكأنما هو لهب قد أوقد جذوة فيها بينما يتأرجح فى الهواء .

رويدا تركزت علاقة بول الحميمة بالأسرة على ثلاثة من أفرادها : الأم ، وادجار ، وميريام . فهو يذهب الى الأم من أجل ذلك التعاطف وذلك النداء اللذين يبدو أنهما يشدانه اليها ويدفعانه الى أن يبوح لها بذات نفسه . أما ادجار فصديقه المحبب الى قلبه . وأما ميريام فهو يعاملها بطريقة أقرب الى التنازل لأنها تبدو شديدة التواضع .

لكن الفتـاة ما لبثت أن سمت فى طلبه . كلمـا أتى بكراسة الرسم معه ، كانت أشد الجميع اهتماما بآخر ما رسم وأكثرهم تمعنا . ثم ترفع رأسها وتنظر اليه ، فتضيء عيناها الداكنتان فجأة كغدير يترقرق ماؤه بتيار من ذهب فى الظلمة ، وتسأله :

ــ لم تعجبنى هذه الصورة الى هذا الحد ؟

كان شيء فى صدره ينفر متباعدا على الدوام من تلك النظرات القريبة الحميمة المنبهرة التى تحدجه بها . فيسألها :

ــ نعم ، لم تعجبك الى هذا الحد ؟

ــ لا أدرى .. تبدو صادقة للغاية .

ــ لانها .. لا يكاد يكون فيهـا ظل . فهى أقـرب الى شفافية الضوء ، كما لو كنت قد صورت البروتوبلازم فى الاوراق وفى كل شيء بدلا من صلابة الشكل الخارجي وتماسكه. ذلك الشكل الخارجي يبدو ميتا بالنسبة الى . هذه الشفافية ، هذه الرقرقة الضوئية

هى الشيء الحقيقى • أما الشكل فقشرة ميتة • الشفافية والترقرق فى الداخل حقيقة .

فتجلس واضعة اصبعها الخنصر فى فمها تفكر بعمق فيما قال • كلماته كانت تعطيها احساسا جديدا بالحياة ، تبعث الحياة فى أشياء لم تكن تعنى شيئا بالنسبة اليها . توصلت الى أن تجد بعض المعنى فى أحاديثه المتعثرة التجريدية • فباتت تلك الاحاديث وسيطا تنفذ من خلاله بجلاء الى الاشياء المحببة الى قلبها .

فى يوم آخر كانت جالسة اليه فى الغروب وهو يرسم بعض أشجار الصنوبر ووهج الغروب الاحمر ينصب عليها من الغرب . ظل طيلة الوقت صامتا ثم قال فجأة :

ــ هاك ! هذا ما أردت أن أصوره . انظرى اليها الآن وخبرينى. هل هذه جذوع صنوبر أو جمرات متوقدة ، ألسنة لهب منتصبة فى تلك القمة ؟ هاك عليقة الله المشتعلة ، ان أحببت ، عليقة لم تخب نارها .

نظرت ميريام وانتابها خوف . لكن جذوع الصنوبر كانت ناطقة أمام عينيها ، ورائعة . جمع أدواته وهم واقفا . ثم نظر اليها فجأة ، فسألها :

ــ لماذا أنت حزينة دائما ؟

صاحت وهي ترفع اليه عينيها البنيتين الرائعتين وقد باغتها قوله :

ــ حزينة !..

قال :

ــ نعم . أنت دائما ، دائما ، حزينة !

فصاحت :

ــ كلا ، أبدا ، لست كذلك على الاطلاق .

لكنه أصر على قوله :

ــ حتى عندما تفرحين يكون فرحك كأنه لهب ينبثق من الحزن. أنت لا تعرفين البهجة أو حتى راحة البال .

قالت متفكرة :

ــ نعم ..ترى لم ؟

ــ لأنك لست كذلك . لأنك مختلفة فى داخلك ، كشجرة صنوبر، لكنك لست كشجرة عادية ، تفور بالبهجة ، لا تكف أوراقها عن الحركة ..

اختلط عليه قوله ، لكنها استغرقت تفكر فيه ، وانتابه

هو احساس غريب هاجه الموقف فى نفسه ، كما لو كانت كل تلك المشاعر جديدة طارئة عليه • اقتربت منه أكثر ، فكان قربها مثيرا غريبا •

لكنه فى بعض الاوقات كان يكرهها • كان أخوها الاصغر فى الخامسة من عمره ، طفلا رقيق البنية ، ذا عينين بنيتين واسعتين تبتلعان جزءا لا يستهان به من وجهه الرقيق غريب الشكل •• وجه ملاك من ملائكة رينولدز فى جوقته السماوية ، لكن فيه لمسة من وجه جنى صغير . ما أكثر ما ركعت ميريام أمام الطفل وشدته اليها فاحتضنته مترنمة بصوت ثقيل مفعم بالحب :

ـ حبيبى هيوبرت ! حبيبى هيوبرت !

تعتصر الطفل بين ذراعيها وتتمايل به يمنة ويسرة ، رافعة وجهها الى أعلى ، وعيناها نصف مغمضتين تفيضان حبا . فيقول الطفل غير مطمئن لهذه الفورة :

ـ كلا يا ميريام . لا تفعلى هذا . لا تفعلى هذا !

فتغمغم وصوتها يخرج من أعماق حنجرتها كأنها فى قبضة غيبوبة من النشوة ، لا تكف عن ترنحها وكأن لذة حب عارمة تذيب حواسها :

ـ نعم . انت تحبنى ، أليس كذلك ؟

فيردد الطفل وعبوس يعكر صفاء جبينه :

ـ كفى •• كفى ••

فتغمغم ، سادرة فيما هى فيه :

ـ انت تحبنى ، أليس كذلك ؟

صاح بول وقد أمضه ذلك التطرف فى عاطفتها :

ـ علام كل هذه الضجة ؟ لم لا تكونين طبيعية معه ؟

تركت الطفل من بين ذراعيها ، ونهضت دون أن تقول شيئا . تلك الحدة فى مشاعرها طالما أثارت حنقا بلغ حد الهياج فى نفس بول ، لأنها لا تضع أية عاطفة موضعها السوى ، وذلك الاتصال العارى المخوف بها فى تلك المناسبات الصغيرة صدمه وأثار نفوره . كان معتادا على تحفظ أمه ، ولكم امتلأ قلبه وفاضت روحه بالشكر والعرفان لأمه ، فى تلك المناسبات ، لهدوئها السوى المتزن اذ يقارنه بهياج ميريام .

كل ما فى جسد ميريام من حياة كان فى عينيها اللتين تستقر فيهما عادة عتمة ساكنة كعتمة الكنائس ، لكنهما قادرتان على أن ينبثق فيهما بغتة ضوء كلهب حريق • أما وجهها فندر ان تتغير مسحة التفكير المهموم التى تكسوه . كانت أشبه بواحدة من النسوة

اللائى ذهبن مع مريم عندما مات يسوع . لم يكن جسدها مرنا مرونة الحياة. فهى تسير متمايلة ، بشىء من التثاقل،راسها محنىالى الامام ، ونظرة التفكير المهموم تكسو ملامحها . لم تكن ثقيلة الحركة ، لـكن شيئا مما تفعله لم يكن يتصف بالمرونة . فحركتها ليس فيها انسياب الحركة . ما أكثر المرات التى تسمرت فيها مكانها وهى تجفف الصحاف ، ناظرة بارتباك ولوعة الى فنجان انكسر فى يدها الى نصفين وهى تجففه . بدت كما لو كانت تفعل كل ما تفعله بقوة مبالغ فيها ، عن خوف وانعدام ثقة بالنفس . فهى لا رخاوة فيهـا او فى أى شىء تفعله . كل ما تمسكه تطبق عليه بعنف وحدة ، وكل جهد تأتيه مفعم بقوة زائدة ، منغلق على نفسه .

نادرا ما شذت عن مشيتها المشدودة ، المتطوحة ، المائلة الى الامام . كانت تجرى أحيانا مع بول عبر الحقول . اذ ذاك كانت عيناها تسفران ، تتعريان وتتوقد فيهما نشوة عارمة تخيفه . لكن كل فعل جسدى كان يخيفها . فهى اذا حاولت أن تقفز من فوق سياج معه ، تقبضت يدها على يده بضنى متصلب مذعور، وبدأت تفقد حضور ذهنها . ولم يكن مستطيعا أن يقنعها بالقفز حتى من أقل المرتفعات انخفاضا . تتسع عيناها لفورها ، وتتعريان ، تنطقان برعب نابض كخفقان قلب مذعور ، وتصيح بنصف ضحكة خائفة :

ــ كلا ، كلا !

صاح بها ذات مرة ، وجذبها اليه من يدها ، فأوقعها من فوق السور :

ــ بل ستقفزين !

لـكن آهة الألم التى انطلقت منها ، كأنها توشك أن تفقد وعيها خوفا ، جعلته يكف . سقطت واقفة على قدميها ، فجعلها ذلك لا تخاف مثل تلك القفزات فيما بعد .

كانت شـديدة التذمر من كآبة حياتها فى البيت . سـألها بول دهشا :

ــ ألا يروق لك البقاء فى البيت ؟

أجابته بصوت خفيض محتد :

ــ وأى فتاة يروق لها ذلك ؟ أى حياة هذه ؟ اقضى اليوم كله فى تنظيف البيت ، فيأتون ويتسخ كل شىء من جديد فى خمس دقائق . كلا .. لا أريد أن أكون رهينة البيت .

ــ ماذا تريدين اذن ؟

ــ أريد أن أفعل شيئا . أريد فرصة ككل انسان آخر . لم يجب ان أظل رهينة البيت ، لمجرد انى فتاة ، فلا يسمح لى بأن أفعل شيئا ؟ أى فرصة لدى ؟

ــ فرصة لكى تفعلى أى شيء ؟

ــ فرصة معرفة أى شيء .. فرصة التعلم ، والقيام بأى شيء . ليس هذا عدلا ، لمجرد كونى امرأة .

بدت شديدة المرارة . عجب بول لأمرها . فى بيتهم كانت آنى راضية بكونها فتاة ، بل تكاد تغبط نفسها . فمسئولياتها ليست ثقيلة ، والأمور هينة بالنسبة اليها . لم يخطر لها ببال أبدا أن ترغب فى أن تكون خلاف ما هى عليه . لـكن ميريام تكاد تموت شوقا لأن تصبح رجلا . ومع ذلك فهى تكره الرجال فى نفس الوقت .

قال مقطبا :

ــ ومع ذلك يستوى أن يكون الانسان امرأة أو رجلا .

ــ ها ! حقا ؟ الرجال لديهم كل شيء .

أجابها قائلا :

ــ اعتقادى ان النساء يجب أن يغبطن أنفسهن لكونهن نساء ، تماما كما يجب أن يغبط الرجال أنفسهم لكونهم رجالا .

لكنها هزت رأسها نفيا :

ــ كلا ! أبدا . كل شيء من حق الرجال وحدهم .

فسألها :

ــ لـكن ما الذى تريدينه ؟

ــ أريد أن أتعلم . لم يفرض على الا أعرف شيئا ؟

ــ ماذا ! كالرياضيات واللغة الفرنسية ؟

ــ ولم لا يجب أن أتعلم الرياضيات ؟ نعم !

اتسعت عيناها بنوع من التحدى .

قال لها :

ــ يمكنك أن تتعلمى كل ما أعرفه . سأعلمك ، ان أحببت .

اتسعت عيناها . لم تكن تثق به كمعلم . سألته :

ــ حقا ستعلمنى ؟

طأطأت رأسها ، وأخذت تمص خنصرها ساهمة .

قال مترددا :

ــ نعم ..

كان من دأبه أن يخبر أمه بكل هذه الاشياء . قال لها :
ــ سأعلم ميريام الجبر .
فأجابت مسز مورل :
ــ عال ! أرجو لها أن تسمن عليه !

عندما ذهب الى المزرعة فى مساء الاثنين ، كان الغسق وشيكا . وجد ميريام وقد أوشكت أن تنتهى من كنس المطبخ . كانت راكعة أمام المدفأة عندما دخل . لم يكن فى البيت سواها . استدارت تنظر اليه وقد تضرج وجهها ، والتمعت عيناها الداكنتان ، وانساب شعرها الجميل حول وجهها .
قالت بصوت خافت موسيقى :
ــ أهلا ! عرفت أنك القادم .
ــ كيف ؟
ــ عرفتك من خطوتك. لا أحد يخطو بهذه السرعة وهذا الحزم.
جلس متنهدا ، فقال لها وهو يخرج كتابا صغيرا من جيبه :
ــ مستعدة لدرس الجبر ؟
ــ ولــكن ..
احس أنها تتراجع ، فقال باصرار :
ــ قلت انك تريدين ذلك .
تلعثمت قائلة :
ــ الليلة يعنى ؟
ــ لقد جئت لهذا . فان كنت راغبة فى تعلمه حقا ، يجب أن نبدأ .
جمعت الرماد الذى كانت تكنسه من المدفأة فى الجاروف ، ونظرت اليه ، خائفة ، ضاحكة :
ــ نعم .. ولــكن الليلة ! لم أكن أتوقع أن نبدأ على الفور هكذا !
ــ أما والله ! اذهبى فافرغى هذا الرماد وتعالى .

ذهب فجلس على مقعد حجرى فى الفناء الخلفى حيث صفت أقساط اللبن لتهويتها . كان الرجال فى حظائر الماشية ، وصــوت اللبن الذى يحلب فى الدلاء يبلغ أذنيه خافتا مترنما . ما لبثت أن جاءت تحمل اليه بضع تفاحات كبيرة مخضرة. قالت وهى تقدمها له :
ــ أنت تحب هذا التفاح .
قضم قضمة ، وقال لها بفم ممتلىء :
ــ اجلسى .

كانت قصيرة النظر ، فأخذت تنظر من فوق كتفه . ضايقه ذلك ، فأعطاها الكتاب بسرعة ، قائلا :

ـ هاك . كل ما فى الأمر أن الحروف تحل محل الأرقام . الحرف « ا » مثلا ، يحل محل الرقم «٢» أو «٦» .

أخذا يعملان ، هو يتكلم وهى تصغي ورأسها منحنى على الكتاب. تلاحقت كلماته فى عجلة ، دون أن تجيبه بحرف ، فاذا ما سألها ، بين الحين والحين ، قائلا : « أترين ؟ » رفعت رأسها ناظرة اليه ، وقد اتسعت عيناها بضحكتها المبتسرة النابعة من خوفها ، فيصيح بها : « أتفهمين أم لا ؟ »

ولقد أسرع أكثر مما يجب فى شرحه لها ، لكنها لم تقل شيئا ، فتلاحقت أسئلته وهى لا تجيب ، فاحتد وغلى دمه . تملكته اثارة ساخنة وهو يراها تحت رحمته ، بفم مفتوح ، وقد اتسعت عيناها بضحكة مذعورة ، معتذرة ، خجلى . ثم أقبل ادجار حاملا دلوين من اللبن . قال له :

ـ أهلا ! ماذا تفعلان ؟

أجاب بول :

ـ درس فى الجبر .

قال ادجار متعجبا :

ـ جبر ! ..

ثم انصرف عنهما ضاحكا .

قضم بول قضمة أخرى من تفاحته المنسية ، ونظر الى الكرنب المسكين فى الحديقة وقد نقر الدجاج أوراقه حتى بات كالدانتلا ، فود لو اقتلعه من جذوره . ثم رمق ميريام بنظرة سريعة . كانت تحملق فى الكتاب ، وقد بدت مستغرقة فيه ، لكنها ترتعد خشية ألا تفهمه . أحنقه ذلك . كانت جميلة متوردة تفيض صحة واشراقا . لكن روحها بدت منسحقة ناطقة بضراعة أمضته . أقفلت كتاب الجبر ، وانكمشت متباعدة وقد أدركت أنها أغضبته . وفى اللحظة نفسها تغير احساسه تجاهها الى رقة وحنان ، وقد أدرك ثقل ما تحسه من مهانة لكونها لم تفهم .

لكن الاشياء كانت تأتى اليها ببطء ، بفهم عسير . كلما جلست اليه ، متوترة ، كأنما تقبض على نفسها بيد لا ترحم ، ذليلة منسحقة أمام الدرس الذى يلقنها اياه ، غلت الدماء فى عروقه ، وعنفها ، ثم أحس خجلا ، فعاود الدرس لينتابه الغضب من جديد ، فيصيح

مهتاجا ، ويسبها . وهى تصغى فى صمت . فى أحيان نادرة كانت تدافع عن نفسها ، فتهب فى وجهه وتتوقد عيناها الداكنتان :
ــ أنت لا تدع لى وقتا لأتعلم .
فيصيح مغضبا :
ــ كذا ؟
ويلقى بالكتاب على المنضدة ثم يشعل لفافة . لكنه ما يلبث أن يعود اليها نادما ، مستغفرا . وهكذا استمرت الدروس ، وهو اما فى فورة غضب ، أو ممعنا فى رقته معها .
صاح بها :
ــ أى شيء يجعلك ترتعدين فرقا هكذا ؟ ما دخل روحك فى الأمر حتى تنسحق أمام درس فى الجبر ؟ انت لا تتعلمين الجبر بروحك المباركة . الا تستطيعين أن تنظرى الى الأمر ببساطة ، بذهن غير مشوش بالخوف ؟
كثيرا ما نظرت اليه مسز ليفرز معاتبة وهو يعود الى المطبخ من معاركه هذه مع ابنتها ، قائلة :
ــ بول . لا تقس هكذا على ميريام . قد لا تكون سريعة الفهم . لكني واثقة من أنها تبذل جهدها .
فيقول بلهجة تثير الشفقة :
ــ لا أستطيع أن أتحكم فى نفسى . يثور غضبى فلا أستطيع أن أكبحه .
سأل الفتاة فيما بعد :
ــ ميريام ، انت لست غاضبة منى ، أليس كذلك ؟
فقالت تطمئنه بنبراتها العميقة الحلوة :
ــ كلا ، كلا ، لست غاضبة .
ــ أرجو ذلك . فالخطأ خطئى .
لكنه ، بالرغم منه ، تملكه الغضب من جديد . من عجب أن أحدا لم يكن يثير غضبه كما تثيره هى فينفجر فى وجهها . مرة ألقى بالقلم مهتاجا فكاد يصيب عينها . ساد صمت بينهما ، وقد أشاحت بوجهها قليلا .
تلجلج قائلا :
ــ لم أقصد ..
ثم سكت وقد أحس وهنا يشيع فى عظامه . لم تؤنبه ابدا أو تغضبها فوراته . فكان الخجل يمضه . لكنه ما يلبث أن ينفجر

غضبه كفقاعة مشحونة بشحنة تفوق طاقتها ، لا يكاد يرى وجهها الملهوف ، الصامت ، الذى يوشك أن يكون أعمى فى صبره ، حتى يحس رغبة فى أن يلقى بالقلم فى ذلك الوجه ثانية ، ثم ، اذ يرى يدها مرتعشة ، وفمها مفتوحا من عنف ما تعانيه يحترق قلبه أشفاقا عليها . ذلك الاصطخاب الذى آثارته فى نفسه جعله يشتهيها .

اذ ذاك بدأ يتجنبها ويكثر من الخروج مع ادجار . كانت ميريام وأخوها عدوين بطبعهما . فادجار عقلانى ، صاحب فضول ، واهتمام شبه علمى بكل ما حوله . أحست الفتاة مرارة أليمة وهى تجد بول منصرفا عنها الى ادجار الذى يبدو لها دونها بكثير . لكن الفتى كان يجد سعادة حقيقية فى صحبة أخيها الاكبر . فهما يقضيان بعد الظهر فى الحقول معا ، أو ، عندما تمطر ، فى بعض أعمال النجارة ، وقد يقضيان الوقت فى الحديث ، فيأخذ بول فى تلقين ادجار بعض الاغنيات التى حفظها عن آنى ، على البيانو ، فى مرات أخرى كثيرة يجتمع رجال الأسرة ، ومسز ليفرز معهم ، يناقشون بمرارة تأميم الارض وما أشبه ذلك من المشكلات . كان بول قد سمع آراء أمه فى تلك المسائل ، ولما كان لا يزال يعتنق كل ما تؤمن به ، فانه يردد آراءها . اشتركت ميريام فى تلك المناقشات ، لكنها تدلى بدلوها لمجرد أن تكون بقربه ، فى انتظار اللحظة التى ينفض فيها جمعهم ، فتنفرد به .

قالت فى دخيلة نفسها :

ــ وماذا لو أممت الارض . ادجار وبول وأنا لن يتغير فينا شىء .

وهكذا انتظرت صابرة أن يعود فتاها اليها .

كان يدرس التصوير بالمراسلة ليرفع من مستواه . كم أحب أن يجلس فى البيت ، ليلا ، وحده مع أمه ، فيعمل بغير هوادة ، بينما أمه تحيك أو تقرأ . ثم يرفع رأسه فجأة لتستقر عيناه على وجهها المضىء بدفء حى ، فيعود الى عمله مبتهجا .

قال لها :

ــ احسن صورى هى تلك التى ارسمها بقربك وأنت جالسة فى مقعدك الهزاز يا أماه .

قالت بنبرة تشكك مصطنع :

ــ اى والله !

لكنها أدركت ان الأمر كذلك ، فارتعد قلبها فى داخلها جذلا .

كانت تجلس الى جواره ساعات بأكملها ، لا تكاد تحس مرور

الوقت ، وهو يعمل فى صمت ، بينما هى تعمل أو تقرأ كتابا . أما هو ، واحتــدام فى روحه يوجه قلمه على الورق ، فيحس الدفء الذى يشيعه قربها فيه كنبــع من القوة فى داخله . كانا سعيدين غاية السعادة ، دون أن يعى أى منهما سعادته . كانت تلك الأوقات تعنى الكثير بالنسبة لكليهما ، فهى الأوقات التى يعيشان فيها حقا ، وان تظاهرا بعكس ذلك .

لكنه لا يتوقد وعيه الا اذا أيقظ ذلك الوعى منبه خارجى ، لذلك لا يكاد ينتهى من احدى صوره حتى يحس رغبة فى أن يذهب بها الى ميريام . فرؤيتها لعمله هى المنبه الذى يجعله يتعرف على ذلك العمل بعد أن يكون قد أنجزه بغير وعى . اتصاله بها يزوده بالبصـــيرة ، ويعمق رؤيته . فهو يستمد من أمه دفء الحياة ، والقوة على الانتاج ، أما ميريام فتحفز ذلك الدفء الى مرتبة من الحدة يتوهج فيها كضوء أبيض .

عندما عاد الى المصنع كانت ظروف العمل قد تحسنت . بات بوسعه ــ بفضل تدخل مس جوردان ــ أن يحصل على اجازة نصف اليوم ، كل أربعاء ، ليحضر دروســا فى التصوير . فــوق ان موعد الانصراف قدم من الثامنة الى السادسة فى يومى الخميس والجمعة .

ذات مساء فى الصيف ، اخترق هو وميريام الحقول ، قرب مزرعة هيرود ، فى طريق عودتهما من المكتبة الى البيت ، فاختــصرا المسافة الى مزرعة أهلها الى ثلاثة أميال . كان العشب يكسوه وهج أصفر ، ترصعه زهور تتوقد بلون قرمزى . رويدا ، وهما يسيران على الارض المرتفعة ، غاض الذهب من الغرب فبات أحمر ، ومن الاحمر الى القرمزى ، ثم زحفت زرقة مثلوجة كستار يسدل على الوهج .

خرجا من الحقول الى الطـريق الرئيسى الموصل الى ألفريتون ، كشريط أبيض على جانبيه عتمة الحقول . وهنا تردد بول . فالمسافة من تلك النقطة الى بيته لا تزيد على ميلين ، رجوعا ، وميل واحد الى بيت ميريام ، قدما . نظر كلاهما الى الطريق ممتدا تغلفه عتمة المساء تحت وهج السماء الشمالية الغربية . على قمة التل تنتصب سيلبى ببيوتها العارية ، وأبنية المنجم تنتهى بقمم كالاشــواك ، والبلدة كلها كأنها مرسومة ، صغيرة ، على صفحة السماء .

نظر فى ساعته :

ــ التاسعة !

وقفا معا ، كارهين للفراق ، كل منهما يحتضن كتبه الى صدره • قالت :

ـ لا تتصور كم تكون الغابة جميلة فى هذا الوقت . كنت أريدك أن تراها .

تبعها متباطئا عبر الطريق الى البوابة البيضاء ، قائلا :

ـ انهم يقيمون الدنيا ويقعدونها فى البيت اذا تأخرت .

فأجابت بنفاد صبر :

ـ لكنك لا تفعل ما يستحق أن يقيموا الدنيا أو يقعدوها بسببه •

تبعها عبر المرعى الذى قرضت جحافل الارانب البرية عشبه ، فى عتمة مخيمة • الهواء فيه برودة بين أشجار الغابة ، ونفح أوراق ، وزهور ، وغسق يتلكأ • سار الاثنان فى صمت • مقدم الليل كان رائعا فى تلك البقعة ، وسط ذلك الحشد الصامت المتكاثر من الجذوع الداكنة • نظر حوله كمن يتوقع شيئا •

أرادت أن تريه شجيرة ورود برية اكتشفتها فى احدى جولاتها . كانت تعلم انها شجيرة رائعة ، ومع ذلك احست أنها ، حتى اللحظة التى يراها فيها ، لن تكون قد عرفت الطريق الى روحها • لا أحد غيره يستطيع أن يجعل تلك الشجيرة ملكا لها ، وان يخلدها .

الندى قد بدأ يبلل دروب الغابة ، وفى دغل أشجار البلوط غيم يرتفع فيغلف كل ما حوله . تردد بول فى سيره ، لا يدرى ان كان البياض الذى يراه أمامه ضبابا ، أم زهورا شحبت فى سحابة غيم .

عندما بلغا أشجار الصنوبر كانت ميريام قد فعلت بها اللهفة والتوتر فعلهما . لعل شجيرتها قد اختفت . أو لعلها لا تستطيع العثور عليها ، وهى تريد ، بكل قوى روحها ، أن تكون معه لحظة أن يقف أمام تلك الورود . فذلك سيكون شيئا حميما يتشاركان فيه ، شيئا يثير نشوة فى نفسها ويهزها هزا ، شيئا مقدسا . أخذ يسير بجوارها فى صمت ، وقد تقاربا كأشد ما يكون التقارب • انتابتها رعشة بينما هو يصيخ سمعه ، وقد تملكه قلق مبهم •

على حافة الغابة بدت السماء لهما كالصدف ، والارض تكاثفت عتمتها . فى مكان ما قصى ، بين فروع أشجار الصنوبر ، زهور تفوح بعبق يدير الرءوس •

سألها :

ـ أين ؟

غمغمت وهى ترتعد :

ـ قرب نهاية الممر الاوسط .

عندما دارا مع انحناءة الدرب ، تسمرت فى مكانها . وقفت فى الدرب العريض بين أشجار الصنوبر تحدق وقد انتابها خوف . انقضت لحظات وهى لا تستطيع أن تميز شيئا فى الضوء الحافل الذى يسلب الاشياء ألوانها . ثم أبصرت شجيرتها ، فانفلتت منها آهة ، واندفعت اليها .

كان السكون فى الدغل عميقا . وقفا أمام الشجيرة ، سامقة متشعبة فروعها ، متشابكة فى شجيرة من الزعرور البرى ، وأطراف الفروع مدلاة سميكة حتى العشب ، تصبغ الظلمة حيثما لامستها بتبر ناصع البياض ، ترصعها بنجوم هى ورودها العاجية الملتمعة فى عتمة الاوراق والسوق والعشب . وقفا متلاصقين ينظران فى صمت ، وكأنما فى صفحة سماء معتمة ، تتوقد فيها نجمة بعد نجمة ، ورودا تضىء لهما ، فتبدو كأنها توقد جذوة فى روحيهما . حتى الظلمة المطبقة كدخان كثيف داكن حولهما ، هابطة على كل شىء ، عجزت عن أن تطفىء تلك الورود .

نظر بول فى عينى ميريام . كانت شاحبة ، مترقبة من فرط عجب ، وقد افترت شفتاها وانفتحت عيناها لعينيه ، فكأنما نظرته تنفذ الى داخلها فتغوص الى أعماقها . ارتعدت روحها . فقد تواصلا كما اشتهت ، وعرفت روحه الطريق الى روحها . استدار جانبا كأنما من فرط ألم ، استدار الى الشجيرة .

قال :

ـ هذه الورود كأنها فراشات تخطو ، وتهز أنفسها .

نظرت الى ورودها ، بيضاء ، بعضها تقوس وانطوى على نفسه كسر مقدس يستغلق ، والبعض انفتح من نشوة وتمددت أوراقه . الشجيرة داكنة كالظل . رفعت يدها يدفعها دافع خفى الى الورود ، ذهبت اليها فلمستها بتعبد .

قال لها :

ـ دعينا نذهب .

كان عبق ندى من ورود عاجية ، عبق أبيض ، عذرى . شىء جعله يحس نفسه سجينا يتململ . سار الاثنان فى صمت .

قال لها بهدوء :

ـ الى أن نلتقى يوم الأحد .

ثم تركها ومضى . سارت الى البيت على مهل ، وقد أحست

اشباعا يملأ روحها من قدسية الليلة • تعثر فى الدرب المعتم ، فلم يكد يخلف الغابة وراءه ، ويخرج الى المرج الطليق المفتوح ، حيث يستطيع أن يتنفس ، حتى انطلق يعدو بأقصى سرعته ، وفى عروقه شيء أشبه بهذيان بالغ المتعة .

كلما خرج مع ميريام وتأخر بهما الوقت كان يعلم أن أمه سينتابها قلق عليه ، وغضب منه ، وان لم يستطع أن يفهم لذلك سببا . عندما دخل البيت ، فألقى بغطاء رأسه ، رفعت أمه رأسها ونظرت الى ساعة الحائط . كانت جالسة تفكر لأن مرضا طارئا فى عينيها منعها من القراءة . أحست أن تلك الفتاة قد بدأت تبعده عنها . لم تشعر بأى ميل فى أى وقت الى ميريام . قالت لنفسها : « انها من ذلك الصنف الذى يمتص روح الرجل فلا يدع له روحا فى جسده . وهو من البلاهة بحيث يترك نفسه بين براثنها وينقاد لها . لن تدعه تلك الفتاة يبلغ مبلغ الرجال . لن تدعه » . وهكذا تزايد حنق مسز مورل ، واشتدت نقمتها على صاحبته ، بينما هو يتجول فى الغابة معها .

نظرت الى الساعة وقالت ببرود ، وصوتها ينطق بالتعب :

ـ تأخرت بما فيه الكفاية الليلة .

روحه ، ما زالت دافئة مكشوفة من الاتصال بالفتاة ، تراجعت وانكمشت .

استطردت أمه :

ـ لابد انك عدت معها حتى باب بيتها .. ؟

لكنه رفض أن يجيبها . رمقته مسز مورل بنظرة سريعة فرأت شعره وقد ألصقه العرق على جبينه فأدركت انه كان يعدو . لكنها رأت لقولها عبوسا ثقيلا فى وجهه ، وحنقا .

ـ لابد انها ساحرة بطريقة رائعة تلك الفتاة ، حتى انك لاتستطيع أن تنتزع نفسك منها ، مفضلا أن تقطع ثمانية أميال فى هذا الوقت المتأخر من الليل .

أحس نفسه محاصرا وضنى يمضه بين لحظاته الباهرة مع ميريام منذ قليل وبين ادراكه لما سببه لأمه من قلق . كان قد انتوى ألا يقول شيئا ، أن يمتنع عن الرد ، لكنه لم يستطع أن يتجاهل أمه قال محنقا :

ـ نعم .. انا احب التحدث اليها .

ـ وهل لا تجد أحدا آخر تتحدث اليه ؟ ..

ـ لو كان الذى خرجت معه هو ادجار ، هـــل كنت تقولين ما قلت ؟ ..

ـ نعم .. كنت أقول نفس الشيء ، وأنت تعلم ذلك ، بصرف النظر عمن كنت معه . فتلك مسافة لا يستهان بها فى الليل ، خاصة وأنت تذهب الى نوتينجهام فى الصباح ، فوق أن ....

وهنا انبثق غضب وازدراء فى صوتها :

ـ فوق ان الامر مقزز .. ولد وبنت فى مثل عمركما يفعلان أشياء كهذه !

صاح :

ـ نحن لا نفعل شيئا .

ـ والله !

ـ لا نفعل . أتظنين اننا نختلس القبل ونفعل أشياء كهذه ؟ لا نفعل شيئا الا أن نتحدث .

فجاءه ردها الساخر :

ـ كل هذا الوقت ؟ وطول هذه المسافة ؟ ياشيخ !

انحنى بول يحل رباط حذائه فيوشك أن يقطعه من فرط غضبه . سألها :

ـ ما الذى يغضبك الى هذا الحد ؟ الأنك لا تحبينها ؟ ..

ـ لم أقل انى لا أحبها . لكن لا اوافق أن يختلط الأطفال ببعضهم ويخرجون معا . لم أومن بذلك المبدأ أبدا .

ـ لـكنك لا تمانعين فى خروج ابنتك آنى مع جيم اينجر .

ـ لأنهما أرجح عقلا منكما .

لم ير لهذه الملاحظة معنى . لـكن أمه كانت تبدو متعبة للغاية . لم تعد قوية بعد موت وليم ، فوق أن عينيها تؤلمانها . قال مهادنا :

ـ أنت تعرفين كم أحب الريف . وقد سأل مستر سليث عنك . قال انه يفتقدك كثيرا . هل تحسنت بعض الشيء ؟

أجابت :

ـ كان ينبغى لى أن أكون فى الفراش من وقت طويل .

ـ كيف ذلك يا أمى . أنت تعرفين أنك لا تذهبين الى الفراش قبل العاشرة والربع .

ـ بل يجب أن أذهب الى الفراش مبكرة .

ـ يالك من امرأة صغيرة ! أنت على استعداد الآن لأن تقولى أى شيء لمجرد أنك غاضبة منى ، أليس كذلك ؟ ..

قبلها في جبينها الذى يعـرفه جيـدا ، بعبسته العميقة بين الحاجبين ، ومنبت شعرها الجميل ، وقد بدأ الشيب يسرى فيه ، بشكل الصدغين المنبىء عن كبرياء . تلكأت يده على كتفها بعد أن قبلها · ثم ذهب متباطئا الى الفراش ، وقد نسى ميريام · لم يعد يرى الا شعر أمه مرفوعا من جبينها الدافىء المريض ، وقد انتابه احساس بأنه أساء اليها بشكل ما .

في لقائه التالي بميريام قال لها :

ــ لا تدعيني أتأخر الليلة ·· ليس بعد العاشرة · فأمي تتضايق ·

طأطأت ميريام رأسها واستغرقت في تفكير مهموم . سألته :

ــ ما الذى يضايقها ؟ ..

ــ تقول انى لا يجب أن أتأخر كثيرا ، لأنى أستيقظ مبكرا .

فقالت ميريام بهدوء ، وفى صوتها نبرة خفيفة من الزراية :

ــ حاضر .. لن نضايقها !

أحنقته تلك النبرة فى صوتها · تعمد أن يعود الى البيت متأخرا بعد ذلك .

لم يكن أيهما على استعداد للاعتراف ، فيما بينه وبين نفسه ، بأن حبا كان يترعرع بينهما · فهو يظن أنه أعقـل من أن ينغمس في مثل تلك العواطف ، وهى تظن نفسها اسمى من ان تنزل الى ذلك المستوى · فكلاهما قد تأخر فى بلوغ مـرحلة النضج ، والنضج النفسى قد تأخر بدوره ، كثيرا ، عن النضج الجسـدى · كانت ميريام مفرطة الحساسية ، مثـل أمهـا · أدنى خشـونة فى القول تجعلها تتراجع فى ضنى حقيقى . كان اخوتها أفظاظا ، لكنهم لا يفوهون بكلمة نابية . حتى شئون المزرعة ، والماشية ، يناقشونها مع أبيهم خارج البيت . لـكن ، ربما بسبب مسألة الحمل والولادة التى لا تنقطع فى كل مزرعة ، كانت ميريام مفرطة الحساسية فيما يخص تلك الاشياء ، حتى بات أقل ذكر لها بمحضر منها يثير تقززها ، وكأنما ذلك التقزز نابع من شىء أصيل فى دمها . وقد حذا بول حذوها ، فقامت علاقتهما على أساس عذرى ممعن فى عذريته . فهو لا يكاد يجرؤ على أن يذكر فى حضرتها ان الفرس ستلد مهرا .

عندما بلغ التاسعة عشرة لم يكن كسبه قد تجاوز عشرين شلنا فى الاسبوع ، لـكنه كان سعيدا . فالتصوير سائر على ما يرام ، والحياة ، هى الاخرى ، سائرة على ما يرام . فى يوم الجمعة الحزينة نظم رحلة الى هملوك ستون ، ضمت ثلاثة من الفتية فى مثل عمره ،

ثم آنى ، وآرثر ، وميريام ، وجوفرى • فآرثر ، الذى تتلمذ على أحد الكهربائيين فى نوتينجهام ، كان قد عاد الى البيت لقضاء العطلة . استيقظ مورل ، كعادته ، مبكرا ، فسمعوه يصفر بفمه ، ويعمل منشاره فى قطعة خشب فى الفناء . فى السابعة سمعوه يشترى كعكا ساخنا بثلاثة بنسات ، ويتحدث الى البنت الصغيرة بائعة الكعك فيدعوها « حبيبتى » ، متلطفا معها ، ثم يصرف عددا من الصبية جاءوا يبيعونه كعكا ، قائلا لهم ان بنتا صغيرة قد تفوقت عليهم . ثم غادرت مسز مورل فراشها ، فتقاطروا فى أعقابها . كان ذلك الرقاد فى الفراش ، بعد الموعد المعتاد ، فى غير يوم عطلة ، ترفا عظيما بالنسبة اليهم جميعا • استمتع بول وآرثر بالقراءة قبل الافطار ، ثم تناولا الوجبة دون أن يغتسلا ، بثياب البيت . كان ذلك ترفا آخر غير مألوف . كانت الحجرة دافئة ، وكل شيء ينطق بغيبة الهم والقلق ، وباحساس وفرة ورخاء فى البيت .

بينما ولداها يقرءان ، خرجت مسز مورل الى الحديقة . كانوا يقيمون الآن فى بيت آخر ، بيت قديم على مقربة من بيتهم السابق فى شارع سكارجيل الذى رحلوا عنه بعد موت وليم بقليل . ما كادت امه تخرج حتى علت صيحة من الحديقة :

ـ بول ! بول ! تعال وانظر ..

كان ذلك صوت أمه • ألقى الكتب من يده وهرع خارجا • أمام البيت حديقة طويلة تمتد حتى تصبح حقلا . كان اليوم رماديا ، باردا ، وريح مثلوجة تهب آتية من دربيشاير • على بعد حقلين تبدأ بستوود ، خليطا من أسقف ، ومؤخرات بيوت حمراء ينتصب بينها برج الكنيسة ، وتترامى وراءها غابات وتلال تمتد حتى المرتفعات الرمادية الشاحبة لسلسلة بنين .

بحث بول فى الحديقة عن أمه . أطل رأسها من بين الشجيرات ، وصاحت به :

ـ تعال هنا ..

أجابها :

ـ لأى شيء ؟ ..

ـ تعال وانظر ..

كانت قد خرجت تشاهد البراعم التى نبتت فى بعض شجيرات الحديقة . ذهب بول اليها ، فوقف بجانبها . قالت له :

ـ تصور انه كان من المحتمل الا أراها أبدا .

تحت السياج ، فى حوض صغير ، بضع وريقات خضراء صغيرة ، وثلاث زهرات تفتحت . أشارت الأم على الزهور عميقة الزرقة صائحة :

ـ انظر اليها ! كنت أتفحص هذه الشجيرة عندما قلت لنفسى هناك شيء باهر الزرقة . ثم اذا بي أعثر عليهـا . هـذه زهور لا تنمو الا فى الجليد . من أين أتت ؟ ..

ـ لا أدرى ..

ـ عجيبة والله ! كنت أظن انى اعرف كل نبتة فى هذه الحديقة . انظر كيف ترعرعت ! شجيرة التوت هذه تحميها ، فلم يمسها الصقيع .

اقعى فرفع الزهيرات الزرقاء الثلاث اليه . قال لها :

ـ كم لونها رائع !

فصاحت :

ـ أليس كذلك ؟ .. أظنها زهورا سويسرية . تصور منظرها وسط الجليد هناك ! يقولون ان لديهم أشياء كثيرة جميلة كهذه . ولـكن من أين أتت ؟ .. لايمكن أن يكون الهواء قد حملها الى هنا .

تذكر اذ ذاك أنه غرس أشتاتا من شتلات ثم نسيها . قالت له عاتبة :

ـ ولم تخبرنى ! ؟ ..

ـ كلا .. فضلت أن أنتظر حتى تزهر .

ـ والآن ! كان من المحتمـل ألا أراها ! وأنا التى لم تكن فى حديقتى أبدا زهرة من هذا النوع ! ..

كانت منتشية باكتشافها . فحديقتها مصدر متعة لا تنتهى بالنسبة اليها ، وقد حمد بول ربه اذ باتت لديها اخيرا حديقة مترامية كهذه ، تخرج اليها كل صباح فتسعد بالعمل فيها . كان ما قالته حقيقيا ، فهى تعرف كل نبتة فى حديقتها .

جاء كل من دعاهم للاشتراك فى رحلتـه ، فلم يتخلف أحد . أخذوا طعام يومهم ، وخرجوا فى مرح ، جمعا سعيدا تظلله البهجة . وقفوا يطلون من فوق حائط الطاحونة ، يلقون قصاصات من ورق على أحد جانبى النفق ثم يسرعون ضاحكين ليشـهدوا اندفاعها خارجة من الجانب الآخر . وقفوا على كوبرى عبور المشاة المقام فى محطة بوتهوس ينظرون الى القضبان تلتمع باردة تحتهم .

قال صاحبه ليونارد ، وأبوه عامل اشارة فى السكك الحديدية :

ـ يجب أن تروا اكسبريس الاسكتلندى الطائر عندما يمر من هنا فى السادسة والنصف ! لا تكاد يابنى تسمع طنينه كأنه نحلة مسرعة .

التفت جمعهم الصغير يتابع القضبان بأبصاره فى اتجاه لندن ، ثم فى الاتجاه المقابل ، نحو اسكتلندا ، فأحسوا نفحة سحرية تأتيهم من تلك الاماكن المبهرة البعيدة .

فى ايلـكستون كان عمال المناجم ينتظرون زرافات أمام الحانات ، يترقبون لحظة افتتاحها . فتلك بلدة تتصف بالكسل والرخاوة . فى ستانتون جيت رأوا أفران مصنع الصلب تتـــوهج ، فلم يروا شيئا الا وثار بينهم نقاش مستفيض حوله . فى ترويل عبروا ثانية من دربيشاير الى نوتينجهامشاير ، فبلغوا مقصدهم ، هملوك ستون ، ساعة الغداء ، ليجدوا الحقل المحيط بها مكتظا بأناس من نوتينجهام وايلـكستون .

كانوا قد توقعوا نصبا جميلا ذا مهابة ووقار ، فلم يجدوا الا صخرة قميئة معوجة تثير الشفقة ، فى جانب من الحقل ، أشبه بنبات عش الغراب قد أصابه الذبول . اخـــذ ليونارد وديك ، لفورهما ، يحفران الحروف الاولى من اسميهما : «ل.و» ، و «د.ب» فى الحجر العتيق الاحمر . لـكن بول لم يحذ حذوهما لأنه كان قد قرأ فى احدى الصحف ملاحظة ساخرة عمن يحفرون أسماءهم فى مثل تلك الآثار اذ لا يجدون وسيلة للخلود غير هذه . ثم صعد الفتية جميعا الى قمة الصخرة وأخذوا ينظرون حولهم .

فى كل مكان بالحقل المترامى تحت أقدامهم كان فتيـــة مثلهم يمرحون مع عاملات من المصانع ، أو يتناولون غداءهم . وراء الحقل حديقة بيت ريفى كبير ، يحف بها سياج يانع الخضرة ، وتوشى مماشيها أحواض زهور .

قال بول لميريام :

ـ انظرى .. يا لها من حديقة هادئة !

نظرت الى الخضرة الداكنة ، والزهور الذهبية ثم رمقته وفى عينيها عرفان بالجميل . فقد بدا ، وهو بين الآخرين ، بعيدا عن متناول يدها ، مختلفا ، ليس بول الذى عرفته ، الذى يفهم بغير كلام أقل رجفة تعتمل فى أعماق روحها . بدا شيئا آخر ، يتكلم لغة غير لغتها . كم آلمها ذلك وأمات كل حس فيها حتى لم تعد ترى ما حولها ، فلم يردها الى الحياة الا رجوعه اليها ، تاركا ذاته

الاخرى ، ذاته الادنى ، بينهم ، ليسألها ان كانت ترى حديقته هذه ، فيصل ما انقطع من رفقة بينهما ، ويعودان معا • آذذاك أدارت ظهرها لذلك الحشد الذى فى الحقل ، بنفاد صبر ، وضيق بصحبتهم ، منصرفة عنهم الى الحديقة التى أشار اليها ، بزهورها الذهبية المغلقة على نفسها ، وشعور من السكينة ، يكاد يكون نشوة ، يتملكها ، ويعزلها عنهم ، حتى تكاد تحس انها وحدها معه ، فى قلب تلك الحديقة •

ثم تركها ثانية وانضم الى الآخرين • سرعان ما جمعوا أشياءهم وبدءوا رحلة العودة • فتخلفت ميريام ، تسير فى المؤخرة وحدها • فهى لا مكان لها بين الآخرين ، وما أندر ما تستطيع أن تقيم علاقة انسانية مع أحد : لذلك لم تجد الصداقة ، والرفقة ، والحب الا فى الطبيعة • رأت الشمس تنحدر الى الغروب واهنة ، وفى السياج الداكن الذى سرت فيه برودة المساء مبكرة بضع وريقات حمراء ، تلكأت تجمعها برفق ، بهيام ، والحب ينضح من أطراف أصابعها يتحسس الاوراق كأنها جسد حبيب ، وهيامها يتدفق من القلب وهجا يضيئها •

تنبهت فجأة انها قد باتت وحدها فى طريق لا تعرفه ، فأسرعت فى أعقابهم • فوجئت ببول ، وهى تدور حول منحن فى الدرب ، وقد انحنى على شىء ما ، مستغرقا فيه بكليته ، يعمل بصبر وأناة ، وقدر من اليأس • تباطأت فى سيرها ترقبه •

لم يلحظ وجودها ، فظل غارقا فيما هو فيه ، وسط الدرب ، ووراءه ينسلخ من ذلك المساء الاشهب عديم اللون ضوء من ذهب ، فيجعله يتراءى لعينيها كرسم بارز داكن على صفحة المساء . رأته ، نحيلا ، متماسك العود ، كأنه تقدمة من الشمس الغاربة اليها . اذ ذاك تملكها الم عميق ، وعرفت انها لابد تحبه ، وانها قد اكتشفته ، اكتشفت فيه امكانية نادرة ، واكتشفت وحدته . تقدمت منه ببطء ، وجسدها كله ، وروحها ، يرتجفان فى قبضة «بشارة» ما ..

رفع رأسه أخيرا ، فرآها .

صاح شاكرا لها :

ــ كيف ! .. هل انتظرتنى ؟ ..

رأت ظلا عميقا فى عينيه .

سألته :

ـ ماذا حدث ؟ . .
قال وهو يريها العطب الذى أصاب مظلته :
ـ انكسر شيء هنا .
فانتابها لفورها احساس بالخجل ، وقد أدركت ان جوفرى هو المسئول عن ذلك العطب . سألته :
ـ انها مظلة قديمة . . أليس كذلك ؟
عجبت لاهتمامه ، وهى تعرفه لا يقيم وزنا لمثل هـذه الاشياء الصغيرة ، كيف يجعل من الحبة قبة هذه المرة ؟
قال بهدوء ، وما زال يحاول اصلاح المظلة بصبر :
ـ انها هدية من ويليم . ولا أريد أمى أن تعرف أنها قد اصابها عطب .
نفذت كلماته كالنصل فى كيانها . هذا اذن ما يؤيد رؤيتها له ! نظرت اليه . لـكن شيئا من التحفظ كان يحوطه ، فلم تجرؤ على أن تطيب خاطره ، أو حتى أن تهمس اليه .
قال لها أخيرا :
ـ هيا بنا . لا أستطيع أن أصلحها .
فسارا معا فى صمت .
فى تلك الامسية نفسها كانا يسيران معا تحت الاشجار عنـد ندرجرين . كان يحدثها متوترا ، وكأنه يجاهد فى اقناع نفسـه .
قال بجهد واضح :
ـ أتعرفين . اذا أحب واحد آخر ، فالآخرين يحبه مثله !
فأجابته وآهة صغيرة تفلت منها :
ـ كما قالت لى أمى وأنا صغيرة : الحب يولد الحب .
ـ نعم . . شيء كهذا . أظن ان الامر يجب أن يكون كذلك .
ـ أرجو ذلك ، لأنه ان لم يكن كما تقول ، فان الحب يصبح شيئا مخيفا .
فأجابها :
ـ نعم . . لـكن الامر كذلك . بالنسبة لمعظم الناس على الاقل .
أحست ميريام قوة فى نفسها ، وقد بدا لها انه قد أقنع نفسه بتلك الحقيقة . لقاؤها المباغت به فى تلك الدرب وهو يصلح مظلته اعتبرته انكشافا ، وحديثه ذلك .. حفرت كلماته فى ذهنها حفرا ، كـكلمات الناموس .
باتت الآن له ، فى صفه على الدوام . حتى عندما تورط ، قرابة

ذلك الوقت ، فأساء الى أهلها ، وأهانهم بعجرفة غير مبـــررة ، وقفت في جانبه ، مقتنعة بأنه على حق فيما فعل • في تلك الايام كانت تحلم به أحلاما بالفة الحدة ، لا تنسى . وقد عاودتها تلك الاحلام فيما بعد ، على مستوى نفسى أكثر عمقا •

فى عيد الفصح قامت نفس الصحبة برحلة الى قصر وينجفيلد الاثرى • وجدت ميريام اثارة لا توصف فى ركوب القطار من سيثلى بريدج وسط زحام الذاهبين لقضاء العيد . غادر جمعهم القطار فى الفريتون • فى شارع البلدة انشد أهتمام بول الى عمـــال المناجم وكلابهم ، فذلك صنف جديد منهم لم يره من قبل . لكن ميريام لم تدب الحياة فى جسدها الا عندما بلغوا الـكنيسة . دخلوا مترددين، وقد تملـكتهم رهبة ووجل ، خشية أن يطردوا خارجا بما دخلوا يحملونه من سلال الطعام . فتح ليونارد ، النحيل ، المهذار ، الطريق أمامهم ، فتقاطروا فى أعقابه ، وبول آخرهم لأنه كان يفضل أن يموت على أن يتعرض لمهانة الطرد . وجدوا المـكان مزدانا للعيد ، وحوض العماد تنمو فيه مئات من زهور النرجس • ذلك هو الجو الذى تحيا فيه روح ميريام وتتوهج . أما بول ، فان خوفه من أن يفعل شيئا لا ينبغى أن يفعله لم يطمس احساسه بجو المكان . فلما استدارت اليه ميريام ، هب للقائها بروحه ، وكانا معا . لكنه لم يتخط الحاجز الذى يحد مكان المناولة ، ففاضت نفسها حبا له اذ فعل ذلك ، وهى راكعة بجواره ذائبة فى صلاة مستغرقة . احس ذلك السحر العجيب الذى تثيره فى النفس أماكن العبـادة بعتمتها الخفيفة ، وأسرارها ، فارتجف كل ما انطوت عليه جوانحه من صوفية مستكنة ، ودبت فيه الحياة ، وتحرك ، فأنشد كيانه الى الفتاة ، وقد تحول الى صلاة تشارك صلاتها •

نادرا ما كانت ميريام تتحدث الى الفتية الآخرين ، فكان الواحد منهم لا يكاد يجد نفسه فى حضرتها حتى يتولاه الارتباك ويتلجلج . فانتهى أمرها الى صمت لزمته معظم الوقت .

كان الوقت قد جاوز الظهيرة عندما تسلقوا الدرب الشـــديد الانحدار الصاعد الى القصر ، وكل ما حولهم يضىء برفق فى دفء باهر من الشمس متدفق بالحياة . زهور السيلاندين والبنفسج قد تفتحت ، وسعادة غامرة فاضت بنفوسهم ، وقـــد أحاطتهم الخضرة يانعة تلتمع فى ضوء الشمس ، واستقبلتهم السكينة فى جوار أطلال القصر الشهباء .

القصر من حجر صلد أشهب شاحب ، حيطانه الخارجية عارية لا يكسوها الا الهدوء ، نفذ جمع الفتية منها وقد توثبت نفوسهم وفاضت متعة ، رغم خشية من أن يحرموا لذة استكشاف تلك الاطلال . فى الفناء الاول ، بين الحيطان المحطمة ، عربات المزرعة ، عاطلة ، عجلاتها يغطيها صدأ ذهبى أحمر لامع وسكينة عميقة مخيمة على الفناء .

دفع كل منهم بنساته الستة ، رسم الدخول ، قرير العين اذ سمح له بدفعها ، فانفلت وجلا ، غير مصدق ، تحت الباكية الجميلة النظيفة فى الفناء الداخلى . تملكهم كلهم ارتباك ، وخشية . هنا على الطوار ، حيث كانت القاعة قبلا ، تنمو شجيرة حسك ، وحولهم لا نهاية من فتحات غريبة ، وحجرات مهدمة فاغرة متربصة فى الظلال تنتظرهم .

بعد الغداء ، هموا يستكشفون أطلال القصر مرة أخرى ، وقد انضمت الفتيات هذه المرة اليهم ، فأتيح لهم أن يقوموا بدور الادلاء ، وأن يستعرضوا ما اكتسبوه من معارف فى جولتهم السابقة . فى أحد الاركان برج سامق ، يكاد أن يوشك على الانهيار ، قيل أن مارى ملكة الاسكتلنديين ، سجنت بين جدرانه .

قالت ميريام بصوت خافت وهى تتسلق الدرجات الجوفاء :

ــ تصور الملكة وهى تصعد هذا الدرج .

قال بول :

ــ ذلك اذا كانت قد استطاعت أن تسير على قدميها . فقد كانت تعانى من الروماتيزم . لاشك انهم عاملوها معاملة لا رحمة فيها .

سألته ميريام :

ــ أنت لا تظن أنها قد استحقت كل ذلك ؟

ــ كلا ، لا أظن ذلك . كل ذنبها أنها كانت نشطة أكثر مما يجب .

تابعوا صعود الدرج كثير الانحناءات . ريح قوية تهب من فتحات حيطان البرج صاعدة مدومة فى بئر الدرج ملأت أذيال الفتاة كالشراع فأوشكت ان تعريها ، فانتابها ارتباك وخجل لولا أن سارع يمسك طرف ثوبها فيشده الى كاحليها حتى تتمكن منه بيديها . فعل ذلك بغير خجل أو اضطراب ، ببساطة ، كما لو كان يلتقط لها قفازها . فلم تنس له ذلك أبدا .

حول قمة البرج المهدمة تكاثف اللبلاب وتفرع ، قديما قدم المكان ، جميلا . كانت هناك أيضا بضع زهيرات مثلوجة ، براعمها

شاحبة باردة . ارادت ميريام أن تطل من قمة البرج لتطاول اللبلاب فلم يدعها . اضطرها أن تقف وراءه وهو يقطف لها ما أرادت ، فيستدير ويقدمه لها ، كأى فارس يعرف قدر السيدات . بدا البرج كله وكأنه يتمايل فى قبضة الريح ، وقد وقفوا يطلون من قمته على ميل وراء ميل من ارض تغطيها الغابات ، والمراعى .

كان القبو الذى تحت القصر جميلا ، لم تعد عليه عوادى الزمن . أخذ بول يرسم ، وقد ظلت ميريام فى القبو معه . كانت تفكر فى مارى ، ملكة الاسكتلنديين تنظر بعينين مرهقتين يائستين ؛ لا تستطيعان أن تفهما الشقاء ، عبر التلال التى لا يأتى منها العون الذى تنتظره ، أو جالسة فى هذا القبو نفسه ، تصغى لحديث عن اله لا يقل برودا عن المكان الذى تجلس حبيسة فيه .

بدأوا رحلة العودة بمرح وهم يلقون نظرات أخيرة على القصر الذى احبوه ، منتصبا نظيفا ، ضخما ، على قمة تله .

قال بول لميريام :

ـ افترضى انك تستطيعين أن تمتلكى هذه المزرعة !

ـ نعم ..

ـ سيكون من الممتع أن يأتى المرء لزيارتك !

كانوا فى تلك المرحلة من رحلتهم يعبرون أرضا عارية تنتصب فيها حيطان حجرية ، أعجبته واحب السير فيها ، ولو أن ميريام ، وتلك الارض لا تبعد عن بيتها عشرة أميال ، اعتبرتها أرضا أجنبية ، غريبة . فرقت المسيرة صحبتهم ، فتقدم بعضهم ، والبعض تأخر . فى مرج منحدر والشمس تميل الى المغيب وراءه ، عبر درب ترصع الخضرة على جانبيه زهور لا حصر لها تتوهج بضوء الغروب ، سار بول بجوار ميريام ، فمد يده يشبك أصابعه فى حبال الحقيبة التى تحملها ، وللفور أحست بأخته آتية وراءهما ، ترقبهما ، والغيرة تأكلها . لكن المرج كان يسبح فى بهاء من ضوء الشمس ، والدرب كأنما ترصعه جواهر براقة ، وهو ما أندر ما يفصح لها ، بايماءة كهذه ، عما بنفسه . فاستكانت اصابعها للمسة أصابعه بين حبال الحقيبة ، والمكان كله توهج حولهما والتمع ذهبيا كحلم يقظة .

بلغوا أخيرا قرية كريتش الشهباء ، متناثرة بيوتها على قمة تل مرتفع . وراء القرية كان نصب كريتش الذى كان بول يستطيع أن يراه على البعد من حديقة البيت . تابع جمعهم مسيرته فى أرض شاسعة مترامية ، والفتية على أحر من الجمر لبلوغ التل والصعود

الى قمته . على تلك القمة مرتفع مستدير تآكل الآن نصفه ، وفوقه نصب قديم ، عريض وراسخ ، كان يستخدم فى الازمنة القديمة برجا للاشارة تبلغ منه الرسائل الى أرض نوتينجهامشاير وليسيسترشاير المنبسطة الواطئة .

كانت الريح بالغة العنف فى ذلك المرتفع المكشوف ، فلم يكن من سبيل ، حتى لا يسقط المرء من حالق ، الا أن يستسلم للريح تلصقه بجدار البرج ، وتحت قدميه هاوية سحيقة فيها محجر للحجر الجيرى ، تترامى وراءه تلال وقرى صغيرة متباعدة : ماتلوك ، آمبرجيت ، وستونى ميدلتون . تلهف الفتية لرؤية كنيسة بستوود على البعد ، فى تلك المنطقة المزدحمة بالتلال والقرى على شمالهم . وقد حز فى نفوسهم أن يجدوها ، كنيستهم تلك ، واطئة ، على أرض منبسطة ، ومرتفعات دربيشاير تهوى الى رتابة أراضى الميدلاندز التى تنحدر مترامية نحو الجنوب .

أحست ميريام شيئا من الذعر من عنف الريح ، لكن الفتية أمتعهم ذلك العنف وأثار حميتهم وهم يسيرون فى وجه الريح ، ميلا بعد ميل ، حتى واتساندول . كل ما كان معهم من طعام قد أتوا عليه ، والكل عضه الجوع بنابه ، ولم يعد معهم من المال الا أقله ، لرحلة العودة . لكنهم توصلوا الى الحصول على رغيفين ، قطعوهما بمطواة الى شرائح ، فجلسوا على حائط قرب القنطرة يمضغون الخبز ملتذين ، يرقبون مياه نهر درونت اللامعة تندفق مسرعة ، والعربات الآتية من ماتلوك تتوقف عند باب الخان .

كان بول قد شحب لونه من فرط ارهاق . فقد ظل طيلة اليوم مسئولا عن رحلته لا يهدأ ، والآن نال منه التعب . أدركت ميريام مابه ، فظلت قربه ، وأسلمها هو قياده .

انتظروا مجىء قطارهم ساعة بأكملها فى محطة آمبرجيت . تتابعت على المحطة قطر مكتظة بالعائدين من رحلات العيد الى مانشستر ، وبرمنجهام ، ولندن .

قال بول ،

ــ كأننا فى طريقنا الى هناك نحن أيضا ! قد يظننا الناس ذاهبين الى برمنجهام أو لندن !

عادوا وقد تأخر بهم الوقت قليلا . سارت ميريام الى بيت أهلها فى صحبة جوفرى ترقب القمر يطلع كبيرا ، أحمر ، غائما ، تستعذب شيئا قد تحقق وأشبع فى داخلها .

كانت لها أخت تكبرها ، تدعى آجاثا ، تشتغل بالتدريس ، وبين الأختين عداء قديم . اعتبرت ميريام أختها دنيوية لا روح فيها . فوق انها كانت تتوق الى أن تصبح مدرسة هى الاخرى ، فانتابتها غـيرة من أختها التى حققت ذلك الطموح .

بعد ظهر يوم من أيام السبت كانت الأختان فى غرفة نومهما ، فوق الاسطبل ، ترتديان ثيابهما . غرفة واطئة ، عارية ، ليست كبيرة الحجم . كانت ميريام قد علقت على الحائط نسخة من لوحة « القديسة كاترين » لفيرونيس . تعلق قلبها بتلك المرأة الجالسة فى نافذتها ،فى الصورة ، تحلم . فنوافذ بيتها أصغر من أن تسمح لها بالجلوس فيها . ولو أن النافذة الأمامية تغطيها الزهور واللبلاب ، وتطل على قمم الأشجار فى دغل البلوط عبر القناة ، بينما النافذة الخلفية ، صغيرة فى حجم منديل ، لا تزيد عن شق فى الحائط ، تطل منه ، كأنما من جدار قلعة ، على الشرق ، حيث الفجر يطلع على تلالها المستديرة المحبوبة.

لم تكن الأختان تتبادلان الحديث كثيرا . فآجاثا ، وهى حسناء ، صغيرة الحجم ، قوية الشكيمة ، قد تمردت على جو البيت وكرهت مذهب « الخد الآخر » . وهى قد خرجت الى العالم الواسع الآن ، وباتت على أبواب الاستقلال عن أهلها . فلم تعد تتردد فى المجاهرة بتمسكها بالقيم الدنيوية ، بالمظاهر ، والمكانة ، وسائر تلك الأشياء التى ترفضها ميريام وتتجاهلها .

كانتا تفضلان أن تكونا فى غرفتهما عندما يصل ، حتى يتاح لهما أن تهبطا الدرج عدوا ، فتفتحا الباب ، وترياه جالسـا بترقب فى انتظار مجيئهما . وقفت ميريام تحاول أن تدخل رأسها فى مسبحة أعطاها لها ، لتضعها حول عنقها . اشتبكت المسبحة فى شعرها ، لكنها تمكنت أخيرا من ارتدائهـا ، وبدت حباتهـا الخشبية البنية الضاربة الى الحمرة جميلة فوق جيدها الذى لوحته الشمس . كانت فتاة مكتملة الأنوثة ذات حسن آسر . لكنها لم تكن مستطيعة أن ترى الا أقل القليل من صورتها فى المرآة الصغيرة المعلقة بمسار فى حائط الغرفة المطلى بالجير . كانت آجاثا قد اشترت مرآة خاصة بها ، أمالتها على قاعدتها فوقفت تتأمل فيها صورتها . وقفت ميريام قرب النافذة . فجـأة سمعت صليل السلسلة المـألوف ، ورأت بول يدفع البوابة فيفتحها ، فيدخل دراجته الى الفناء . رأته ينظر الى البيت فتراجعت من موقفها لصق النافذة ترقبه سائرا بطريقته اللامبالية ، ودراجته تسير معه كأنما هى شيء حى .

صاحت :

ـ جاء بول !

فقالت آجاثا ساخرة :

ـ يا لفرحتك !

وقفت ميريام حيث كانت دهشة ، وقد تملكها الارتباك . قالت لأختها :

ـ وأنت ؟

ـ نعم • لكنني لن أدعه يرى ذلك ، ويدرك أني كنت أترقب مجيئه •

دهشت ميريام لموقف أختها . سمعته يضع دراجته في الاسطبل تحتهما ، ويتحدث الى الجواد جيمى ، الذى كان يعمل فى المنجم ، فاعتلت صحته .

ـ كيف حالك ياجيمى ياولدي ؟ مريض وحزين ، آه ؟ هذا يؤسف له يا ولدي العجوز !

سمعت صوت الحبل فى الحلقة والحصان يرفع رأسه من يد الفتى التى تتحسسه . كم كانت تحب أن تصيخ السمع عندما يكون مطمئنا الى أن الحصان وحده هو الذى يسمعه . لكن جنتها لم تكن بغير حية . أخذت تتساءل فى أعماقها ، جادة ، عما اذا كانت تريد بول مورل حقيقة . أحست أن تلك الرغبة فيه تنطوى على قدر من العار . فهى ، بمشاعرها الملتوية التى ملأت عليها شعاب نفسها ، تحس خوفا من رغبتها فيه • وقفت أمام نفسها ، مدانة ، مذنبة ، ثم تملكها احساس بعار آخر ، حتى تقلصت داخل ذاتها فى قبضة عذاب كورها وأعتصرها • هل هى تريد بول مورل ، وهل هو يعرف أنها تريده ؟ أى عار ! أحست كما لو كانت روحها تتلوى فى قبضة ذلك الخجل •

انتهت آجاثا من ارتداء ثيابها أولا ، فنزلت مسرعة ، قبلها . سمعتها ميريام تحيي الفتى بمرح ، وتصورت كيف التمعت عيناها الرماديتان ببريق يلائم تلك النبرة • لم تكن هي لتجرؤ على تحيته بتلك الطريقة المقتحمة . ومع ذلك ها هى تقف مدانة أمام نفسها باشتهائه ، مصلوبة على نطع عذابها . ركعت فى حيرة مريرة وصلت قائلة : « يارب . لا تدعنى أحب بول مورل . امنعنى يارب من أن أحبه ، اذا لم يكن ينبغى لى أن أحبه » .

شيء غير سوى فى صلاتها استوقفها . رفعت رأسها واستغرقت فى التفكير ، تقلب الأمر على وجوهه . كيف يمكن أن يكون حبها له ذنبا ؟ ان الحب هبة الله . ومع ذلك فهو يسبب لها احساسا بالعار

والخطيئة . وذلك بسببه هو ، بول مورل . لكن ما دخله هو فى الأمر ؟ هذه مسألة تخصها هى وحدها . مسالة بينها وبين الله . فهى قد كتب عليها أن تكون ضحية . لكن ذلك أمر يخص الله ، لا يخصها هى أو بول مورل . بضع دقائق دفنت وجهها فى الوسادة ثانية ، وأخذت تصلى :

« ولكن يارب ، ان كانت تلك مشيئتك ، أن أحبه ، فأجعلنى أحبه ، كما كان يسوع ، الذى مات فى سبيل أرواح البشر ، حريا أن يحب ، اجعلنى أحبه حبا يفوق كل وصف . لأنه ابنك » .

ظلت راكعة بعضا من الوقت ، فى صمت ، بغير حراك ، بنفس جائشة حتى أعماقها ، وشعرها الأسود على مربعات اللحاف الحمراء التى عطرتها عيدان الريحان . كانت الصلاة ضرورة حيوية بالنسبه اليها . بعد ذلك استسلمت لنشوة التضحية بالذات ، متقمصة شخصية كائن الهى يوشك أن يضحى به ، تلك النشوة التى تمنح كثيرا من النفوس متعتها العظمى .

عندما نزلت ، وجدت بول مسترخيا فى مقعد وثير ، يحاضر آجاثا بحماس فائق ، وهى تبدى استخفافها بلوحة جاء بها معه ليريها لها . رمقتهما ميريام بنظرة سريعة ، فنفرت من هذرهما ، وتجنبته . تركتهما وذهبت الى غرفة الجلوس حيث ظلت وحدها .

لم تواتها فرصة التحدث اليه الا ساعة تناول الشاى ، وحتى آنذاك كانت متباعدة جافية ، مما أقنعه بأنه أساء اليها .

توقفت ميريام عما درجت عليه من الذهاب الى مكتبة بستوود مساء كل خميس . فبعد أن ظلت تذهب الى بول فى بيته ، طيلة الربيع ، لتصحبه فى ذلك الموعد من كل أسبوع الى المكتبة ، كشف لها تلاحق الأحداث التافهة والاهانات المتعمدة الصغيرة عن حقيقة موقف أهله منها ، فقررت أن تكف عن الذهاب ، أعلنت بول بعزمها ذاك ، ذات مساء ، فسألها باقتضاب شديد :

ــ ولم ؟

ــ لا شىء . أفضل الا أتردد على بيتكم .

ــ كما ترين .

قالت متلعثمة :

ــ ولكن ، ان أحببت أن تقابلنى ، فاننا نستطيع أن نذهب معا .

ــ أقابلك أين ؟

ــ فى أى مكان آخر . أينما شئت .

ـ لن أقابلك فى أى مكان . فلا أجد سببا مقبولا لانقطاعك عن المجيء الى بيتنا . لكن اذا كانت تلك رغبتك ، فأنى لن ألقاك ثانية .

وهكذا أسقطت من حياتهما أمسيات الخميس التى كانت عزيزة عليهما ، ومبعث سعادة لكليهما . فأخذ يقضى تلك الأمسيات فى العمل ، وهو ما أسعد أمه كثيرا ، وملأها رضا .

لم يعترف أمام نفسه أبدا أنهما عاشقان . فعلاقته الحميمة بها قد ظلت شيئا مجردا ، امرا يخص الروح وحدها ، ليس فيها الا الفكر والنضال المرهق على مستوى الوعى ، مما جعله ينظر الى تلك العلاقة بوصفها صداقة أفلاطونية لا اكثر ، منكرا باصرار لا يحيد أى شيء بينهما خلاف ذلك . وقد ظلت هى صامتة ، أو وافقته الرأى بهدوء ، بصوت شديد الخفوت . كان من البلاهة بحيث فاته ادراك ما كان حادثا له . ولقد اتفقا تلقائيا ، بغير كلام ، على تجاهل ملاحظات معارفهما وتلميحاتهم . قال لها :

ـ لسنا عاشقين . نحن صديقان . ونحن نعلم ذلك . فليتكلموا ما شاءت لهم نفوسهم الصغيرة . فأى قيمة لما يقولون ؟

كانت احيانا ، وهما يسيران معا ، تضع ذراعها فى ذراعه بخجل . لكن ذلك كان يثير حنقه أبدا . وقد أحست هى به . فملمسها كان يثير فى نفسه صراعا عنيفا ،لأنه مع ميريام ظل دائما على مستوى رفيع من التجريد ، حيث تتحول نار الحب الطبيعية فى نفسه الى بخار من الفكر . وقد وافقها ذلك تماما لأنها ارادت الأمر ان يكون على تلك الصورة . حتى عندما ينتابه شيء من المرح ، أو الرعونة كما تصف هى المرح ، كانت تنتظر صابرة الى أن يعود اليها ، الى أن يرتد لسابق عهده ، عابسا ، متجهما ، يصارع روحه ، محموما برغبته فى الفهم . ففى تلك الشهوة الى الفهم كانت روحها تقترب من روحه ، فتنفرد به لا يشاركها فيه أحد . لكنه متعين ، قبل أن يتحقق لها شيء من ذلك ، أن تجعله مجردا ، وأن ترفع ما بينهما الى ذلك المستوى من التجريد .

وهكذا فان وضعها لذراعها فى ذراعه كان يذيقه صنوفا من العذاب . فوعيه كان يبدو كما لو كان ينشق الى شقين ، والموضع الذى تلامسه من جسده كان يحمى بالاحتكاك ، فيشتعل كيانه بمعركة مميتة ، داخلية ، يعبر عنها ، خارجا ، بقسوة ممعنة تجاهها .

ذات أمسية فى منتصف الصيف جاءت ميريام الى بيته ، وقد توردت وجنتاها من تسلق التل . كان بول وحده فى المطبخ ، وأمه

تسمع أصوات حركتها فى الطابق العلوى .
قال للفتاة :
ـ تعالى انظرى الى البازلاء .
خرجا الى الحديقة . كانت السماء وراء البلدة الصغيرة وكنيستها حمراء برتقالية ، وأحواض الزهور يغمرها ضوء غريب دافىء يرفع كل وريقة فيبرزها ويعطيها مغزى . مر بول بصف طويل من نبت البازلاء يجمع لها نوارة من هنا ونوارة من هناك ، بزرقتها ووشيها العاجى ، وميريام فى أعقابه ، تتنسم عبق الزهور . كانت تعشق الزهور بقوة تدفعها الى أن تجعل من كل زهرة جزءا من ذات نفسها ، فهى اذ تنحنى لتتشمم زهرة ، تبدو والزهرة كعاشقين . وهو ماكرهها بول لأجله ، اذ بدا له فعلها حميما أكثر مما يجب ، فيه ضرب من التعرية .
عندما اكتملت له باقة ، عادا الى البيت معا . أصاخ السمع برهة لحركات أمه الهادئة بأعلى ، ثم قال :
ـ تعالى هنا ودعينى أشبكها فى ثوبك .
شبك الزهور متناثرة فى صدر ثوبها ، كل اثنتين أو ثلاث معا ، وهو لا ينى يتأخر خطوة ليتأمل موضعها من الثوب ، ثم يتقدم ليشبك المزيد . قال وهو يأخذ دبوسا من فمه :
ـ أتعرفين . المرأة يجب أن ترتب زهورها دائما أمام المرآة .
ضحكت ميريام . فقد تصورت أن الزهور تشبك فى الثوب كيفما اتفق ، أما أن يفعل بول ما هو فاعله بتلك الزهور ، فنزوة من نزواته دون شك .
ضايقه ضحكها . فقال :
ـ وأعرف نساء يفعلن ذلك . لكنهن ممن يعنين بمظهرهن .
ضحكت ميريام ثانية ، ولكن بغير مرح ، اذ أمضها أن يخلط بينها هكذا وبين النساء عامة . ذلك قول كانت حرية بأن تتجاهله من أى رجل آخر ، أما من بول فقد آلمها .
كان قد أوشك على الانتهاء من شبك زهوره فى صدرها عندما سمع وقع قدمى أمه على الدرج ، فشبك الدبوس الاخير بعجلة واضحة وابتعد عنها قائلا :
ـ لا تدعى أمى تعرف انى شبكت لك هذه الزهور .
التقطت ميريام كتبها ووقفت فى الباب تتأمل الغروب الجميل بأسى ، وهى تردد فى دخيلة نفسها أن هذه هى المرة الأخيرة التى تجىء

فيها الى بيته .
قالت باحترام ، وصوتها يفصح عن احساسها بأنها لا موضع لها فى ذلك المكان :
ــ مساء الخير يا مسز مورل .
أجابت مسز مورل بفتور :
ــ أوه ! أهذا أنت يا ميريام ؟
لكن بول أصر على أن يتقبل الجميع صداقته للفتاة ، وقد كانت مسز مورل أكثر حكمة من أن تسعى الى قطيعة مكشوفة فى وجه ذلك الاصرار .
لم يكن فى طاقة الاسرة ، الى أن بلغ بول عامه العشرين ، أن تتكبد نفقات أجازة تقضيها بعيدا عن البيت . فلم تستمتع مسز مورل بمثل تلك العطلة ، منذ زواجها ، اللهم الا فى زيارة قصيرة لأختها . لكن ها هو بول قد تمكن من ادخار ما يكفيهم من مال ، فباتت تلك الأمنية فى متناول اليد . تقرر أن تصحبهم بعض صديقات آنى ، وصديق لبول ، وهو شاب يعمل فى نفس المكتب الذى كان ويليم يعمل فيه قبلا ، وميريام .
كتابة الخطابات بحثا عن مكان للاقامة كانت فى ذاتها اثارة ممتعة ، دارت بين بول وأمه مناقشات لا نهاية لها بشأنها . كانوا يبحثون عن كوخ مفروش لمدة أسبوعين ، وقد رأت الام أن أسبوعا واحدا يكفى ، لكنه أصر على أسبوعين .
اخيرا تلقوا ردا من ميبلثورب ، يعرض فيه صاحبه أن يؤجرهم كوخا كطلبهم بثلاثين شلنا فى الأسبوع . فكان لذلك الرد فرح غامر فى نفوسهم . جن بول فرحا من أجل أمه . فها هى أخيرا يتاح لها قضاء عطلة حقيقية .
كم من مرة جلسا فى المساء معا ، يصور كل منهما للآخر ما ينتظرهما من متعة . جاءت آنى الى البيت ، وجاء ليونارد ، واليس ، وكيتى . فاضت بالبيت بهجة جامحة وترقب . عندما عرض بول أمر الرحلة على ميريام ، اطرقت تفكر ، لكن فرحتها كانت واضحة . وبيت آل مورل ضج بالاثارة والغبطة .
تحدد صباح السبت لسفرهم ، بقطار السابعة ، فاقترح بول أن تجىء ميريام لقضاء الليلة معهم حتى لا تضطر الى المجىء فى الصباح الباكر . أقبلت وهم يتناولون العشاء ، وقد بلغ من جذلهم بالرحلة المرتقبة أن كانت ميريام ذاتها محل ترحاب . لكنها لم تكد تدخل حتى

سادهم توتر ، وانطفأ بعض ابتهاجهم • كان قد اكتشف قصيدة لجان اينجلو وردفيها ذكر ميبلثورب ، أصر على أن يقرأها لميريام • فلم يكن هناك من يسمح له بالانسياق فى عواطفه الى حد قراءة الشعر لأسرته • لكنهم فى هذه المرة تنازلوا بالاستماع اليه •جلست ميريام على الاريكة مستغرقة فيه • فحضوره يستوعبها دائما • جلست مسز مورل فى مقعدها تأكلها الغيرة ، وقد وطنت النفس على الاستماع . حتى آنى والأب جلسا اليه ، وقد أمال مورل رأسه كمن يصغى الى موعظة ويحس أنه فاعل ذلك . أحنى بول رأسه على الكتاب ، وقد اكتمل جمهوره . دخلت مسز مورل وآنى فى منافسة غير منظورة مع ميريام : من الذى سيحسن الاستماع اليه فيرضيه أكثر . كانت تلك لحظة تألق فيها كما لم يتألق من قبل .

قاطعته مسز مورل قائلة :

ـ ولكن ما هى « عروس اندرباى » هذه التى يجب أن تقرع الأجراس من أجلها ؟

ـ هذه اشارة الى نغمة كانوا يعزفونها على الأجراس للتحذير من فيضان الماء . ولعل تلك العروس فتاة غرقت فى فيضان ما .

قال ذلك دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن حقيقة الأمر . لكن كيف يتأتى أن يعترف بجهله أمام نسائه ؟ أصغين اليه وصدقنه • وصدق هو نفسه .

قالت أمه :

ـ وكان الناس يعرفون ما تعنيه تلك النغمة ؟

ـ نعم . تماما كالأسكتلنديين عندما كانوا يسمعون «زهور الغابة» ، أو رنين الأجراس معكوسا ، على سبيل الانذار .

قالت آنى :

ـ كيف ؟ كيف يكون رنين الأجراس معكوسا ؟

قال :

ـ بسيطة • تبدئين بنغمات القرار وتنتهين بالنغمات العالية • هكذا !

اخذ يقلد رنين جرس ••يصعد السلم الموسيقى من ادناه الى اعلاه• فانبهر الكل ببراعته . وانبهر هو ايضا . ثم تمهل برهة ، وعاد يلقى قصيدته .

قالت مسز مورل وقد انتهى من القائه :

ـ آه ! لكن علام كل هذا الحزن الذى فيها ؟

وقال مورل :

ـ لا أستطيع أن أفهم أى شىء جعلهما يقدمان على الموت غرقا .

ساد صمت ، ثم قامت آنى لترفع الصحاف من المائدة ، فتبعتها ميريام لتعاونها فى غسل الأوانى والصحاف .

قالت لها :

ـ دعينى أساعدك فى غسلها .

فصاحت آنى :

ـ كلا ، بكل تأكيـد . اجلسى حيث كنت . فليست بـكل تلك الكثرة .

كان سيد الحفل لا منازع ، وقائد الرحلة . فأبوه لا نفع فيه . لكنه ، فى قرارة نفسه ، عانى الامرين خشية أن ينزل عمال القطار سحارتهم فى محطة فيرسبى بدلا من محطة ميبلثورب . فوق أنه ، عندما وصلوا الى تلك المحطة الأخيرة ، لم يجد فى نفسه القدرة على ايجاد عربة تنقلهم الى كوخهم . أمه الصغيرة المقدام .. هى التى فعلت ذلك . صاحت بأحد الحوذية قائلة :

ـ أنت ! تعال هنا !

فتوارى مع آنى وراء الآخرين ، يضحكان خجلا لجرأة أمهما .

قالت مسز مورل :

ـ بكم توصلنا الى كوخ بروك ؟

ـ بشلنين .

ـ يا سلام ! هل هو بعيد الى هذا الحد ؟

ـ بعيد بما فيه الكفاية .

فقالت :

ـ لا أصدقك .

لكنها صعدت الى العـربة . انحشروا ثمانية فى عربـة المصيف العتيقة .

قالت مسز مورل :

ـ لم يسرقنا الرجل . ثلاثة بنسات لـكل منا . لو كانت مركبة ترام ...

درجت العربة بهم ، ومسز مورل كلما رأت كوخا تصيح :

ـ هذا هو ؟ نعم هذا هو دون شك .

فيحبس الكل أنفاسه ، لكن العربة تتجاوز الكوخ ، فيتنهدون معا ؛ وتقول مسز مورل :

ـ الحمد لله أنه لم يكن ذلك الكوخ الفظيع · لقد مت خوفا من منظره .

وتتابع العربة سيرها .

ترجلوا اخيراعند بيت قائم فوق مرتفع من الارض فى مواجهـة البحر ، بجانب الطريق . ثار صخب عظيم بينهم وهم يعبرون قنطرة صغيرة الى حديقة البيت . أحبوا ذلك البيت من أول نظرة ، بعزلته ، والارض حوله يكسوها الشعير الأبيض ، والشوفان أصفر ، والحنطة كسهول متموجة ، حمراء ، مسطحة ، مترامية حتى حافة الافق ·

أمسك بول حسابات الرحلة ، وأدارها مع أمه ، بلغت التـكلفة الاجمالية ، من اقامة ، وطعام ، وما الى ذلك ، ستة عشر شلنا فى الأسبوع للشخص الواحـد . كان يذهب للاستحمام فى البحـر مع ليونارد ، كل صباح ، أما مورل فيخرج مبكرا ، من طلعة النهار .

نادته أمه من غرفة النوم :

ـ أنت يا بول . كل لقمة من الخبز بالزبد قبل أن تخرج .

فأجابها ممتثلا :

ـ حاضر !

عندما عاد وجد أمه على رأس مائدة الافطار كملكة ·كانت السيدة صاحبة البيت امرأة فى مقتبل العمر ، كان من المفروض أن تقوم بعمل البيت لولا أن زوجها رجل كفيف ، وهى مضطرة الى أن تكسب قوتهما من غسل الثياب فى البيوت · وهكذا وجدت مسز مورل نفسهامرغمةعلى غسل الأوانى والصحاف فى المطبخ ، بعد كل وجبة ، وفرش الأسرة .

قال لها بول محتجا :

ـ لكنك قلت أنك ستستمتعين بعطلة حقيقية . وهاأنت تعملين كما كنت تعملين فى البيت تماما .

لكنها صاحت به :

ـ عمل ! هل تدعو هذا عملا ؟

كم أحب السير معها عبر الحقول الى القرية أو شاطىء البحر . كانت تخشى عبور القنطرة بألواحها الخشبية السائبة المتأرجحة ، فيسخر منها ويدعوها طفلة ·لصق معظم الوقت بها كما لو كان رجلها·

أما ميريام فلم تظفر به الا فيما ندر ، كتلك الأوقات التى يذهب فيها الآخرون للاستماع الى أغنيات فرقة موسيقية شهيرة فى البلدة· فميريام لا تذهب ، بطبيعة الحال ، لتضيع وقتها فى أشياء كهذهتعتبرها مفرطة فى السخف والغباء · وقد اعتقـد هو ، متأثرا برأيها ، هـذا

الاعتقاد ، فأخذ يوبخ آنى وأصحابها ويسخر منهم لهوسهم بتلك الفرقة ، وما ينبيء عنه ذلك الهوس من تفاهة واسفاف . لكنه كان يحفظ أغنيات الفرقة عن ظهر قلب ، ويغنيها فى الطرقات بأعلى عقيرته ، فاذا ما ضبط نفسه متلبسا بالاصغاء لاغنية جديدة ، أضحكته تلك التفاهة من جانبه كثيراً • ومع ذلك راح يوبخ آنى قائلا:

ــ ما هذه السخافات ! هذه كلها أشياء لا ذرة من العقل فيها ، لا أتصور أن يذهب انسان عاقل ليضيع الوقت فى الاستماع اليها .

ويقول لميريام ، بازدراء شديد لآنى وأصحابها :

ــ لا شك أنهم ذهبوا يستمعون الى تلك الفرقة !

كم كان من الغريب أن يجد ميريام تغنى تلك الأغنيات ، بعد كل شيء • كانت ذات وجه يذكره دائما ، عندما تغنى ، بوجه ملاك حزين من ملائكة بوتيشللى ، حتى ولو غنت كلمات كهذه :

« تعال معاى الى ممشى الأحبه

« نتمشى حبه ، ونرغى حبه ! »

لم تكن تظفر به الا عندما يخلو لنفسه ليرسم ، أو عندما يذهب الآخرون ليستمعوا الى فرقتهم . فكان اذ ذاك يحدثها ، بلا نهاية ، عن شغفه بالمسطحات ، وكيف أنها ، تلك المساحات المنبسطة الشاسعة من السماء والأرض فى لينكولنشاير تعنى بالنسبة اليه أبدية الارادة ، تماما كما تعنى البواكى النورماندية المقوسة المتكررة ، فى الكنائس ، تصميم الروح الانسانية ، واصرارها ، ودأبها فى قفزاتها المتلاحقة الى الأمام ، الى ما لا نهاية ، حتى يكل الفكر عن ملاحقة غايتها ، بالمناقضة تماما للخطوط العمودية فى الباكية القوطية التى تبدو كما لو كانت تنقذف الى السماء رأسا ، تتلمس النشوة فيها ، لتذوب فيما هو الهى ومقدس • قال عن نفسه أنه ، بذلك الوصف ، نورماندى ، أما ميريام فقوطية • فأطرقت برأسها علامة الموافقة على قوله •

ذات مساء ذهبا وحدهما الى الشاطىء الرملى العظيم الممتد فى اتجاه تدلثورب • كانت الامسية دافئة ، والامواج العالية تتكسر على الشاطىء العريض تعج بالزبد ، وليس فى ذلك المدى الشاسع من البحر والرمال سواهما ، ليس من صوت الا صوت البحر وصخبه . وقف بول مشدودا يصغى الى لطمات البحر المدوية التى يكيلها للأرض ، منتشيا بوقفته بين ذلك الهدير وبين صمت الشاطىء الرملى ، وميريام معه ، وكل شيء يتوهج فى وعيه بحدة مرهفة • كانت الظلمة قد هبطت عندما عادا أدراجهما • طريق عودتهما يمر بفجوة بين تلين من

الرمل ، ثم يصعد الى طريق معشب بين سدين من سدود البحر . كل ما حولهما بات اسود حالكا ، واستكن فى قبضة الصمت . من وراء التلال الرملية همسات البحر تترامى اليهما وهما يسيران فى صمت . لكنه جفل فجأة ، وقد أحس أن دمه قد انفجر فى لهب سال فى عروقه ، فلم يعد قادرا على أن يلتقط أنفاسه . قمر برتقالى ضخم كان يحدجهما من حافة التلال . وقف بلا حراك ينظر الى القمر .

صاحت ميريام ، « آه ! » ، وقد رأته *

ظل مكانه بلا حراك ، يحدق فى القمر بقرصه الشاسع الأحمر ، الشيء الوحيد المتواجد فى ذلك المدى الهائل المنبسط من الظلمة . دق قلبه بعنف ، وتوترت عضلات ذراعه .

غمغمت ميريام ، منتظرة أن يفصح :

ـ ماذا حدث ؟

استدار فنظر اليها . وقفت بجانبه ، مختفية فى الظلال أبدا ، وجهها مختف تحت حافة قبعتها ، وعيناها ترقبانه ، صامتة ، تفكر مهمومة كدأبها ، وقد تملكها شيء من الخوف وجاشت نفسها اذ تحركت فى أعماقها حميتها الدينية . تلك الحمية تهزمه دائما ، تبعده عنها وتجعله يحس بنفسه عنينا ازاءها . هاهو دمه يتوهج ويتركز كلهب فى صدره ، لكن ما من سبيل للنفاذ اليها . فهى ، بطريقة ما ، تتجاهله ، وتتجاهل ما يتقد به دمه : تنظر اليه مترقبة نشوة دينية تنتابه مثلها فتمحو جسده ، لكنها ، فى قلب تباعدها وتطلعها ، تحس ما يعانيه من عذاب وتمزق ، فتتعذب له ، ولا تستطيع له أو لها شيئا .

غمغمت ثانية :

ـ ماذا حدث .

أجابها ، عابسا :

ـ انه القمر .

قالت مؤمنة :

ـ نعم . أليس رائعا ؟

احست فضولا ينتابها ، وقد مرت لحظة الازمة بينهما .

لم يدر هو نفسه حقيقة ما مر به . كان غريرا ، فى مقتبل العمر ، وعلاقتهما قد ظلت بيضاء مجردة ، فلم يدرك أن ما انتابه كان رغبة مشبوبة الى أن يضمها الى صدره فيهتصرها بين ذراعيه ، ويطفىء بعض النار المشتعلة فيه . احس بالخوف منها . فقد كبت فى أعماق

نفسه ، عن خجل عميق وخشية ، مجرد التفكير فى أنه قد يشتهيها كما يشتهى أى رجل امرأة . ذلك عار لا يوصف ، كيف يحدث بينهما . كان ، كلما أحسها نافرة ، متباعدة ، متكورة على نفسها من فرط عذاب واحساس بالعار لمثل ذلك الخاطر ، يحس جرحا ينكأ فى أعماق روحه. والآن منعه ذلك « النقاء » من الاقدام على قبلة حبه الأولى . بدت كما لو كانت لا تكاد تقوى على احتمال صدمة الحب الجسدى ، حتى فى شكل قبلة ، بينما هو أشد خوفا وحساسية من أن يقدم على تلك القبلة .

طيلة مسيرتهما عبر المروج ظلت عيناه على القمر ، فلم يفتح فمه بكلمة . وسارت هى صامتة بجواره . كرهها اذ ذاك ، لانها توصلت، بطريقة ما ، الى أن تجعله يزدرى نفسه . مد البصر أمامه فرأى ذلك الضوء الوحيد فى الظلمة ، نافذة كوخهم الموقدة مصابيحه . ارتاحت نفسه للتفكير فى قرب لقاء أمه وسائر صحبه بمرحهم الخلى .

لكن أمه استقبلته قائلة :

ــ أما والله ! هذا وقت تعودان فيه ؟ لقد عاد الجميع من زمن طويل . فصاح مغضبا ..

ــ وما شأنى أنا بذلك ؟ الا أستطيع أن أذهب لأتنزه عندما يتراءى لى ذلك ؟ .. قالت مسز مورل :

ــ كنت أظنكما قادرين على العودة فى وقت يسمح لكما بتناول العشاء معنا . فأجاب محتدا :

ــ والله سأفعل ما أشاء .. ليس الوقت متأخرا . سأفعل ما يحلو لى .

فقالت أمه معلنة عن غضبها :

ــ عال . افعل ما بدا لك . كما ترى .

وتجاهلته تماما . فحاول أن يتظاهر بأنه لم يلق اليها بالا ، وجلس متشاغلا بالقراءة . تشاغلت ميريام بالقراءة هى الأخرى ، وقد ودت لو ابتلعتها الأرض . كرهتها مسز مورل لما فعلته بابنها . وجدت الفتى يزداد عصبية من يوم الى يوم ، ينقلب شكسا سريع الشجار ، دائم الكآبة . فحملت ميريام وزر ذلك كله ، وانضمت اليها آنى وأصحابها ضد الفتاة ، فلم يعد لميريام من صديق بينهم الا بول . لكنها لم تتألم من عدائهم المكشوف كثيرا ، لانها تحتقر تفاهة الآخرين .

وقد كرهها بول لأنها نغصت عليه أجازته ، وجردته من هدوئه وراحة باله ، فتركته يتلوى فى دخيلة نفسه ، رهن احساس بالذل والمهانة .

الفصل الثانى

صراع فى الحب

اتم آرثر فترة التلمذة الصناعية وحصل على عمل فى محطة توليد القوى بمنجم مينتون . كان أجره ضئيلا للغاية ، لكن الفرصة كانت متاحة له للتقدم فى عمله ، لولا أنه جامح الطبع لا يعرف الاستقرار . لم يكن يشرب الخمر أو يقامر ، ومع ذلك فانه يتوصل دائما الى أن يزج بنفسه فى مآزق لا نهاية لها ، عن رعونة واندفاع . فهو اما متورط فى صيد الأرانب على أرض الغير ، كاللصوص ، أو معربد طوال الليل فى نوتينجهام بدلا من أن يعود الى بيت أهله ، أو ذاهب للسباحة فى قناة بستوود ، فيسيىء تقدير قفزته الى الماء ليعود وقد ملأت صدره الجروح اذ سقط فوق الأحجار وعلب الصفيح فى قاع القناة .

لم تكن قد مرت عليه شهور طويلة وهو فى عمله الا وقد تأخر ثانية ، فبات ليلته خارج البيت .

سأل بول أمه على مائدة الافطار :

ـ أتعرفين أين آرثر ؟

اجابت الأم :

ـ كلا ، لا أعرف .

فقال بول :

ـ انه أحمق . لو كان بالأقل يفعل شيئا يستحق أن يقضى الليل بسببه بعيدا عن البيت ، لما اهتممت للأمر . لكنه يضيع ليلته فى تفاهات . لا يستطيع ان ينتزع نفسه من لعب الورق ، أو يصر على ان يصحب فتاة ، على سبيل اللياقة ، من حلقة الانزلاج الى بيتها ، فيتأخر به الوقت ولا يستطيع العودة الى البيت . انه أحمق .

قالت مسز مورل :

ـ لا أظنك تفضل أن يفعل شيئا يجلب علينا العار .

فقال بول :

ـ سيكون ، بالأقل ، جديرا بالاحترام اذا فعل شيئا له وزنه .

قالت الأم ببرود :

ـ أشك كثيرا فى ذلك .

انصرفا الى تناول الطعام . ثم سأل بول أمه :

ــ هل أنت شديدة التعلق به ؟
ــ ما الذى يجعلك تسأل هذا السؤال ؟
ــ لأنهم يقولون ان المرأة تفضل ابنها الأصغر على الآخرين .
ــ قد يكون ذلك.لكن ليس فيما يخصنى . كلا . فهو يثير أعصابى.
ــ كنت تفضلين أن يكون صالحا ؟
ــ كنت أفضل ان يتصف بشيء من رجاحة العقل التى تميزالرجال.

بول ، هو الآخر ، قد بات يثير أعصاب أمه . فهو ثائر الاعصاب ، ناقم دائما . رأت كل ما كان فيه من اشراق يخبو ، فتعتم نفسه، واحنقها ذلك .

وهما ينتهيان من الافطار ، اقبل ساعى البريد بخطاب من دربى . زرت مسز مورل عينيها محاولة قراءة العنوان ، فصاح ابنها وهو يختطف الخطاب منها :

ــ هاتى يا عمشاء !

جلفت أمه وكادت تصفعه على وجهه .

قال :

ــ هذا خطاب من ابنك آرثر .

فصاحت مسز مورل :

ــ ماذا جرى له ؟

قرأ بول الخطاب :

ــ « أمى المحبوبة . لا ادرى ما الذى جعلنى بهذا الحمق . أريدك أن تأتى فتخرجينى من هذه الورطة . جئت مع جاك بريدون بالأمس ، بدلا من أن أذهب الى العمل ، وتطوعت . قال انه ضاق بحياته فى المكتب ، فجئت معه ، ببلاهتى التى تعرفينها .

« أصبحت من جنود الملك . لكنهم قد يدعوننى أذهب معك ان اتيت فى طلبى . لم أكن فى وعيى عندما فعلت ذلك . لا أريد أن أكون جنديا . أمى العزيزة ..أنا لا أسبب لك آلا المشاكل ، لكنى اعدك ، اذا ما أخرجتنى من هذه الورطة ، أن أتصرف بعقل وأن أقدرالعواقب.. »

انحطت مسز مورل فى مقعدها الهزاز . صاحت قائلة :

ــ أى والله ! يتصرف بعقل !

قال بول :

ــ آه ! بعقل !

ساد الصمت لحظة ، وقد جلست الأم عاقدة يديها فى حجرها ، وجهها صارم ، تفكر . ثم صاحت فجأة :

ـ والله قرفت ! قرفت !
ـ نعم ، سنبدأ ؟ لن اسمح لك أن تقتلى نفسك كمدا بسبب هذه الحكاية . أتسمعين ؟
فاستدارت الى ابنها قائلة بحدة :
ـ تريدنى أن أحمد الله على نعمته ؟
فأجابها محنقا :
ـ لن تقلبى الأمر الى مأساة .
صاحت :
ـ الابله ! الابله الغرير !
قال بول بطريقة تثير الأعصاب :
ـ سيكون منظره جميلا فى الملابس العسكرية !
استدارت اليه أمه وقد اشتعل غضبها ، فصاحت به :
ـ حقا ؟ حقا ؟ لن يكون جميلا فى عينى .
ـ الأجدر به أن يلتحق بالفرسان ، سيقضى وقتا طيبا ، ويكون غاية فى الأناقة !
ـ اناقة ؟ اناقة ؟ اناقة حقا ! مجرد عسكرى .
قال بول :
ـ وانا ؟ ماذا انا ؟ مجرد كاتب فى مصنع .
صاحت امه وقد أوجعها قوله :
ـ انت افضل من ذلك كثيرا يا ابنى .
ـ كيف ؟
ـ انت بالأقل رجل ، لست مجرد شىء فى سترة حمراء .
ـ وأي ضير فى هذا ؟ لا مانع عندى من ارتداء سترة حمراء ، او زرقاء داكنة ، فذلك اللون يناسبنى اكثر ، لو لم تكن الحياة العسكرية بتلك الصرامة .
لكن أمه كانت قد كفت عن الاصغاء اليه . اخذت تكلم نفسها :
ـ يحدث هذا وقد بدأ يتقدم فى عمله .. ولد ملعون .. يفعل شيئا كهذا ويقضى على مستقبله . هل تظنه سيصلح لشىء بعد ذلك ؟
قال بول :
ـ لعل هذه الحياة تصلب عوده .
ـ تصلب عوده ! قل تقضى عليه ! عسكرى ! مجرد عسكرى ! لاشىء غير جسد يأتى ببضع حركات كلما سمع صيحة ! شىء جميل .
قال بول :

ـ لا أستطيع أن أفهم لماذا يضايقك الأمر هكذا ؟
قالت وهى تستند الى ظهر مقعدها ، ذقنها فى راحة يدها، ومرفقها فى راحة اليد الأخرى ، وهى تغلى غضبا :
ـ لعلك لا تفهم . لكننى أنا أفهم .
قال بول :
ـ وستذهبين الى دربى حقا ؟
ـ نعم .
ـ لا فائدة .
ـ سأذهب لأتبين ذلك بنفسى .
ـ ولم لا تتركينه حيث هو ؟ ان ذلك بالذات هو ما أعتقد أنه فى حاجة اليه .
صاحت الأم :
ـ طبعا . انت تعرف ما هو فى حاجة اليه !
رتبت أمورها ، وذهبت بأول قطار الى دربى حيث قابلت ابنها . ناجأت مورل وهو يتناول عشاءه فى المساء قائلة :
ـ اضطررت أن أذهب الى دربى اليوم .
ـ حقا يابنية ؟ وما الذى ذهب بك الى هناك ؟
ـ ذلك المجنون آرثر .
ـ أوه ؟ ماذا فعل ثانية ؟
ـ ابدا ! تطوع .
وضع مورل السكين من يده واستند الى ظهر مقعده قائلا :
ـ لا ! غير معقول !
ـ وسيرسلونه الى الدرشوت غدا (*)
صاح الرجل :
ـ أما والله عجيبة .
تفكر فى الأمر لحظة ثم عاد الى طعامه . وفجأة انقلبت سحنته غضبا :
ـ أرجو الا يرينا وجهه فى هذا البيت ثانية .
فصاحت به مسز مورل :
ـ يالله ! هذا شىء تقوله ؟
قال الرجل :
ـ أى نعم . أحمق كهذا يهرب من بيت أهله ليصبح جنـــديا ما شأنى أنا به ؟ ليتكفل من الآن بأمر نفسه . لن أفعل شيئا بعد اليوم من أجله .

قالت :
ـ وما الذى فعلته لأجله حتى الآن ؟
أوشك مورل أن يمتنع عن الذهاب الى الحانة فى ذلك المساء خجلا .
قال بول لأمه عندما عاد الى البيت :
ـ هه ، ذهبت ؟
ـ نعم ، ذهبت .
ـ وهل تمكنت من رؤيته ؟
ـ نعم .
ـ ماذا قال لك ؟
ـ أخذ يعول كالأطفال عندما تركته .
ـ ها !
ـ وقد بكيت أنا أيضا ، فلا حاجة بك أن تقول ها !
استسلمت مسز مورل للهموم بسبب ابنها . كانت تعلم انه لن تروق له حياة الجيش . وهو ما حدث . فقد وجد النظام صارما لا يطاق .
لكنها قالت ، بشيء من الزهو ، لبول :
ـ لكن الطبيب قال أنه ممشوق القوام . كل مقاييسه مضبوطة . انه غاية فى الوسامة كما تعرف .
ـ تماما . شكله جميل أى نعم . لكنه لا يوقع بالفتيات مثل ويليم ، اليس كذلك ؟
ـ كلا . اختلاف فى الطبع . انه كثير الشبه بأبيه . عديم المسئولية .
لم يكثر بول من الذهاب الى مزرعة ويللى فى تلك الأيام ، ليخفف عن أمه . وفى الخريف تقدم بلوحتين الى معرض أقيم للوحات الطلاب، احداهما منظر طبيعى بالألوان المائية ، والأخرى طبيعة صامتة بالزيت، وقد فازت ، كلتاهما ، بالجائزة الاولى ، فلم يتمالك نفسه من فرط الفرح .
بادر أمه قائلا ، وقد ادركت ، من التماع عينيه ، واحتقان وجهه ، مدى فرحته :
ـ خمنى ما الذى حصلت عليه عن لوحتى يا أماه .
ـ اه ! من أين لى أن اعرف يا ابنى !
ـ جائزة أولى عن تلك الأوانى الزجاجية ـ
ـ ها !

— وجائزة اولى عن تلك اللوحة التى رسمتها فى مزرعة ويللى .
— جائزة أولى عن الاثنتين ؟
— نعم .
— ها !
ارتسمت فى وجهها نظرة وردية براقة وان لم تقل شيئا .
قال لها :
— شىء لطيف ، اليس كذلك ؟
— نعم .
— لا أراك ترفعيننى الى عنان السماء !
فضحكت قائلة :
— خشية أن أعانى الأمرين فى انزالك الى الأرض ثانية .

لكنها ، رغم ذلك ، امتلأت فرحا . طالما حمل اليها ويليم ، فى حياته، جوائزه الرياضية . وهى ما زالت تحتفظ بها ، ورغم ما انقضى من وقت على موته ، لم تغتفر ذلك الموت أبدا . وآرثر كان وسيما ، أو بالأقل ، عينة من الرجولة لا بأس بها ، وقد يحقق نجاحا فى حياته بعد كل شىء . لكن بول سيتفوق ويتفرد . فهى عميقة الايمان به ، يزيد من ايمانها كونه غير مدرك لحقيقة قدراته . توقعت منه الكثير ،وباتت الحياة ، بالنسبة لها ، غنية بالوعود . سوف يتاح لها ، بعد كل شىء ، أن ترى حياتها تتحقق ، ولن يكون كل نضالها قد ضاع هباء .

ترددت مسز مورل على المعرض أكثر من مرة فى خفية عن ابنها . ذرعت صالة العرض جيئة وذهابا تمعن النظر فى اللوحات الاخرى . نعم . هى لوحات جيدة . لكنها مفتقرة الى شىء ما . شىء معين تجد فيه اشباعا . أثارت بعض اللوحات غيرة فى نفسها ، فأطالت الوقوف أمامها ، وقد وجدتها ممتازة بحق ، تحاول أن تجد فيها عيبا . ثم فجأة تلقت صدمة أوشك قلبها أن يتوقف تحت وطأتها . هاهى لوحة بول ! فهى تعرفها كما لو كانت محفورة فى قلبها : « الاسم : بول مورل . الجائزة : الاولى » .

بدت غريبة للغاية وهى معروضة هكذا ، على حائط المعرض ، حيث شاهدت ،طيلة حياتها ، لوحات عديدة . اختلست نظرة حولها خشية أن يكون هناك من لاحظ عودتها الى نفس اللوحة لتتسمر أمامها . لكن الفخر ملأها . باتت ، اذ ترى أنيقات البلدة فى طريقهن الى المتنزه تخاطبهن فى دخيلة نفسها :
— آه ! يالفرحتكن بهذه الثياب الانيقة ! ولكن كم منكن لها ابن

حصل على الجائزة الأولى مرتين فى المعرض ؟

اذ ذاك يرتفع رأسها الى السماك ، وتخطو ، لا تدانيها امرأة ، على صغر حجمها ، زهوا فى كل نوتينجهام . حتى أحس بول أنه قد فعل شيئا من أجلها ، مهما صغر شأنه . فكل مايفعله انما هو فعلها ، وكأنها هى التى تصور ، بيده .

ذات يوم التقى صدفة ، فى شوارع نوتينجهام ، بميريام . كان قد قابلها يوم الأحد ، فلم يتوقع أن يلقاها ثانية فى البلدة . كانت تسير بصحبة سيدة أخاذة شقراء ينطق وجهها ومشيتها بحرونة وتحد . بدا غريبا أن يرى ميريام بمنظرها المحنى المهموم أقرب الى الأقزام فى جوار تلك المرأة المتعالية ذات الكتفين الجميلتين . وقفت ميريام ترقبه متفحصة وعيناه مشدودتان الى المرأة الغريبة التى تجاهلته . رأته الفتاة وكأنما روح الرجولة فيه ترفع رأسها متيقظة فجأة .

قال لها :

ـ أهلا ! لم تخبرينى أنك ستأتين الى البلدة .

أجابت ميريام ، نصف معتذرة :

ـ كلا . جئت مع ابى صدفة الى سوق الماشية .

نظر الى رفيقتها ، قالت ميريام وتوترها يبعث بحة فى صوتها :

ـ لقد حدثتك عن مسز دوز . كلارا ، هل تعرفين بول ؟

قالت مسز دوز ، بغير اكتراث ، وهى تشد على يده :

ـ اظننى رايته فى مكان ما من قبل .

امرأة ذات عينين رماديتين تواجهان محدثها بترفع وازدراء ، وجلد بلون العسل الابيض، لهافم ممتلىء شفته العليا مرفوعةقليلا لايدرى المرء ان كان افترارها عن ازدراء للرجال جميعا ام عن اشتهاء للقبل ، وان بدا انها ، تلك الشفة ، قد أقنعت نفسها أنها تنطق بالازدراء ولا شىء غيره ، وصاحبتها قد طوحت الرأس الى الوراء قليلا ، كأنمـا تتباعد باحتقار ، قد يكون احتقارا للرجال أيضا . على الرأس قبعة لا أناقة فيها من فراء أسود ، والجسم يكسوه ثوب بسيط تنطق بساطته بالاصطناع ، يجعل صاحبته أشبه بمن ترتدى جوالا . كان من الجلى أنها فقيرة . فقيرة فى الجيب وفى الذوق معا . بينما ميريام ، رغم بساطة ثيابها ، تبدو على قدر من الأناقة دائما .

سأل بول المرأة قائلا :

ـ أين رأيتنى من قبل ؟

نظرت اليه كأنما لن تكلف نفسها مشقة الرد عليه ، ثم قالت :

ـ رأيتك فى صحبة لوى ترافرز .
كانت لوى احدى فتيات المصنع الذى يعمل به .
سألها :
ـ كيف ، هل تعرفينها ؟
لم تجبه ، فالتفت الى ميريام ، وسألها :
ـ الى أين انت ذاهبة ؟
ـ الى المعرض .
ـ وستعودين بأى قطار ؟
ـ سأعود فى السيارة مع أبى . ليتك تأتى معنا . متى تخرج من العمل ؟
ـ ليس قبل الثامنة كما تعلمين . شيء يقرف !
انصرفت المرأتان لتوهما .

تذكر بول أن كلارا دوز ابنة صديقة قديمة من صديقات مسز ليفرز . لاشك أن ميريام قد وطدت صلتها بها لأنها كانت مشرفة ، ذات يوم ، من مشرفات مصنع جوردان ، ولأن زوجها ، باكستر دوز ، مازال يعمل بذلك المصنع ، حدادا ، يسهم بصنعته فى انتاج الأجهزة التعويضية التى يصنعها جوردان . ولقد احست ميريام ، فيما بدا ، أنها مستطيعة ، من خلال اتصالها بتلك الصديقة ، أن تكون على صلة مباشرة بمصنع جوزدان مما يمكنها من تقدير وضع بول فى عمله بطريقة افضل . لكن مسز دوز كانت منفصلة عن زوجها ، فوق انها منغمسة فى حركة الدفاع عن حقوق المرأة (١) . وقد ذاع لها صيت بوصفها امرأة بارعة ، مما أثار اهتمام بول بها .

أما باكستر دوز فيعرفه بول ولا يميل اليه . رجل قوى ، مفتول العضل ، أخاذ ، مفرط الوسامة ، فى الحادية والثلاثين أو بعدها بقليل ، كان يمر أحيانا بالركن الذى يشتغل فيه بول . وقد أدرك بول ، بعد أن رأى المرأة ، مدى التشابه الغريب بين الرجل وزوجته . جلده ابيض مثل جلدها ، بذات الصفاء ، وذات الوهج الذهبى ، يجلل رأسه شعر ناعم بنى ، فلا يميزه عنها الا شاربه الذهبى اللون . فيه تعاليها وذلك التحدى الذى ينطق به كيانها . ثم يأتى التباين الحقيقى بينهما : عيناه . له عينان بنيتان داكنتان لا تستقران على وجه محدثه أبدا ، وكأنما تهربان خزيا ، فيهما انحلال ، جاحظتان جحوظا خفيفا ،

(١) كتبت الرواية فى مطلع هذا القرن .

والجفنان مسبلان نصف اسبال عليهما ، يكشفان عن نظرة توشك أن تنطق بالكراهية . وفمه ، هو الآخر ، بشهوانيته . يخالط ذلك كله احساس يشيعه فى نفس رائيه بتحد يتصف بالحطة ، وكأنما هو على أهبة عراك دائم مع كل من يتصور أنه لايروق فى عينيه ، ربما لأنه لايروق فى عينى نفسه .

من أول لقاء لهما كره بول . رأى الفتى يمعن النظر فى وجهه بنظرة الفنان اللاشخصية المتفحصة فاحتدم غضبه وصاح به ، مزويا ، شكسا :

ـ الام تنظر ؟

أشاح الفتى . لكن الحداد كان كثير التردد على القسم الذى يعمل به بول ، ليثرثر مع مستر بابلورث . حديث كله بذاء وحطة ، فما يلبث أن يجد نظرة الفتى الناقدة ، مستهجنة باردة على وجهه ، فيجفل ويستدير ، كالملدوغ ، صائحا به :

ـ ما الذى تحملق فيه هكذا يامفعوص ؟ أنت لا تساوى ثلاثة مليمات !.

فيهز الفتى كتفيه هزة خفيفة ، ويصيح دوز :

ـ ماذا ؟ لا ـ

وهنا يتدخل مستر بابلورث قائلا بصوته الحافل بالتلميح

ـ دعه فى خاله .

وهو يقصد : « فهو أبله لاضر فيه ، ولا حيلة له فى كونه كذلك . »

وهكذا دأب الفتى ، كلما رأى الحداد مقبلا ، على أن يحدجه بتلك النظرة الناقدة المستغربة ، ثم يشيح بنظرته قبل أن تلتقى عيناه بعينى الرجل ، مما أشعل غضب دوز وزاد نقمته على بول ، فكره كل منهما الآخر فى صمت .

لم ترزق كلارا دوز من زوجها اطفالا ، وهكذا فان البيت ، عندما هجرت زوجها ، تحطم بسهولة ، فذهبت لتعيش مع أمها ، بينما أقام دوز مع أخته . وفى نفس البيت كانت قريبة لزوجة أخته . أدرك بول ، بطريقة ما ، أن تلك الفتاة ، لوى ترافرز ، كانت عشيقة دوز . الفتاة على قدر من الحسن ، لكنها مبتذلة وقحة ، دائمة التهكم على الفتى ، ومع ذلك يتضرج وجهها خجلا كلما سار بجانبها الى المحطة فى طريق عودتها الى البيت .

كانت زيارته التالية لميريام مساء السبت . وجدها قد أوقدت نار المدفأة فى غرفة الجلوس ، فى انتظار مجيئه . كان الآخرون ، عدا

الأب والأم والصغار ، قد خرجوا ، فخلا الجو لهما فى تلك الغــرفة الطويلة ، الواطئة ، الدافئة . على الجدران كانت ثلاث من لوحات بول ، وصورته الفوتوغرافية فوق المدفأة . وعلى المنضدة والبيانو المرتفع العتيق ، المصنوع من خشب الورد ، آنية زجاجية فيها أوراق شجر ملونة • جلس فى المقعد الوثير ، وافترشت هى السجادة أمام المدفأة ، قرب قدميه . كان الوهج دافئا على وجهها الوسيم المهموم وقد زكعت بمقربة منه كأنما تتعبد .

سألته بهدوء :

ـ هل اعجبتك مسز دوز ؟

أجاب :

ـ تبدو السائة قليلة الود .

قالت ، بنبرة عميقة كأنما تشدها من أعماق صدرها :

ـ كلا . لكنها امرأة فتانة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم • قوامها فقط لكن لا ذرة من الـذوق فيهـــا • أعجبتنى فيها اشياء ولم تعجبنى اشياء أخرى . هل هى فظة فى معاملتهـا للناس ؟

ـ لا اظن ذلك . اعتقد انها ناقمة على حياتها .

ـ لاى سبب ؟

ـ الا ترى ، كيف تحب ان ترتبط حياتك بحياة رجل كهذا ؟

ـ ولم تزوجته اذن وقد تملكها النفور منه سريعا هكذا ؟

رددت ميريام بمرارة :

ـ آه ! لم تزوجته ! •• قال :

ـ فوق انها ، فيما اظن ، من الصلابة بحيث تستطيع أن تكون ندا له .

طاطات ميريام راسها ، وتساءلت ساخرة :

ـ هكذا ؟ ما الذى يجعلك تظن ذلك ؟

ـ أنظرى الى فمها •• لها فم ينم عن عاطفة ملتهبة •• واستدارة عنقها ، ورأسها المائل الى الوراء •

طوح رأسه الى الوراء يحاكى كلارا اذ تصعر خدها متحدية •

ازدادت ميريام انحناء :

ـ نعم .

ساد بينهما صمت لمدى لحظات ، وهو يفكر فى كلارا . ثم سألته ميريام :

ـ وماهي الأشياء التي أعجبتك فيها ؟
ـ لا ادري ..جلدها ، وبشرتها ..و.. لا أدري . هناك شيء عنيف، كامن في داخلها . لكن مايعجبني فيها يعجبني كفنان ، لا أكثر .
ـ نعم .
عجب لميريام وقد أقعت أمامه مطرقة ، مهمومة بذلك الشكل الغريب ، حتى أثارت حنقه . سألها قائلا :
ـ أنت لا تحبينها حقا ، أليس كذلك ؟
نظرت اليه بعينيها الواسعتين الداكنتين المنبهرتين وقالت :
ـ بل أحبها .
ـ أبدا . لا تحبينها . لا يمكن . ليس حقيقة .
فسألته ببطء :
ـ اذن ماذا ؟
ـ آه ! لا أعرف .. لعلك تحبينها لانها تحمل ضغينة للرجال.
ولعل ذلك كان من الأسباب التي جعلت مسز دوز تروق فى عينيه هو الآخر ، ولو أن ذلك لم يخطر له ببال . ساد الصمت بينهما ثانية، وقد ظهرت في جبينه بداية عبوس كان قد بات يلازمه ، خاصة عندما يكون مع ميريام . راودتها رغبة في أن تمد يدها فتمسح براحتها ذلك العبوس عن جبينه لكنها كفت نفسها خوفا منه . بدا ذلك الجبين المكفهر وكأنه وصمة في وجه انسان لا تعرفه ، ليس رجلها ، انسان آخر خبيء في بول مورل .
وجد بين الأوراق بضع ثمرات قرمزية من التوت ، فمد يده الى الاناء الزجاجي وانتزع عنقودا صغيرا منها ، ثم قال للفتاة :
ـ لماذا تبدين ، كلما وضعت التوت الاحمر في شعرك ، أشبه بساحرة أو كاهنة ، لا كفتاه تتزين لتلهو ؟
ضحكت بصوت عار ينطق بالألم ، وقالت :
ـ لا اعرف .
يداه القويتان الدافئتان كانتا تعبثان ، باهتياج ، بحبات التوت . سألها :
ـ حتى الضحك لا تقدرين عليه . لا تضحكين من القلب أبدا . تضحكين عندما يبدو لك اي شيء شاذا أو نابيا ، وحتى اذ ذاك يبدو كما لو كان الضحك يوجعك .
أحنت راسها كما لو كان يقرعها لذنب أتته .
ـ كم أتمنى لو ضحكت مني ولو لمدى دقيقة واحدة .. دقيقة

واحدة فقط . أحس كما لو كان ذلك حريا بأن يطلق شيئا من عقاله .
رفعت رأسها فنظرت اليه بعينين مذعورتين وقالت :
ـ لكني .. لكنى اضحك منك .. حقيقة اضحك منك .
ـ أبدا . هناك دائما شيء من الشدة والتوتر . حتى لأكاد أبكى عندما أسمعك تضحكين ، اذ تبدو ضحكاتك كما لو كانت تعرى عذابا تعانينه . صدقيني انك تشيعين الكآبة في روحى ذاتها . لا أفعل شيئا وأنا معك الا التفكير .
أخذت تهز رأسها ببطء ، فى يأس كامل .
قالت له :
ـ صدقنى . أنا لا أريد ذلك .
فصاح بها :
ـ كلما كنت معك ركبتنى هذه الروحانية اللعينة .
ظلت صامتة تفكر ، ثم قالت :
ـ اذن لماذا لا تكون غير ذلك ؟
لكنه رآها مكورة على نفسها أمامه ، خائفة ، مهمومة ، فأحس أنه ينشطر نصفين لمرآها . قال مهادنا :
ـ لكنه الخريف . كل امرىء يحس كما لو كان روحا بلا جسد في هذا الخريف .
فكان بينهما صمت آخر . ذلك الحزن الغريب بينهما ملأ روحها نشوة . بدا لها بالغ الجمال وقد باتت عيناه داكنتين ، فيهما أغوار عميقة كأعمق بئر .
لكنه استمر فى شكاته :
ـ أنت تملثيننى . وأنا لا أريد أن اكون كذلك .
انتزعت اصبعها من فمها بصوت سدادة تنتزع من فوهة زجاجة ، ورفعت عينيها اليه بنظرة اقرب الى التحدى . لكن عينيها ظلتا عاريتين ، وذلك النداء الملهوف ينطلق من أغوارهما الداكنة . لو استطاع آنذاك أن يقبلها بنقاء مجرد لفعل . لكنه لم يستطع أن يقبلها بمثل ذلك النقاء ، وقد بدا أنها لا تدع أى سبيل آخر مفتوحا أمامه . ومع ذلك فهي تريده . بكل قواها .
ضحك ضحكة قصيرة وقال لها :
ـ آه ! دعينا من ذلك . أين كتب الفرنسية ؟ سنقرأ شيئا من شعر فيرلين الليلة .
قالت بنبرة عميقة ، كأنما باستسلام :

ـ حاضر .

همت واقفة فذهبت وأحضرت كتبها . يداها المحمرتان اللتان لا يقر لهما قرار أثارتا فى قلبه شفقة حتى جن فى داخله شيء يدفعه الى أن يهدىء من روعها ، أن يقبلها . غير أنه لم يجرؤ .. أو لم يستطع . هناك شيء يمنعه . قبلاته ستكون كالوزر معها . استمرا فى القراءة حتى العاشرة ، فذهبا الى المطبخ ، حيث عاد بول طبيعيا ، واسترد مرحه مع الأب والأم . كانت عيناه داكنتين تلتمعان . جو خلاب من الفتنة كان يحوطه .

عندما ذهب الى مخزن الغلال ، حيث ترك دراجته ، وجد عجلتها الأمامية مثقوبة .

قال لها :

ـ احضرى لى وعاء فيه بعض الماء . سأتأخر ثانية فتقيم أمى القيامة فى البيت .

أوقد المصباح ، وقلب الدراجة ، ثم خلع سترته وأخذ يعمـــل بسرعة . عادت ميريام بالوعاء ووقفت بالقرب منه ترقبه . كانت تحب أن ترى يديه تعملان . كان نحيلا ، صلب العود ، تتصف أشد حركاته عجلة بسلاسة أخاذة . بدا كأنما قد نسى وجودها ، مستغرقا فى عمله . وقفت ترقبه غارقة فى حبه . جمحت بها رغبة أن تتحسس بيديها جنبيه . لطالما اشتهت أن تعانقه ، شرط ألا تثور رغبته فيها .

هم واقفا فجأة وهو يقول :

ـ انتهينا ! قولى الحق . هل كنت تستطيعين أن تفعلى ذلك بأسرع مما فعلت ؟

ضحكت قائلة :

ـ كلا !

انتصب فى وقفته وظهره اليها . وضعت يديها فجأة على خاصرتيه وتركتهما تهبطان ، مسرعتين ، على فخذيه وساقيه .

قالت :

ـ كم انت نحيل !

ضحك ، ومقت يفور فى نفسه لصوتها . لكن دمه اجتاحته موجة لهب لمس يديها على جسده . بدت كما لو كانت لا تعيه فى ذلك كله . تحسسته كما لو كان شيئا ، فلم تحس الرجولة التى فيه .

أوقد مصباح الدراجة ، ثم أخذ يرفعها ويسقطها على الأرض ليتأكد من سلامة اطاريها . قال وهو يرتدى سترته :

ـ عال ! أصلحتها .
أخذت تجرب الفرامل ، فهى تعلم أنهـا لا تعمل كما يجب .
قالت له :
ـ هل أصلحت الفرامل ؟
ـ كلا !
ـ ولكن لم ؟
ـ الفرملة الخلفية تعمل الى حد ما .
ـ لكن ذلك ليس مأمونا .
ـ أستطيع أن أستخدم ابهام قدمى .
غمغمت قائلة :
ـ ليتك تصلحها .
ـ لا عليك . تعالى لتناول الشاى غدا ، مع ادجار .
ـ هل نأتى حقا ؟
ـ نعم . حوالى الساعة الرابعة . سأخرج لأقابلكم .
ـ طيب .
سرتها دعوته . عبرا الفناء المعتم معا الى البوابة . رأى ، وهـو ينظر عبر نافذة المطبخ العارية من الستائر ، رأسى مستتر ومسز ليفرز فى وهج المدفأة . بدا منظرهما مريحا دافئا . نظر الى الطريق أمامه بين أشجار الصنوبر حالك الظلمة .
قال لها وهو يقفز على دراجته :
ـ الى الغد .
قالت متوسلة :
ـ ستحاذر لنفسك فى الطريق ، أليس كذلك ؟
ـ نعم .
جاءها صوته من الظلمة التى ابتلعته للتو . وقفت لحظة ترقب ضوء مصباحه يسابق الظلمة على الأرض ، ثم استدارت فعادت الى البيت متباطئة . كان «الصياد» (١) يصعد فى السماء فوق الدغل ، وكلبه يلتمع وراءه ، يكاد غيم أن يخفيه . فيما عدا ذلك كانت الدنيا مملوءة ظلاما ، وصامتة ، الا من أنفاس الماشية فى حظائرها . أخذت تصلى بحرارة ، تلك الليلة ، أن يصل سالما . كلما تركها ، رقـدت فى فراشها بغير نوم ، فى قبضة الهواجس ، تتساءل عما اذا كان قد وصل الى بيته سالما .

(١) « الصياد » : (Orion)

انحدر يهبط التلال بدراجته . كانت الطرق زلقة كأنما يغطيها شحم ، فأسلم نفسه لاندفاع الدراجة ، وقد احس نشوة وهي تهبط به التل الثانى شديد الانحدار . صاح من فرط نشوة ، وضحك . كان يدرك مافى اندفاعه من مخاطرة ، بسبب المنحنى المظلم فى القاع ، وبسبب عربات مصانع الجعة التى يقودها رجال مخمورون نيام . بدت دراجته وكأنما تهوى من تحته ، فازدادت نشوته ، غير عابىء بما يترصده من خطر . مثل ذلك الاستهتار يكاد أن يكون دائما انتقام الرجل من المرأة التى يحبها اذ يحسب أنها لاتقيم له وزنا ، فيخاطر بدق عنقها لكى يحرمها منه وينتهى !

بدت النجوم على سطح البحيرة وكأنها تقفز كحشرة النطاط ،فضية على وجه الظلمة ، وهو يندفع عابرا . ثم وصل الى قاع الوادى ، وبدأ صعوده الطويل الى البيت .

قال لأمه وهو يلقى بالتوت والأوراق على المنضدة :

ـ انظرى يا أماه !

زامت وهى ترمق هديته بنظرة سريعة تشيح بعدها . كانت جالسة وحدها تقرأ ، كدأبها .

ـ أليست جميلة ؟

ـ نعم .

كان يعرف انها مغضبة . قال بعد لحظات :

ـ ادجار وميريام سيجيئان لتناول الشاى معنا غدا .

فلم تجب .

ـ ليس لديك مانع .

لم تجب .

ـ هل تمانعين ؟

ـ أنت تعرف ان كنت امانع أم لا .

ـ لا أرى سببا يجعلك تضيقين بمجيئهم . أنا آكل كثيرا عندهم .

ـ نعم ، كثيرا .

ـ اذن لماذا تضنين عليهم بتناول الشاى ؟

ـ أنا أضن على من يتناول الشاى ؟

ـ ما الذى يجعلك فظيعة هكذا ؟

أوه ! لا تقل أكثر من هذا ! لقد دعوتها الى تناول الشاى ، وهذا يكفى . سوف تأتى .

انتابه غضب شديد لموقف أمه . كان يدرك أن اعتراضها منصب

على ميريام • طوح الحذاء بعيدا تعبيرا عن غضبه ، ثم ذهب الى الفراش•
ذهب بول للقاء صديقيه بعد ظهر اليوم التالى•أحس فرحة حقيقية اذ رآهما مقبلين . صحبهما الى البيت فوصلوا وقد قاربت الساعة الرابعة . كان كل شيء فى البيت نظيفا وأهدأ مما يجب بالنسبة لبعد ظهر الأحد ، وقد جلست مسز مورل فى مقعدها ، مرتدية ثوبها الاسود ومريلتها السوداء • نهضت الام للقاء ضيفيها ، فرحبت بأدجار ترحيبا حارا ، أما ميريام فحيتها ببرود . لكن بول كان مأخوذا بمنظر الفتاة فى ردائها الكشمير البنى ، فلم يلق لأمه بالا .
ساعد أمه فى اعداد الشاى . ودت ميريام لو عرضت مساعدتها على مسز مورل لكنها تقاعست خوفا . كان بول فخورا ببيته . بدا له أن البيت قد أصبح أنيقا ، على قدر من الترف . المقاعد خشبية نعم ، والأريكة قديمة ، لكن السجادة المفروشة أمام المدفأة ، والمساند ، جديدة ومريحة ، والصور المعلقة على الجدران نسخ تتصف بحسن الذوق . بساطة تميز كل شيء ، وكثرة من الكتب فى كل ركن . لم يحس بالخجل من بيته أبدا ، وكذلك ميريام ، كانت فخورة ببيتها • فكلاهما فيه دفء ، وود ، وبساطة . فوق أنه أحس الفخر بالمائدة . الصحاف والفناجين من صينى جميل ، والمفرش من قماش جيد . لا يهم كثيرا الا تكون الملاعق من فضة ، أو أن تكون مقابض السكاكين من عاج • فكل مافى البيت يبدو جميلا ، محترما • كانت مسز مورل قد دبرت امورها على خير وجه والأبناء يكبرون ، فلم يعد فى البيت شيء يحس بالخجل منه .
تحدثت ميريام فى الكتب قليلا . فذلك موضوعها المفضل الذى لا تحيد عنه . لكن مسز مورل لم تلق اليهـا كبير بال ، وسرعان ما انصرفت عنها الى ادجار .
كان ادجار وميريام قد اعتادا ، فى مبدأ الأمر ، الجلوس فى جوار مسز مورل فى الكنيسة . لم يكن مورل يتردد على الكنيسة أبدا ، مفضلا الذهاب الى الحانة . أما مسز مورل فواظبت ، لا تنقطع عن صلاة ،حتى أصبحت لهاـ فى كنيسة البلدة ـدكة تجلس على رأسها كل أحد ، ويجلس بول فى طرفها الآخر . وقد الفت ميريام أن تجلس الى جواره فى مبدأ الأمر ، فكانت الكنيسة تصبح ،بالنسبة اليهما، كالبيت فالمكان جميل ، بدككه الخشبية الداكنة ، وأعمدته الأنيقة ، والزهور التى تزين أركانه ، وأناسه الذين لا تتغير وجوههم ، فهم هم ، منذ كان صبيا ، فى نفس الأماكن لايغيرونها . كان يحس عذوبة وسلاما

اذ يجلس لصق ميريام فى ذلك المكان طيلة ساعة ونصف ساعة ، وفى جوار أمه ، فيوحد بين حبيه فى قبضة السحر الذى يشيعه مكان العبادة فى نفسه ، يحس دفئا وسعادة ويملأ التدين وجدانه . ثم يسير بعد الكنيسة مع ميريام بينما تذهب مسز مورل لقضاء الأمسية مع صديقتها القديمة مسز بيرنز . كان يتوقد حياة فى نزهات مساء الأحد هذه مع ادجار وميريام . لم يمر بالمناجم ليلا ، بالغرفة المضاءة التى تحفظ فيها المصابيح ، بأشباح الرافعات السـوداء وصفوف الشاحنات ، أو بالمراوح تدور ببطء كالاشباح ، الا وعاوده الاحساس بميريام ، حادا مرهفا ، لايكاد أن يحتمل .

لكن زيارتها لمقعد أسرته فى الكنيسة لم تطل ، فسرعان ما جدد ابوها العهد بالتردد على الكنيسة فاتخذ لأسرته مقعدا فى مواجهة آل مورل . كلما دخل بول مع أمه وجد مكان آل ليفرز خاليا ، فينتابه قلق خشية أن تتغيب ميريام فى ذلك اليوم : فالشقة بعيدة ، وما أكثر أيام الآحاد المطيرة . فى معظم الامر ... كانت تقبل، متأخرة ،فتسير بخطاها الواسعة ، منكسة الرأس ، وقد اختفى وجهها تحت حافة قبعتها القطنية الخضراء الداكنة . حتى عندما تجلس قبالته ، يظل وجهها مختفيا فى الظلال . فتجيش نفسه ، وتحتدم مشاعره ، وكأنما روحه كلها تتحرك فى داخله اذ يراها امامه . شعور يختلف عن ذلك الخليط من التوقد ، والسعادة ، والفخر ، الذى يحسه اذ يتولى أمر أمه : شىء أكثر روعة ، أقل انسانية ، بداخله ألم يدفعه الى احتدام ، فكأنه نزوع الى شىء لايستطيع أن يطاوله .

كان قد بدأ يتساءل فى تلك الآونة ،متشككا فى التعاليم الأرثوذكسية(١) .
كان فى الحادية والعشرين وهى فى العشرين ، وقد بدأت تخشى مقدم الربيع : فالربيع يجعله جامحا ، وما أكثر مايسىء اليها ويسبب لها الألم . ينطلق ، طيلة الوقت ، محطما كل ماتؤمن به . وادجار يشجعه ، مستمتعا بمأزقها . كان ، بطبيعته ، كثير الانتقاد ، لا حرارة فيه . أما ميريام فتعانى ألما لايوصف والرجل الذى تحبه يتفحص بذهن مرهف كالسكين الدين الذى تعيش فيه ، وتتحرك ، وتتواجد . لكنه لم يرحمها . فهو بالغ القسوة ، وعندما ينفرد بها يزداد عنفا ، وكأنه يريد أن يقضى على روحها ويقتلها . ادمى كل ما آمنت به حتى أوشكت أن تفقد وعيها .

توجعت مسز مورل ، فى صـميم قلبها ، بصيحة ضنى عندما انصرف بول :

---

(١) الارثوذكسية هنا بمعنى التمسك بحرفية العقيدة .

ـ انها تتهلل ·· تتهلل اذ تختطفه منى · ليست كسائر النساء ، فلا تستطيع أن تترك لى نصيبى فيه . تريد أن تتشربه ، فلا تدع منه شيئا · تريد أن تنتزعه فتتشربه حتى لا يتبقى منه شيء ، ولو لنفسه. لن يعود رجلا يقف على قدميه كالرجال ، ستمتصه فتقضى عليه .

هكذا جلست الأم تقاتل معركتها ، فى دخيلة نفسها ، وتتفكر فى مصابها بمرارة ونقمة .

أما هو ، فيكاد عذابه أن يقضي عليه اذ يعود من جولاته مع ميريام . يسير ، متسارعة خطواته ، مطبقا قبضتيه ، يقضم شفتيه غلا . ثم يعترض طريقه سور أو سياج فيتسمر مكانه ، بغير حراك · هوة شاسعة من الظلام كانت تواجهه ، وعلى السفوح الصاعدة المظلمة بقع ضئيلة من الضوء ، وفى أعماق هوة الليل الفاغرة ، مشعل المنجم . كل مايحوطه مخوف ، تكتنفه غرابة وأسرار . لم يتمزق هكذا ، لايستطيع حراكا ، وقد اوشك أن يسقط فى يده ؟ لم تجلس أمه فى البيت وتتعذب ؟ وهو يدرك مدى عذابها . ولكن لم ؟ ولم يكره ميريام ، وتفور بنفسه قسوة تجاهها ، كلما فكر فى أمه ؟ ان كانت ميريام تسبب عذاب أمه فهو يكرهها ···وما أسهل مايكرهها · لم تجعله يحس أنه عديم الثقة فى نفسه ، مهدد دائما ، تجعله شيئا غير محدد ، وتعريه ، فكأنه لا قشرة له ، لا غلاف يقيه اجتياح الليل والفضاء اذ يقتحمان أعماقه ؟ كم يكرهها ! ولكن أى اندفاق من الرقة يحسه لها ، وأى انكسار !

اندفع فجأة ، كأنما يقفز فى هوة الليل ، يعدو عائدا الى البيت . رأت أمه فى وجهه علامات عذابه ، ولم تقل شيئا · لكنه يجب أن يجعلها تكلمه . واذذاك تفصح عن غضبها العارم لتماديه مع ميريام .

صاح فى يأس :

ـ لم لاتحبينها يا أمى ؟

اجابت بانكسار :

ـ لا أعرف يابنى . حاولت أن أحبها . صدقنى . حاولت كثيرا ، لكنى لا أستطيع ·· لا أستطيع !

احس ضياعا ووحشة بينهما ، فى قلب صراع ميئوس من نتيجته .

الربيع كان أسوأ أوقاته . ما أسرع مايتغير . فهو فيه متقلب ، متوتر تملؤه قسوة · لذلك قرر أن يظل بمبعدة عنها · ثم تأتى الساعات التى يعرف أن ميريام تنتظره فيها . ترقبه امه وهو يتململ ، فى قبضة قلق يتزايد . لايستطيع أن يستمر فى عمله .

لايستطيع أن يفعل شيئا . وكأنما شيء يشد روحه شدا الى حيث تقيم ميريام . اذذاك يضع قبعته على رأسه ، ويخرج دون أن يقول شيئا . فلايكاد يجد نفسه فى الطريق حتى يتنفس الصعداء . لكنه اذ يكون معها ، تعاوده قسوته .

فى يوم من أيام مارس استلقى على شاطىء نهر الندرمير ، وجلست ميريام جواره . كان اليوم مشرقا أبيض يضرب بياضه الى زرقة خفيفة ، وسحب كبيرة ناصعة تسبح فوق رأسه ، بينما ظلال تتلصص على سطح الماء . المساحات الصافية من السماء ، بغير سحب ، كانت من زرقة نظيفة مثلوجة . رقد بول على ظهره بين الحشائش التى شاحت على شاطىء النهر ، ناظرا الى آعلى ، لايطيق أن ينظر الى ميريام . أحس رغبتها ، فقاوم بكل قواه . كان دائما يقاومها . أراد الآن أن يمنحها الحنان والحب بوقدته التى لا تحدها حدود ، فلم يستطع . أحس أنها تشتهى روحه حتى تود لو تستلها من جسده ، نقية مصفاة ، لكنها لاتشتهيه هو أو تريده . كل قواه وحيويته تشربتها منه خلال قناة خفية تصلهما وتوحدهما معا . لكنها لاتريد أن تقابله فيكونان اثنين .. رجلا وامرأة معا . أرادت أن تستوعبه ، كله ، فى كيانها . تسلطت عليه رغبتها فاشعلته بحدة كالجنون ، سحرته وأذهلته ، كأنه تعاطى مخدرا .

أخذ يناقش مايكل انجلو معها . أحست وهى تصغى اليه كما لو كانت تتحسس بأصابعها نسيج الحياة ذاته ، ومادتها . وأحست لذلك اشباعا لايحد ، أثار فى النهاية ، ذعرها ، وقد رقد أمامها فى لهب بحثه المحتدم الابيض ، صوته رتيب لا انفعال فيه ، يكاد يتجرد من انسانيته ، وكأنه يخرج من قلب غيبوبة ، فيملأها ذعرا . توسلت اليه بصوت خافت وهى تضع راحتها على جبينه :

ــ كفى كلاما .

رقد فى همود كامل ، كأنه غير قادر على الحركة ، وجسده ملقى بعيدا ، فى مكان ما ، وقد نضته روحه .

ــ لم ؟ هل تعبت من الكلام ؟

ــ نعم . وهو يتعبك أنت أيضا .

ضحك باقتضاب ، وقد فهم ، ثم قال :

ــ ومع ذلك ، فأنت تجعليننى أحب الكلام .

قالت بخفوت شديد :

ــ لا أريد ذلك .

ـ نعم لاتريدينه ، عندما تكونين قد تماديت فتحسين أنك لاتطيقينه . لكن ذاتك اللاواعية تحفزني اليه أبدا ، هذا الكلام ، تتطلبه مني . وأظنني أنا أيضا أريده .

استطرد قائلا ، بنبرته التي لا حياة فيها :

ـ لو كنت قادرة على أن تشتهيني ، بدلا من أن تشتهي هذا اللغو الذي أقوله لك !

صاحت بمرارة :

ـ أنا ! أنا ! متى تركتني آخذك ؟

قال وهو يتمالك نفسه بجهد :

ـ الخطأ في جانبي اذن .

ثم هم جالسا وأخذ يثرثر بتفاهات وقد احس أنه تجرد من جسده . فكرهها لذلك ، بطريقة مبهمة ، غير محددة ، وأن أدرك أنه ملوم في ذلك مثلها تماما . لكن ادراكه لم يمنعه من أن يكرهها .

سار معها ذات مساء ، قرابة تلك الايام ، عائدين من جولتهما . وقفا على مشارف المرعى المنحدر الى الغابة ، لايستطيعان أن يفترقا . لم تكد النجوم تظهر حتى أطبقت عليها السحب . لكنهما استطاعا أن يلمحا برجهما المفضل ، أوريون (١) ، الصياد ، ناحية الغرب . التمعت جواهره لمدى لحظة ، وكلبه في أعقابه ، لايكاد أن يبين .

أوريون ، الصياد ، أهم أبراج السماء اليهما وأكثرها مغزى . كم أطالا اليه النظر في ساعاتهما الغريبة المفعمة بمشاعر جياشة جامحة ، حتى باتا وكأنهما يعيشان في كل نجم من أنجمه . لكن بول ، في تلك الأمسية ، كان شكسا ، متقلبا ، ركبته كآبة . فبدا أوريون له كمجرد مجموعة من النجوم . دفعته حرونة الى التملص من سحر صديقه القديم ، وانبهاره به . أخذت ميريام ترقب حبيبها بامعان ،

---

(١) اوريون ، الصياد ، دائم الظهور في ايماءات لورنس الميثولوجية . وقصة هذا البرج من أبراج السماء في الاساطير اليونانية تدور حول فتى جميل ، ضخم الجسم كان صيادا عظيما ، حتى اتخذته الالهة آرتميس تابعا لها ، لكنها في النهاية قتلته . في بعض الاساطير ان ربة الفجر ، اورورا ، أحبته ، فأثار ذلك نقمة آرتميس وغيرتها ، فقتلته . بينما تحكي بعض الاساطير الاخرى ان الصياد اغضب الاله ابوللو فخدع ذلك الاله اخته آرتميس وجعلها تردي تابعها . لكن الاساطير جميعا تنتهي الى انه ، بعد موته ، رفعته الالهة الى السماء حيث بات برجا من أبراجها يتراءى من الارض كاسيا جلد أسد ، متمنطقا بسيفه ، حاملا هراوته في يده . وقد يجدي ان يذكر القارىء ان لورنس لا يلتزم الدقة دائما في ايماءاته الميثولوجية ، وانه ، على أية حال ، كانت له ميثولوجيته الخاصة به ، حتى في استخداماته لتلك الاساطير .

لكنه لم يقل شيئا يمكن أن يفصح عما بنفسه ، الى أن حلت لحظة الفراق ، وقد وقف ينظر مكفهرا الى السحب المتراكمة التى كان البرج العظيم يخطو وراءها .

قال لها وقد دعاها الى حفل صغير ببيت أهله :

ـ لن أخرج لألقاك غدا .

أجابت ببطء :

ـ أوه ! لابأس . الجو ليس صحوا على أية حال .

ـ ليس ذلك هو السبب . الحقيقة أنهم لايحبون أن أخرج لألقاك . يقولون انى أهتم بك أكثرمما أهتم بهم . أنت تقدرين الموقف، أليس كذلك ؟ تعرفين أن كل مابيننا صداقة لا أكثر .

دهشت ميريام وتألمت لأجله . بدا واضحا أن ذلك القول كلفه مالايطيق ، فأسرعت تفارقه لتوفر عليه المزيد من المهانة . مطر خفيف دفعته الريح تلطم وجهها قطراته وهى تسير مسرعة وحدها . أحست الجرح عميقا داخلها ، واحتقرته اذ يستسلم لسلطان أمه يطوحه حيث شاء . أحست فى أعماق قلبها أنه يتلمس الطريق الى فكاك منها . لكن ذلك شيء لم تكن على استعداد للاعتراف به أمام نفسها . فانقلب الأمر فى نفسها الى شفقة عليه .

فى تلك الأيام أصبح بول عنصرا هاما فى حياة مصنع جوردان . فقد ترك مستر بابلورث العمل لينشيء عملا خاصا به ، وحل بول محله كمشرف على القسم . تقرر رفع أجره الى ثلاثين شلنا فى آخر العام ، اذا ماسارت الأمور على مايرام .

لم تنقطع ميريام عن دروس اللغة الفرنسية ، فثابرت على زيارته مساء كل جمعة . كان قد بات قليل التردد على مزرعة أهلها ، فأحزنها أن تنقطع دراستها ، فوق أنهما يحبان أن يكونا معا ، رغم مابينهما من شقاق . وهكذا أخذا يقرآن بلزاك معا ، ويكتبان موضوعات انشائية ، فيحسان أنهما يتثقفان بذلك ثقافة رفيعة .

كانت ليلة الجمعة موعد المحاسبة بين عمال المنجم . فكان مورل « يتحاسب » (يقتسم كسب القطاع الذى يعمل به من المنجم مع زملائه) اما فى الحانة الجديدة ، أو فى بيته ، تبعا لرغبة الآخرين . فباركر قد تاب عن شرب الخمر ، وهكذا أصبح الرجال يتحاسبون فى بيت مورل معظم الوقت .

وقد عادت الى البيت ايضا ابنة الأسرة ، آنى ، التى اشتغلت بالتدريس فى مكان بعيد ردحا من الزمن . ظلت الفتاة ، كسابق

عهدها ، أقرب الى الصبية منها الى الفتيات ، لكنها مخطوبة . وبول قد أخذ يدرس التصميم .

كانت معنويات مورل ترتفع فى مساء الجمعة عادة ، الا اذا كانت الأجور ضئيلة . لم يكد ينتهى من تناول العشاء حتى سارع يعد عدته للاغتسال . وقد جرى العرف على أن تتغيب النساء بينما الرجال يتحاسبون فليس من اللائق أن يتجسسن على مسألة كهذه تخص الرجال وحدهم ، فوق أنهن لايجب أن يعرفن مقدار الأجور الأسبوعية على وجه التحديد . لذلك لم يكد مورل يدخل ليغتسل حتى خرجت آنى لقضاء بعض الوقت مع احدى جاراتها ، بينما انشغلت مسز مورل بخبيزها .

جأر مورل غاضبا :

ـ اقفلى هذا الباب !

صفقت آنى الباب وراءها وخرجت .

صاح مورل فى أعقابها :

ـ لو فتحت هذا الباب ثانية وأنا أغتسل سأكسر رأسك .

اكفهر وجه الأم وعبس بول وهما يسمعان صياحه . ثم مالبث أن خرج يعدو من حمامه والماء والصابون يسيلان من جسده وهو يرتجف بردا :

ـ ياناس ! أين منشفتى ؟

كانت المنشفة موضوعة على ظهر مقعد أمام المدفأة لتجف ، تجنبا لشجاره وصياحه اذا لم يجدها كذلك . أقعى على كعبيه أمام نار المدفأة الحامية وأخذ يجفف نفسه ، متظاهرا بأنه مازال يرتجف من البرد .

لم تتمالك مسز مورل نفسها فقالت :

ـ يارجل عيب ! لاتكن كالأطفال .. ! ليس الجو باردا الى هذه الدرجة .

فقال وهو يجفف شعره :

ـ جربى أن تخلعى ثيابك لتستحمى فى هذه الثلاجة ، وسترين .

أجابت زوجته قائلة :

ـ ولو ! لاداعى لهذه الضجة . لو كنت مكانك ..

ـ لو كنت مكانى لتجمدت وسقطت ميتة كمقبض الباب دون أن تفتحى فمك .

سأل بول بفضول :

ـ ولم يكون مقبض الباب اشد موتا من أى شىء آخر ؟
ـ ما أدرانى أنا ؟ هذا مجرد تعبير تعارف عليه الناس . لكن ذلك المكان الذى نستحم فيه يلفحه تيار ينفذ فى العظام كأنما يستحم المرء امام بوابة مفتوحة .
قالت مسز مورل :
ـ أى تيار هذا الذى يستطيع ان ينفذ فى عظامك ؟
نظر مورل الى جسده محزونا :
ـ أنا ؟ لقد أصبحت كالأرنب المسلوخ ، عظامى تكاد أن تشق جلدى
قالت زوجته :
ـ والله ؟ أين ؟ أرنى أين ؟
ـ آه ؟ فى كل مكان . اصبحت مجرد حزمة من الحصى .
ضحكت مسز مورل . فجسده مازال فتيا ، مفتول العضل ، لا شحم فيه ، أقرب الى جسد رجل فى الثامنة والعشرين ، ناعم الجلد ، رائق البشرة ، لولا كدمات زرقاء عديدة منتشرة كالوشم حيثما ترسب تراب الفحم تحت الجلد ، ولولا أن صدره مشعر أكثر مما ينبغى . لكنه وضع يده على أضلاعه محزونا ، فهو موقن من أنه نحيل معروق كقط جائع ، لمجرد أنه لا يزداد وزنا .
نظر بول الى يدى أبيه الخشنتين الداكنتين ، بأظافرهما المكسورة ، ومايغطى سطحهما من آثار الجروح ، تتحسسان نعومة جسده الجميل ، فرأى اليدين نابيتين فى ذلك الجسد ، كأنهما دخيلتان عليه . قال لأبيه :
ـ أظنك كنت ممشوق القوام فيما مضى .
جفل الرجل ، والتفت اليهما فى وجل ، كالطفل . قالت مسز مورل :
ـ نعم . كان كذلك . لولا انه لم يرحم جسده .
صاح مورل :
ـ أنا ؟ أنا كنت ممشوق القوام ! لقد كنت دائما أشبه بالهيكل العظمى .
قالت زوجته :
ـ يارجل ! انت لاتكف عن الشكوى أبدا ؟
ـ أبدا والله ! انت تعرفين أنى أتدهور من سىء الى أسوأ باستمرار .
جلست مستغرقة فى الضحك . قالت له :
ـ لقد كانت بنيتك دائما كالحديد . ليس هناك من هو مُجدود

الحظ مثلك فى ذلك ، فقد وهبت جسدا ولا كل الأجساد .

صاحت فجأة موجهة قولها الى بول وهى تشد قامتها لتحاكى زوجها فى شبابه :

ــ لو كنت رأيته فى تلك الأيام !

رمقها مورل بخجل . وقد تراءى له ثانية ماكانت تحسه له من اشتهاء . توهجت لمدى لحظة باشتهائها القديم له . فركبه الخجل ، وقدر من الذعر ، والذلة . لكنه أحس من جديد وهجه القديم . وللفور أحس ما ألحقه بنفسه من أذى طيلة تلك السنين . ودلو فعل شيئا ينسيه ، فيهرب من تلك المواجهة مع ماضيه .

قال لها :

ــ هلا غسلت لى ظهرى ؟

احضرت زوجته قطعة من الفانلا مصبنة جيدا ألقتها فوق كتفيه ، فقفز فى مكانه ، وصاح بها :

ــ ما هذا يا امرأة ؟ انها باردة كالثلج .

ضحكت قائلة :

ــ كان يجب أن يخلقك الله حيوانا من فصيلة السلاماندر ! (١)

ثم اخذت تغسل له ظهره . وهى نادرا ماتفعل له شيئا كهذا ، فمثل هذه الخدمات الشخصية يقوم بها أولاده .

قالت له :

ــ أراهن أنك لن تجد العالم الآخر دافئا بما فيه الكفاية !

قال :

ــ كلا . ستتكفلين بذلك دون شك . ستجعلينه باردا تملأه تيارات الهواء .

لكنها انتهت سريعا من غسل ظهره ، فجففته له كيفما اتفق ، وانصرفت عنه صاعدة الى أعلى ، ثم عادت تحمل اليه سرواله الذى يرتديه فى المنجم . عندما انتهى من تجفيف جسده أرتدى قميصه ، ثم وقف أمام المدفأة ، لامعا ، متوردا ، مهوش الشعر ، والقميص مدلى خارج السروال القديم ، يدفىء الثياب التى سيرتديها ، يقلبها ظهرا لبطن ، ويقربها من النار حتى يكاد يحرقها .

صاحت به زوجته :

ــ كفى يارجل . البس ثيابك !

---

(١) حيوان مفروض انه يعيش فى النار وتستخدم اللفظة فى الانجليزية لوصف من يحب الدفء كثيرا .

ـ نعم ؟ كيف تحبين أن تضـــعى ساقيك فى سروال بارد كانه حوض ماء ؟

أخيرا خلع سروال المنجم وارتدى بنطلونا أسود · فعل ذلك كلـه امام المدفأة ، كما كان حريا أن يفعل لو كانت آنى وصـاحباتها فى الغرفة معه .

قلبت مسز مورل الخبز فى الفـرن ، ثم مدت يدها الى الماجور الفخار الأحمر فأخذت منه قطعة من عجين رحرحتها الى الشـكل المطلوب ووضعتها فى الصاج ، بينما هى تفعل ذلك دخل باركر بعد أن قرع البـاب . كان رجلا هادئا ، صغير الحجم ، ملموم الأطراف يبدو كأنه قادر على أن يخترق حائطا من حجر ، يكشف شعره القصير عن رأس ناتىء العظام · وهو ، كسائر عمال المناجم ، شاحب اللون ، لكنه نشط صحيح البنية .

أومأ برأسه لمسز مورل وهو يجلس على الأريكة متنهدا :

ـ مساء الخير ياسست ·

اجابت مسز مورل بترحاب :

ـ مساء الخير ·

جلس ، كما يجلس كل من يدخل مطبخ مسز مورل من الرجال ، يكاد أن يتوارى أمام عينيها .

قال له مورل :

ـ لم تضيع وقتا فى المجىء !

سألته مسز مورل :

ـ كيف حال زوجتك ؟

فقد اخبرها أنهما ينتظران طفلهما الثالث ·

قال وهو يهرش رأسه :

ـ آه ! أظنها فى حالة لا بأس بها ·

سألته مسز مورل :

ـ دعنا نرى ··· متى ؟

ـ لن أدهش كثيرا اذا ما ولدت فى أى وقت الآن ·

ـ آه ! وصحتها جيدة ؟

ـ لا بأس بها ·

ـ نحمد الله · فهى ليست قوية البنية ·

ـ كلا · وقد ارتكبت أنا حماقة سخيفة أخرى ·

ـ أى حماقة ؟

فهى تعرف أن باركر ليس ممن يتورطون فى حماقات خطيرة .

ــ جئت دون أن أحضر حقيبة السوق معى .

ــ يا شيخ ! خذ حقيبتى .

ــ كلا . ستحتاجينها .

ــ لن أحتاجها . فأنا أستخدم حقيبة من الشبك .

تصورت الرجل بحجمه الصــــغير وصرامته وهو يشترى مؤن الأسبوع من البقالة واللحم فى ليالى الجمعة ، فأحست اعجابا به .

قالت لزوجها :

ــ ان باركر صغير الحجم ، لكنه اكثر رجولة منك بعشرات المرات .

فى تلك اللحظة دخل وسون ، وهو رجل نحيل ، رقيق البنية ، على وجهه براءة صبيانية وابتسامة بلهاء بعض الشىء رغم أطفاله السبعة . لكن امرأته ذات دماء ساخنة .

قال لباركر بابتسامة بليدة :

ــ أراك سبقتنى .

أجاب باركر :

ــ نعم .

خلع القادم الجديد غطاء رأسه وتلفيعته الصوفية الثقيلة . كان ذا انف مدبب أحمر .

قالت مسز مورل :

ــ أخشى أن تكون بردانا يا مستر وسون .

أجابها قائلا :

ــ الحقيقة الجو بارد بعض الشىء .

ــ اذن اقترب من المدفأة .

كان مورل وباركر يجلسان بعيدا عن المدفأة . فذلك حرم مقدس للعائلة لايطأه الغرباء .

قال مورل :

ــ اذهب فاجلس فى المقعد الوثير .

ــ كلا ، شكرا لك . فأنا على ما يرام هنا .

ــ أبدا ، تفضل أجلس هنا .

ازاء الحاح ربة البيت ، نهض الرجل مرتبكا ، فجلس فى مقعد مورل محرجا . فتلك ، فى عرفهم ، ألفة تصل الى حد التعدى . لكن دفء النار ملأه سعادة ونشوة .

سألته مسز مورل :

ـ وكيف حال صدرك ؟
ابتسم ثانية وعيناه الزرقاوان فيهما لمعة . قال لها :
ـ أوه ! صدرى . لا بأس ، لا بأس .
فقال باركر باقتضاب :
ـ آه ! وفيه حشرجة تثقب الأذن .
أبدت مسز مورل اعتراضها على هذه الحال بطقطقة من لسانها ثم سألته :
ـ وذلك الصدار من الفانلا الذى كنت سترتديه ، هل اشتريته ؟
قال مبتسما :
ـ ليس بعد .
فصاحت :
ـ اذ لماذا لم تشتريه ؟
قال وابتسامته لاتفارقه :
ـ سأشتريه ذات يوم .
فصاح باركر :
ـ آه ! يوم القيامة انشاء الله !
كان باركر ومورل يضيقان ذرعا بتواكل وسون ، لكن كلا منهما يتمتع بصحة طيبة ولا يعرف ما معنى أن يكون المرء عليلا .
دفع مورل كيس النقود تجاه بول قائلا :
ـ عدها يابنى .
التفت بول عن كتبه وقلمه بنفاد صبر ، ثم أفرغ ما بالكيس من نقود على المنضدة ، فأحصاها بسرعة ثم راجعها على الشيكات ـ وهى قصاصات ورق تبين كميات الفحم ، وبعد ذلك صنف النقود ورصها . ألقى باركر نظرة سريعة على الشيكات .
صعدت مسز مورل الى الطابق العلوى ، فقام الرجال الثلاثة وجلسوا الى المنضدة . احتل مورل ، بوصفه رب الدار ، مقعده الوثير ، وظهره الى نار المدفأة الحامية ، بينما جلس صاحباه فى أماكن أبعد قليلا عن دفء النار . لم يحاول أى منهما أن يحصى النقود .
قال مورل :
ـ قلنا كم نصيب سيميسون ؟
ثار خلاف قصير حول نصيب زميلهم الغائب ، ثم اتفقوا على مبلغ وضعوه جانبا .
ـ ونصيب بيل نايلور ؟

أخذ ذلك المبلغ أيضا من النقود . ثم .. لأن وسون كان يقيم فى أحد منازل الشركة ، وقد اقتطع الايجار من كسبه ، أخذ مورل وباركر أربعة شلنات وستة بنسات لكل منهما ، ولأن مورل وصلته كمية الفحم المخصصة له ، أخذ باركر ووسون أربعة شلنات لكل . بعد ذلك كان الأمر سهلا . وزع مورل الجنيهات الذهبية بالتساوى ، ثم القطع من فئة الشلنين ونصف ، وبعدها وزع الشلنات . فاذا تبقى بعد ذلك من قطع النقود مالايقبل القسمة فانه يحتفظ به لنفسه ، ويقدم بقيمته مشروبات لأصحابه .

قام الرجال الثلاثة اثر ذلك وانصرفوا ، وأولهم مورل ، مهرولا خارج الدار قبل أن تدركه امرأته . وقد سمعت الباب يقفل فنزلت . ذهبت الى الفرن لفورها لتطمئن على الخبز ، ثم نظرت الى المنضدة فوجدته قد ترك لها النقود . لم يرفع بول راسه ، فقد كان مستغرقا فى العمل ، لكنه أحس بأمه وهى تحصى ماتركه أبوه لمصروف البيت ، واحس الغضب الذى تملكها . ثم سمع الصـــوت الذى أحدثته بلسانها ، فقطب حاجبيه لأنه لايستطيع أن يعمل وهى غاضبة . أحصت النقود ثانية ثم صاحت :

ـ خمسة وعشرون شلنا ! كم كانت قيمة الشيك ؟

قال بول محنقا ، فهو يعلم ماسوف يحدث ، ويخشاه :

ـ عشرة جنيهات وأحد عشر شلنا .

ـ كذا . ويعطينى خمسة وعشرين شلنا لا أكثر ، وقد قبض حصته فى الجمعية هذا الأسبوع ! لكنى اعرفه . انه يتصور أنه لم يعد مسئولا عن الانفاق على بيته لأنك أصبحت تكسب بعض النقود . فيأخذ كل شىء لنفسه ليطفح به خمرا . سوف أريه !

صاح بول :

ـ أوه ! كلا يا أماه . أرجوك .

صاحت به :

ـ ترجونى ماذا ، أريد أن أعرف .

ـ أن تكفى عن هذا الصياح . لا أستطيع أن أعمل .

سكنت فجاة . ثم قالت :

ـ ما اسهل السكوت . ولكن كيف أدبر نفقات البيت بهذا المبلغ الضئيل ؟

ـ وهل كثرة الكلام ستجديك ، فتحل لك المشكلة ؟

ـ اريد ان أعرف ما الذى كنت فاعله لو كانت المشكلة مشكلتك !

ـ أصبري قليلا ، وسأعطيك نقودى • دعيه يذهب الى الجحيم •
عاد الى كتابه ، بينما اخذت هي تعقد شرائط قبعتهـا ووجهها مكفهر • لم يكن يطيق ان يراها قلقة أو غاضبة • لكنه بات يصر على أن تحسب هى أيضا حسابه وتعترف بوجوده .
قالت وهى تهم بالانصراف :
ـ الرغيفان اللذان بأعلى سينضجان بعد عشرين دقيقة • لا تنسهما•
اجابها قائلا :
ـ حاضر •
فخرجت ذاهبة الى السوق .
ظل وحده فى البيت منهمكا فى العمل . لكنه وجد تركيزه الحاد المألوف قد بات مشتتا ، فأذنه مشدودة الى الفناء . فى السابعة الا ربعا سمع طرقا خافتا على الباب ثم دخلت ميريام •
قالت له :
ـ وحدك ؟
ـ نعم .
خلعت غطاء رأسها ومعطفها ، وكأنها فى بيتها ، ثم ذهبت تعلقهما . سرت فى جسده اثارة لفعلها • فكأنما البيت بيتها لا يشاركهما فيه أحد • عادت اليه وانحنت تنظر فى كتابه :
ـ ماذا تقرأ ؟
ـ نفس الموضوع : التصميم ، للديكور ، والتطريز •
اقتربت من الكتاب أكثر تحدق فى لوحاته بعينين قصيرتى النظر . لطالما أثار حنقه تحديقها فى كل شيء يخصه كما لو كانت تستقصى أمره . ذهب الى غرفة الجلوس ثم عاد يحمل لفة من قماش لونه ضارب الى البنى فردها بحرص على الارض ، فاذا بها ستارة مرسوم فيها تصميم جميل لورود تطرز عليها .
صاحت قائلة :
ـ يا لجمالها !
وقفت تنظر الى قطعة القماش المفرودة تحت قدميها بورودها الحمراء الرائعة ، وسوقها الخضراء الداكنة ، بالغة البساطة ، لكنها ، بطريقة ما ، بالغة القسوة أيضا •ركعت أمامها على ركبتيها وقد انسدلت غدائرها السوداء حول وجهها . رآها مقعية بلذة حسية أمام عمله ، فتسارعت دقات قلبه . فجأة رفعت راسها ونظرت اليه •
سألته :

ــ لماذا تبدو قاسية ؟

ــ ماذا ؟

ــ تبدو كما لو كانت القسوة تشع منها ٠

قال وهو يطوى عمله بيد عاشق :

ــ انها ممتازة ، سواء كانت كما تقولين او لم تكن ٠

همت واقفة على مهل متفكرة ، ثم سألته :

ــ وما الذى ستفعله بها ؟

ــ سأرسلها الى أحد المحلات لبيعها . كنت أنوى أن أهديها لأمى ، لكننى أعتقد أنها سترحب بالنقود أكثر .

قالت ميريام :

ــ نعم .

أحست فى قوله بعضا من مرارة ، وتعاطفت معه ٠ لم تكن النقود لتعنى شيئا بالنسبة اليها فى حالة كهذه . أعاد قطعة القماش الى غرفة الجلوس ، ثم أقبل وفى يده قطعة أصفر ألقى بها الى ميريام : غطاء وسادة مرسوم عليه نفس التصميم ٠

قال لها :

ــ وهذه لأجلك ٠

تحسست هديته بأصابع راعشة ولم تنطق ، حتى انتابه الحرج ، ثم تذكر فصاح فجأة :

ــ يا لله ! الخبز ٠

أخرج الأرغفة العليا من الفرن فأخذ ينقر عليها بأصابعه فى قوة . كانت قد نضجت تماما ، فوضعها لتبرد ، ثم ذهب الى الحوض فبلل يديه ، واغترف ماتبقى من عجين من الماجور وأسقطه فى صاج الخبيز . كانت ميريام مازالت منحنية على قطعة القماش المرسومة ، فوقف يرقبها وهو يفرك العجين من أصابعه . سألها قائلا :

ــ هل تروقك حقا ؟

رفعت رأسها فنظرت اليه وعيناها الداكنتان شعلة من حب . ضحك محرجا ، ثم أخذ يتكلم عن التصميم . فهو يحس متعة لاتفوقها متعة اذ يحدث ميريام عن عمله . كل مافيه من عاطفة مشبوبة ، ودم جامح ، واشتهاء ، يندفق فى ذلك الاتصال الحميم بها اذ يتكلم ويخصب روحه بالحديث عن عمله ٠ فهى تستظهر فيه كل ما يموج فى نفسه من أخيلة ، دون أن تفهم ، تماما كما لا تفهم المرأة حين يخصب رحمها فتحمل ٠ لكن ذلك الاتصال كان الحياة ذاتها بالنسبة اليها واليه ٠

بينما هما يتحدثان ، دخلت الفرفة فتاة فى حوالى الثانية والعشرين ، ضئيلة ، شاحبة ، غائرة العينين لكن نظرة شيطنة لا هوادة فيها مرتسمة على وجهها • كانت الفتاة من صديقات آل مورل •

قال لها بول :

ـ أخلعى أشياءك •

ـ كلا • فلن أطيل البقاء •

جلست فى المقعد الوثير قبالة بول وميريام اللذين كانا على الأريكة . ابتعدت ميريام قليلا عنه . كانت الفرفة دافئة تعبق برائحة الخبز الطازج ، وأرغفة بنية يتحلب الفم لها مرصوصة فوق المدفأة .

قالت بياتريس متخابثة :

ـ لم أكن أتوقع أن أراك هنا الليلة يا ميريام ليفرز •

غمغمت ميريام بصوت نم عن اضطرابها :

ـ لم لا ؟

ـ آه ! دعينا ننظر الى حذائك •

ظلت ميريام فى مكانها ، محرجة ، بلا حراك . فضحكت بياتريس قائلة :

ـ لا اظنك تجرؤين !

رفعت ميريام ثوبها قليلا لتكشف عن قدميها . نظرا الى حذائها المغطى بالطين ، له مرأى غريب ، مهزوز ، يثير الشـفقة ، وكأنه انعكاس لوجلها وعدم ثقتها بنفسها . صاحت بياتريس :

ـ ياربى ! أنت كومة من القذارة يابنيتى ! من الذى ينظف لك حذائك ؟

ـ أنا أنظفه بنفسى •

فقالت بياتريس :

ـ اذن فأنت تبحثين عن المشقة بحثا ! والله لو قيل لى أن حشدا من الرجال فى انتظارى هنا لما كنت قد جئت الليلة . لكن الحب لا يقيم وزنا للوحل ، أليس كذلك يا رسولى العزيز (١)

فأجابها باللاتينية :

Inter alia

ـ أوه ، يا ربى ! تريد أن تخيفنى باللغات الاجنبية ! ماذا يعنى قوله ياميريام ؟

سألتها على سبيل السخرية ، لكن ميريام لم تفطن الى ذلك ،

---

(١) تخاطبه الفتاة بهذه الطريقة لان اسمه بول " او بولس « بولس الرسول »

فأجابتها بتواضع :
ـ أعتقد أنه يعنى « بين أشياء أخرى » .
وضعت بياتريس لسانها بين أسنانها وضحكت بخبث قائلة :
ـ « بين أشياء أخرى » يارسول ؟ هل تعنى أن الحب يضحك من الأمهات ، والآباء ، والاخوان ، والأخوة ، والاصدقاء ، والصديقات وحتى من المحبوب ذاته ؟
تصنعت براءة لا حدود لها .
اجابها بول قائلا :
ـ الواقع أنه نكتة كبيرة .
قالت الفتاة وهي تضحك ضحكتها الخبيثة من جديد :
ـ تماما . انه يضحك من الجميع فى كمه يارسول . صدقنى .
لزمت ميريام الصمت ، منسحبة الى داخل نفسها . كل أصدقاء بول يروق لهم أن يتحزبوا ضدها ، دون أن يهب هو لنجدتها ـ وكأنه يستمتع بالانتقام منها ، بشكل ما ، من خلال عدائهم لها .
سألت ميريام الفتاة :
ـ مازلت تعملين بالمدرسة ؟
ـ نعم .
ـ كيف ؟ الم يطردوك بعد ؟
ـ أظنهم سيفعلون فى عيد الفصح .
ـ خسارة ! حرام أن يطردوك لمجرد رسوبك فى الامتحان ، أليس كذلك ؟
قالت بياتريس ببرود :
ـ لا أدرى .
ـ أجاثا تقول انك لاتقلين عن أى مدرسة أخرى فى أى مكان . يبدو الأمر بالغ السخف . ترى لم لم تنجح فى الامتحان ؟
قالت بياتريس باقتضاب :
ـ قلة عقل ، آه يارسول ؟
فأجاب بول ضاحكا :
ـ ليس لديك عقل الا فى السخرية من الناس .
صاحت الفتاة وهى تقفز من مقعدها فتندفع اليه وتضربه :
ـ وقح !
كانت ذات يدين جميلتين . امسك برسغيها فأخذت تصارعه ، ثم افلتت من قبضته ، فاطبقت بيديها على شـــعره البنى الغزير

واخذت تهز راسه .
قال وهو يخلص شعره من قبضتها :
ــ فظيعة ! انا أكرهك !
ضحكت الفتاة بجذل قائلة :
ــ وسع ! أريد أن أجلس بجانبك .
فقال :
ــ أفضل أن أجلس بجوار ثعلبة من أن أجلس بجوارك .
لكنه أفسح لها مكانا بينه وبين ميريام .
صاحت الفتاة :
ــ خسارة ! شعره الجميل اصبح مهوشا .
ثم أخرجت مشطها واخذت تمشط له شعره :
ــ وشاربه اللطيف الصغير !
أمالت راسه الى الوراء بيدها واخذت تمشط شاربه قائلة :
ــ انه شارب صغير شرير يارسول ! لونه أحمر علامة الخطر . معك سجائر ؟
اخرج علبة سجائره من جيبه فنظرت فيها بياتريس . قالت وهى تضع اللفافة بين أسنانها :
ــ لو كنت أعرف لما اخذت سيجارة أختى الاخيرة .
اشعل لها لفافتها فاخذت تنفث الدخان متأنقة . قالت له متهكمة :
ــ شكرا جزيلا يا حبيبى .
بدا واضحا أنها تجد متعة شريرة فى ذلك الدور الذى تلعبه أمام ميريام . سألتها :
ــ الا تجدين انه يفعل ذلك بطريقة لطيفة ياميريام ؟
قالت ميريام :
ــ أوه ! جدا !
اخذ لفافة لنفسه فسارعت بياتريس تقرب وجهها من وجهه قائلة :
ــ ولعة يا صاحبى ؟
انحنى ليشعل سيجارته من لفافتها فغمزت له بعينها وهو يفعل ذلك . رأت ميريام عينيه تتراقص فيهما شيطنة وفمه الشهوانى ترتجف شفتاه المليئتان . رأته وقد تغير ، فلم يعد بول الذى تعرفه ، ولم تطق ذلك . فهو ، كما رأته فى تلك اللحظة ، انسان لا صلة لها

به ، وهي قد باتت ٠٠ وكأنما لا وجود لها فى الغرفة معهما ٠ رأت السيجارة تهتز بين شفتيه المليئتين ، وكرهت شعره الفزير لأنه تهدل سائبا على جبينه .

قالت بياتريس وهى ترفع وجهه بأطراف أصابعها وتلثم خده :

ـ ولد جميل !

ـ سأرد لك قبلتك يابنت !

قفزت واقفة وهى تضحك :

ـ اياك !

قالت لميريام وهى تبتعد عنه :

ـ أليس قليل الحياء ياميريام ؟

قالت ميريام :

ـ تماما ٠ على فكرة ، ألم تنس الخبز ؟

صاح وهو يقفز من مكانه فيفتح باب الفرن :

ـ يالله !

ملأ الغرفة دخان مائل الى الزرقة ورائحة خبز محروق .

صاحت بياتريس وهى تذهب فتقف الى جواره :

ـ الله ، الله ٠

أقعى أمام الفرن وهى تنظر من فوق كتفه قائلة :

ـ هذه آخرة الاندماج فى الحب يا صغيرى ٠

أخذ بول يخرج الأرغفة مكلوما وقد أسود أحدها وبات الآخر صلبا كقالب من الطوب ، ثم قال :

ـ مسكينة ماما !

فقالت له بياتريس :

ـ ليس أمامك الا أن تبشره ٠ أين المبشرة ؟

أعادت رص الأرغفة التى لم تنضج فى الفرن ، ثم أحضر لها المبشرة فأخذت تبشر الرغيف المحروق فوق صحيفة على المائدة . فتح الأبواب لتهوية المكان من رائحة الخبز المحروق ، بينما راحت بياتريس تبشر ، ولفافتها بين شفتيها ، وتزيل الأجزاء المتفحمة من الرغيف المسكين .

قالت فجأة :

ـ تعرفين ياميريام ؟ وقعتك سوداء هذه المرة !

صاحت ميريام غير مصدقة :

ـ أنا ؟

ـ يحسن بك أن تذهبى قبل أن تعود امه . أنا أعرف لماذا احرق الملك ألفرد الكعك . ليس أمام الرسول الآن الا أن يختلق حكاية عن اندماجه فى عمله حتى نسى الخبز ، اذا كان يعتقد أنها ستنطلى على أمه . لو كانت تلك العجوز قد بكرت لحظة لضربت الفتيات ، سبب النسيان ، بدلان من أن تضرب الفرد .

نهنهت ضاحكة وهى تكحت الرغيف . حتى ميريام ضحكت بالرغم منها ، بينما بول يضبط نار الفرن مهموما .

سمع صوت بوابة الحديقة تفتح ، فصاحت بياتريس وهى تعطى الرغيف لبول :

ـ اسرع . لفه فى منشفة مبتلة .

اختفى بول داخلا ، بينما نفخت بياتريس بقايا الخبز المحترق فى النار ، وعادت الى مكانها ببراءة . دخلت آنى كالاعصار . رمشت عيناها فى الضوء القوى وصاحت :

ـ رائحة شياط !

اجابت بياتريس بوداعة :

ـ رائحة السجائر .

ـ اين بول ؟

دخل ليونارد فى أعقاب آنى . كان ذا وجه طويل مضحك وعينيين زرقاوين شديدتى الحزن . قال لهما :

ـ أظنه ترك ميدان المعركة لكما لتحسما الامر بينكما .

أومأ برأسه لميريام متلطفا بينما واجه بياتريس بسخرية لاعنف فيها .

قالت بياتريس :

ـ كلا . لقد تركنا وذهب مع نمرة تسعة !

فقال ليونارد :

ـ لقد قابلت نمرة خمسة لتوى . كانت تسأل عنه .

قالت بياتريس :

ـ نعم . سوف نقتسمه فيما بيننا فى النهاية كطفل سليمان الحكيم .

ضحكت آنى .

قال ليونارد :

ـ اى والله ! وأى جزء منه ستأخذين ؟

قالت بياتريس :

ـ لا أدرى . سأدع الاخريات يخترن أولا .

فقال ليونارد وهو يعوج وجهه المضحك :

ـ يعنى ستأخذين الفضلات ، آه ؟

كانت آنى تنظر الى الفرن متفكرة ، وميريام فى مكانها لايعيرها احد التفاتا . ثم دخل بول فبادرته أخته قائلة :

ـ هذا الخبز منظره يشرح القلب يا عزيزنا بول .

قال :

ـ اذن لماذا لاتتكفلين به ؟

أجابت آنى :

ـ آه ! لكى تتفرغ أنت لما بين يديك .

صاحت بياتريس :

ـ تماما ! هذا ما يجب أن يفعله .

قال ليونارد :

ـ ولديه كفايته فيما أرى .

قالت آنى :

ـ لقد تكبدت المشاق لكى تجيئى آلى هنا الليلة يا ميريام ، أليس كذلك ؟

ـ نعم . لكن لم أبرح البيت طوال الاسبوع .

فقال ليونارد بتلميح لايخلو من عطف :

ـ فوجدت نفسك فى حاجة الى شىء من التغيير .

فوافقته آنى الراى قائلة :

ـ تماما . منذا الذى يطيق أن يظل حبيس البيت ؟

بدا واضحا انها تتلطف مع ميريام على غير عادة .

ارتدت بياتريس معطفها وخرجت مع ليونارد وآنى لتقابل فتاها هى الأخرى .

صاحت آنى :

ـ لا تنس ذلك الخبز يا عزيزنا بول . أسعدت مساء يا ميريام . لا اظنها ستمطر الليلة .

عندما انصرفوا جميعهم أحضر بول الرغيف الملفوف فى ضماداته المبللة ، فأخرجه من المنشفة وأخذ يتأمله بحزن قائلا :

ـ لا رجاء فيه !

قالت ميريام بنفاد صبر :

ـ الحقيقة انى لا أفهم هذه الضجة حول رغيف احترق . ماقيمته ؟ بنسان ونصف ؟

ــ نعم . ولكنه ــ خبز أمي ، وهي تعتز به كثيرا ، وسوف يحزنها ما حدث . لكن لا جدوى من التحسر على ما وقع .

اعاد الرغيف الى مكانه خارج المطبخ . كانت هناك مسافة قصيرة بينه وبين ميريام . وقف قبالتها لمدى لحظات متفكرا فى سلوكه مع بياتريس . أحس فى دخيلة نفسه بالذنب ، لكنه لم يندم على ما فعل . أحس أن ميريام قد استحقت ، بطريقة ما ، كل ما فعله بها ، لسبب خفى . فهو لن يندم عليه . عجبت له وقد وقف معلقا أمامها ، متسائلة ترى فيم يفكر ؟ كان شعره الكثيف مهدلا على جبينه . لم لا تزيحه له بيدها فتزيل منه آثار مشط بياتريس ؟ لم لا تضغط جسده كله بين يديها ؟ جسده يبدو متماسكا ، يجيش بالحياة . وهو يدع الفتيات الأخريات يلمسنه ، فلم لا تلمسه هى ؟

فجأة دبت فى أوصاله الحركة . سرت فى جسدها رعدة شارفت حدود الرعب وهو يزيح شعره بيده عن جبينه فى حركة سريعة ويتقدم منها .

قال لها :

ــ الثامنة والنصف ! يحسن أن نسرع . أين كتبك الفرنسية ؟

أخرجت ميريام كراسة دروسها بخجل فيه قدر من مرارة . كانت تكتب له فى تلك الكراسة ، أسبوعا بعد أسبوع . يوميات تستعرض فيها حياتها الداخلية ، بفرنسيتها القاصرة . وجد أن تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تدفعها الى كتابة موضوعات الانشاء . لكن ما كتبته كان فى حقيقته خطاب حب . وهو سيقرأه الآن . أحست كما لو كان سيدنس تاريخ روحها اذ يقرأ ما كتبته وهو فى تلك الحالة النفسية . جلس بجانبها . أخذت ترقب يده الحازمة الدافئة وهى تصحح ما كتبته بلا هوادة . لم يلق بالا الا للغة ، متجاهلا روحها التى كانت فى الكلمات . لكن يده ما لبثت أن انصرفت عن عملها رويدا ، فجلس يقرأ فى صمت ، بغير حراك ، وهى ترتعد ، تتابع الكلمات بعينيها :

« هذا الصباح أيقظتنى الطيور . كان الفجر قد طلع لتوه ، لكن نافذة غرفتى الصغيرة كانت شاحبة ثم اصفرت ثم انطلقت كل طيور الغابة تغرد فى أغنية حية ذات رنين ، اختلج لها الفجر كله . كنت قد حلمت بك . هل ترى الفجر أنت أيضا ؟ ان الطيور توقظنى كل يوم تقريبا ، وهناك دائما شىء من الرعب فى صيحات الدجاج البرى .. »

جلست ميريام واجفة وقد انتابها خزى ، بينما سكن هو تماما ،

محاولا أن يفهم . كان يعرف أنها تحبه . لكنه يخاف حبها . يحس أن ذلك حب أعظم من أن يستحقه ، وأنه قاصر دونه . فالعيب فى حبه هو ، لا فى حبها . ركبه خجل فانصرف يصحح ما كتبته ، يخط بيده ، فى انكسار ، فوق كلماتها .

قال لها بخفوت :

ــ اذكرى هذه القاعدة دائما : اسم المفعول عندما يصرف مع فعل «avoir» يتفق مع المفعول به عندما يكون سابقا .

مالت الى الأمام تحاول أن تفهم . غدائرها السائبة دغدغت وجهه بنعومتها ، فجفل كأنما أحرقه قضيب محمى وانتابته رعدة . رآها منحنية تحدق فى الصفحة وقد افترت شفتاها القرمزيتان تذيبان قلبه شفقه ، والشعر الأسود نابتة خصلاته الناعمة من خدها المتقد خجلا تحت سمرة خفيفة من لفحة الشمس . لونها غنى عميق كلون رمانة ناضجة . تسارعت أنفاسه لاهثة وهو يرقبها . وفجأة رفعت عينيها اليه فنظرته . عيناها داكنتان يعريهما حبها ، خائفتان ، فيهما شوق اليه . عيناه أيضا داكنتان باشتهاء أوجعها . بدت عيناه كما لو كانتا تتسلطان عليها وتخضعانها . فقدت كل سيطرة على نفسها ، وتعرت أمامه من فرط خوف ورغبة . أدرك أنه لن يستطيع أن يقبلها الا اذا طرد من نفسه شيئا . فتسللت لمسة من كره لها الى قلبه ثانية . فاستدار عنها الى الدرس .

وفجأة ألقى بالقلم من يده ، وبقفزة واحدة كان أمام باب الفرن يقلب الخبز . بوغتت بقفزته فجفلت بعنف وأوجعها ألم حقيقى . حتى الطريقة التى أقعى بها أمام الفرن أوجعتها . بدت كل حركة من حركاته متسمة بقسوة آلمتها : قسوة فى تحفز جسده أمام الفرن المفتوح ، فى عنف يديه اذ يقلب الأرغفة من الصاج ويمسك بها . لو ترفق فيما يفعله لأفعمت روحها بالدفء . لكنه أوجعها .

عاد فأتم تصحيح درسها .

قال لها :

ــ احسنت هذا الأسبوع .

ادركت أن ما كتبته فى يومياتها قد تملق غروره . فلم يجزها ذلك باشباع كامل كانت تترقبه .

استطرد قائلا :

ــ أحيانا تتركين العنان لنفسك فتجيدين . يجدر بك أن تكتبى الشعر .

رفعت رأسها فرحة ، لكنها ما لبثت أن هزته متشككة .
ــ لا ثقة لى فى نفسى .
ــ يجب أن تحاولى .
فهزت رأسها ثانية .
سألها قائلا :
ــ هل نقرأ ، أم تأخر الوقت ؟
فقالت وفى صوتها توسل :
ــ تأخر فعلا ــ لكننا نستطيع أن نقرأ قليلا .
فقد كانت ، فى حقيقة أمرها ، تتزود بزاد حياتها ، فى تلك اللحظة ، لأسبوع مقبل بأكمله . جعلها تنسخ قصيدة بودلير « الشرفة » ثم قرأها لها . كان صوته خفيفا ناعما ، يدغدغ حواسها ، لكنه ما لبث أن تسللت اليه فظاظة . كان من دأبه ، عندما تجيش عواطفه ، أن تنفرج شفتاه فتظهر أسنانه علامة انفعال ومرارة ، وقد فعل ذلك وهو يقرأ تلك القصيدة ، حتى أحست ميريام كما لو كان يطأها بقدميه ، فلم تجرؤ على النظر اليه . جلست وقد نكست رأسها ، عاجزة عن فهم ما يدفعه الى ذلك الاصطخاب ويهيجه . كلما رأته على تلك الحال امتلأت تعاسة . لم تكن تحب بودلير عموما ، ولا فيرلين . أبيات كهذه كانت غذاء لقلبها :
« انظرى اذ تغنى فى الحقول » .
« ابنه الأراضى العالية فى وحدتها » .
وكذلك « أنيز الحسناء » و :
« كانت أمسية تحفل بالجمال ، هادئة نقية » ،
« فى أنفاسها سكينة مقدسة كأنفاس راهبة » .
تلك أبيات تعكس ذات نفسها . وها هو يهمهم فى حلقه بمرارة :
« ولسوف تذكرين الجمال الذى تشيعه يدى اذ تتحسسك » .
انتهت القصيدة ، وأخرج الخبز من الفرن ، فرصه فى الماجور ، الأرغفة المحترقة بأسفل ، وفوقها الأرغفة الجيدة لتخفيها . أما الرغيف الذى تشوه فظل ملفوفا فى منشفته خارج المطبخ .
قال لها :
ــ لا حاجة بأمى أن تعرف ما حدث حتى الصباح . فلن يزعجها الأمر اذ ذاك بقدر ما سيزعجها اذا ما اكتشفته ليلا .
ألقت ميريام نظرة على مكتبته ، فتصفحت بعض الكتب ، وما تلقاه من خطابات وبطاقات بريد ، ثم استعارت كتابا أثار اهتمامها . خرجا

بعد ذلك معا ، فترك ضوء الغاز خافتا فى المطبخ ، ولم يعن بأن يوصد الباب وراءه .

لم يعد الا وقد قاربت الساعة الحادية عشرة الا ربعا . وجد امه فى مقعدها الهزاز وآنى جالسة على مقعد منخفض أمام النار ، ضفيرتها على ظهرها ، وجهها بين كفيها ، وقد وضعت مرفقيها على ركبتيها ، فى وجوم ، وعلى المنضدة جسد الجريمة : الرغيف المحترق عاريا بغير منشفته . دخل بول وقد كادت أنفاسه تتقطع . لم يتكلم احد . كانت أمه تقرأ الصحيفة المحلية الصغيرة . خلع معطفه وذهب يجلس على الأريكة . تحركت أمه بجفاء لتفسح له حتى يمر أمامها . لم يتكلم أحد . انتابه حرج بالغ . جلس لبضع دقائق متظاهرا بالاستغراق فى قراءة قصاصة ورق وجدها على المنضدة . ثم :

ــ لقد نسيت هذا الخبز فى الفرن يا أمى .

لم يتلق جوابا من أى من المراتين . فقال :

ــ ما ثمن هذا الرغيف ؟ بنسان ونصف بنس ؟ سأدفع لك ثمنه.

لأنه كان غاضبا وضع النقود على المنضدة ودفعها بيده تجاه أمه . فأشاحت عنه ، وقد زمت شفتيها .

قالت آنى :

ــ طبعا . انت لا تعرف كم هى مريضة .

جلست الفتاة تحدق فى النار بكآبة .

سأل بول وما زال الغضب ينطق فى صوته :

ــ سلامتها . مالها ؟

قالت آنى :

ــ ابدا ! فقط كادت أن تعجز عن العودة الى المنزل .

أمعن النظر فى وجه أمه . بدت مريضة فعلا .

سألها وما زالت الحدة فى صوته :

ــ كيف حدث لك ذلك ؟

فلم تعن بالرد عليه .

قالت آنى وصوتها ينبىء عن أنها توشك أن تجهش باكية :

ــ جئت فوجدتها جالسة هنا وحدها وقد غاض اللون من وجهها .

فقال بول باصرار وقد قطب حاجبيه واتسعت عيناه غضبا :

ــ فهمنا . ولكن لماذا ؟

هنا نطقت مسز مورل ، فقالت :

ــ ما حدث لى لا يطيقه احــد . جئت حاملة كل تلك الاشــياء ،

اللحم ، والخضر ، وستارتين ــ
ــ اما والله ! ومن قال لك أن تفعلى ذلك ؟ لم تكن بك حاجة الى حملها .
ــ ومن كان سيحملها ؟
ــ دعى آنى تحضر اللحم .
ــ نعم . أنا على استعداد لأن أحضر اللحم ، لكن من أين كان لى ان أعرف ؟ سيادتك خرجت مع ميريام بدلا من أن تكون فى انتظار امك عندما تعود .
سأل بول امه :
ــ وما الذى احسست به ؟
اجابته قائلة :
ــ أظنه قلبى .
كانت بالفعل يحيط بفمها لون ضارب الى الزرقة .
ــ وهل شعرت بذلك من قبل ؟
ــ نعم ــ مرات عديدة .
ــ اذن لماذا لم تخبرينى ؟ ولم لم تذهبى الى الطبيب ؟
تململت مسز مورل فى مقعدها وقد أحنقها توبيخه لها .
قالت له آنى :
ــ وهل أنت لديك وقت لتلقى بالا الى اى شىء ؟ كل وقتك تضيعه مع ميريام .
ــ حقا ؟ وانت ؟ لا تخرجين مع ليونارد ؟
ــ أنا عدت فى العاشرة الا ربعا .
ساد الصمت لحظة ، ثم قالت مسز مورل بمرارة :
ــ لم أكن أتصور أن تلهيك تلك الفتاة عن كل شىء حتى تترك كل ما فى الفرن من خبيز يحترق .
ــ كانت بياتريس هنا هى الأخرى .
ــ ربما . لكننا نعرف لم احترق الخبز .
صاح محتدا :
ــ لم ؟
فأجابت مسز مورل بانفعال بالغ :
ــ لأنك كنت غارقا الى اذنيك مع ميريام .
قال غاضبا :
ــ كذا ؟ كما ترين . لكن ذلك لم يحدث .
انتابته تعاسة وضاقت به السبل . اختطف الصحيفة وأخذ يقرأ .

انصرفت آنى وقد حلت أزرار بلوزتها ، وضفيرتها على ظهرها ، ذاهبة الى الفراش ، بعد أن ألقت اليه تحية المساء مقتضبة جافية .

جلس بول متظاهرا بالقراءة ، وهو مدرك أن أمه تريد أن تعنفه . كان هو الآخر يريد أن يقف على سبب ما ألم بها ، فقد أثارت خوفه . ولذلك فانه بدلا من أن يهرب الى فراشه كما كان يريد أن يفعل ، جلس منتظرا أن تبدأ . ساد بينهمـــا صمت متوتر ، ودقات الساعة تتتابع عالية .

أخيرا قالت أمه بخشونة :

ــ يحسن أن تصعد لتنام قبل أن يجيء أبوك . واذا كنت تريد أن تأكل ، فعليك أن تعد عشاءك بنفسك .

ــ لا أريد شيئا .

كانت قد اعتادت أن تقدم له مساء كل جمعة صنفا خاصا تعده له ، كضرب من الترف فى تلك الليلة التى تنعم فيها بيوت عمال المنـــاجم بشيء من البذخ . لكن الغضب منعه من أن يذهب ليبحث عما أعدته له . فأحست أنها أهينت .

قالت له :

ــ لو طلبت منك أن تذهب الى سيلبى فى ليلة الجمعة لاقمت الدنيا واقعدتها . أما هى فأنت لا تتأخر ابدا عن الخروج معها كلما جاءت فى طلبك مهما كنت متعبا . بل وتضحى بكل طعام وشراب فى سبيلها .

ــ لا أستطيع أن أدعها تذهب وحدها .

ــ لا تستطيع حقا ؟ وما الذى يأتى بها ؟

ــ أنا لا أطلب منها ذلك .

ــ لا يمكن أن تتردد عليك الا اذا كنت تريدها .

ــ وأى ذنب فى ذلك ؟

ــ لا شيء طبعا اذا كان الأمر معقولا لا شطط فيه . لكن أن تذهب معها فتتقطع أنفاسك ميلا بعد ميل فى الوحل الذى يملأ الطريق ، لتعود فى منتصف الليل بينما يجب عليك أن تستيقظ مبكرا لتذهب الى عملك فى نوتينجهام .

ــ أنت تعلمين أن ذلك ليس هو السبب . فحتى لو لم أتأخر لما تغير فى الأمر شيء بالنسبة اليك .

ــ تماما . لأن الأمر لا عقل فيه . هل هى ساحرة الى هذا الحد حتى تجرك وراءها كل تلك المسافة ؟

نطق صوتها بسخرية مرة . جلست ســـاكنة ، مشيحة بوجهها

عنه ، تتحسس قماش مئزرها بحركة عصبية رتيبة آلة أن يراها ٠
قال لأمه :
ـ أنا استلطفها فعلا ٠ لكن ٠٠
قالت مسز مورل بنفس النبرة المريرة :
ـ تستلطفها ! يبدو لى انك لم تعد تحس بوجود اى شىء أو أى انسان غيرها . لا آنى ، ولا أنا ، ولا أى انسان آخر . لم يعد هناك غيرها .
ـ أى هراء يا أمى ـ أنت تعرفين أنى لا أحبها ـ أؤكد لك انى ـ انى لا أحبها ٠ انها لا تفعل ما يفعله المحبون ، فتتأبط ذراعى ونحن نسير معا ، لأنى لا أريدها أن تفعل ذلك ٠
ـ اذن ما الذى يجعلك تطير اليها هكذا يوما بعد يوم ؟
ـ يروق لى أن أتحدث اليها ـ لم أقل أبدا أنى لا أحب ذلك . لكنى لا أحبها .
ـ ليس هناك انسان آخر تتحدث اليه ؟
ـ ليس عن نفس الأشياء التى نتحدث عنها أنا وهى . هناك أشياء كثيرة لا تثير اهتمامك ، أشياء ٠٠٠
ـ أية أشياء ؟
احتدت مسز مورل حتى أخذ ابنها يلهث .
ـ أشياء ٠٠ كالتصوير ٠٠ والكتب . أنت مثلا لا تهتمين بهربرت سبنسر ٠
فكان ردها المحزن :
ـ كلا . وأنت لن تهتم به ، عندما تصبح فى مثل سنى ٠٠
ـ قد يكون ذلك . لكنى أهتم به الآن ٠ وميريام تهتم به ٠٠٠
قالت مسز مورل متحدية :
ـ ومن أين لك أن تعرف ان كنت سأهتم به أم لا ؟ هل جربتنى أبدا ؟
ـ لكنك لا تهتمين يا أماه . أنت تعرفين أنك لا تهتمين ان كانت اللوحة زخرفية أو لم تكن ٠ لا تهتمين بالأسلوب الذى ٠٠٠
ـ ما أدراك أنى لا أهتم ؟ هل فكرت فى أن تسألنى أبدا ؟ هل حدثتنى عن هذه الأشياء أبدا ؟ هل حاولت ؟
ـ لكن هذه أشياء لا وزن لها لديك يا أماه . ليست الأشياء التى تهمك . أنت تعرفين ذلك .
ـ أى شىء اذن ـ أى شىء اذن هو الذى يهمنى ؟

انطلق السؤال من فمها بحدة آلمته ، فقطب حاجبيه ضيقا .
ــ أنت عجوز يا أماه . ونحن فى مقتبل العمر .
لم يعن بقوله الا أن اهتمامات سنها تختلف عن اهتمامات سنه . لكنه أدرك بمجرد أن خرجت الكلمات من فمه أنه قد أخطأ القول .
ــ نعم ، أنا أعرف ذلك جيدا ــ أنا عجوز . لذلك يجب أن أتنحى جانبا . لم يعد لى دخل فى حياتك . أنت لا تريد منى الا أن أخدمك ــ أما الباقى فكله لميريام .
أبهظه الأمر فلم يطقه . أدرك بالفريزة أنه الحياة ذاتها بالنسبة اليها . وهى ، بعد كل شىء ، أهم ما فى حياته ، الشىء الوحيد الأسمى .
ــ أنت تعرفين أن الأمر ليس كذلك يا أماه . تعرفين أنه ليس كذلك .
تحركت الشفقة فى قلبها لصيحته . قالت وهى تجتهد فى أن تنحى يأسها جانبا :
ــ لكن يبدو أنه كذلك الى حد كبير .
ــ كلا يا أماه .. صدقينى انى لا أحبها . أنا أتحدث اليها ، لكنى أريد دائما أن أعود اليك .
كان قد خلع ياقته ورباط عنقه ، فهم واقفا ، ليذهب الى فراشه . انحنى ليقبل امه ، فطوقت عنقه بذراعيها ، وخبأت وجهها فى كتفه وهى تبكى ، تنهنه كطفلة صغيرة . أذهله ذلك التغير المباغت فيها حتى ذاب قلبه فى صدره عذابا لها وله :
ــ لا أطيق يابنى .. لا أطيق . قد أدع امرأة أخرى .. لكن ليس ميريام . انها لن تدع لى مكانا .. لن تدع أى مكان مهما صغر ..
ولفوره فاضت بقلبه كراهية مريرة لميريام .
ــ وأنا لم يكن لى أبدا .. انت تعرف يابول .. لم يكن لى زوج .. زوج حقيقى ...
وقف يمسح بيده على شعر أمه ، وفمه على عنقها .
ــ وهى تتهلل اذ تأخذك منى .. ليست كسائر الفتيات .
غمغم وهو يطأطىء رأسه فيخفى عينيه فى كتفها من فرط تعاسة .
قبلته أمه قبلة طويلة حارة ، قالت بصوت يرتعد بحب جارف مشبوب :
ــ ابنى !
دون أن يدرى تحسس وجهها برقة .
قالت أمه :

ـ يكفى هذا . اذهب لتنام الآن . ستكون متعبا فى الصباح .
بينما هى تتكلم سمعت وقع قدمى زوجها خارج الدار ، فقالت له :
ـ ها قد جاء أبوك . اذهب الآن .
وفجأة نظرت اليه وكأنما قد تملكها خوف :
ـ لعلنى أنانية . اذا كنت تريدها فخذها يا ابنى .
بدت أمه فى حالة غريبة حتى قبلها وهو يرتجف .
قال لها بخفوت :
ـ أمى !
دخل مورل مترنحا وقبعته مائلة على عين من عينيه . وقف يتساند فى اطار الباب .
قال بصوت ملؤه مقت وزراية :
ـ عدت لألاعيبك ثانية ؟
انقلبت عاطفة مسز مورل بغتة الى كراهية مفاجئة لذلك السكير الذى فاجأها هكذا .
ـ أنا ، على أية حال ، لست مخمورة .
قال بزراية وهو يتجه الى حيث يعلق قبعته ومعطفه :
ـ ها ! ها !
سمعاه يهبط الدرجات الثلاث المؤدية الى السكرار ، ثم عاد بعد لحظة وفى قبضته قطعة من فطير بلحم الخنزير . كانت تلك الفطيرة هى ما اشترته مسز مورل لابنها .
ـ وهذه الفطيرة ليست لك . ان كنت لا تستطيع أن تعطينى الا خمسة وعشرين شلنا فى الأسبوع ، فانى لن أشترى لك الفطائر لتكظ بها نفسك بعد أن تملأ كرشك بالجعة !
كشر مورل عن أنيابه مزمجرا وهو يوشك أن يفقد توازنه :
ـ ماذا ؟ ما . . . ذا ؟ ماذا ؟ ليست لى .
نظر الى قطعة اللحم والفطير التى فى يده ثم ، فجأة ، فى فورة من الغضب والشر ، ألقى بها فى نار المدفأة .
هم بول واقفا وهو يصيح :
ـ يمكنك أن تلقى فى النار بما تشتريه بمالك لا بمال الآخرين .
ـ جأر مورل فجأة وهو يطبق قبضتيه متهيأ للقتال :
ـ نعم ؟ نعم ؟ سأريك أيها الوقح الصغير .
قال بول ، وقد ركبه الشر ، وهو يميل رأسه الى جانب :

ـ عال ! تعال أرنى !

ود فى تلك اللحظة ، من كل روحه ، لو نفث غضبه ضربا فى شيء أو أحد . كان مورل قد ثنى ركبتيه ، رافعا قبضتيه ، مستعدا للنزال ، بينما وقف ابنه مبتسما بشفتيه .

أخرج الأب صوتا كالفحيح وهو يطوح ذراعه فى لطمة عنيفة مرت أمام وجه ابنه . لم يكن ليجرؤ ، فى حقيقة الأمر ، رغم قربه الشديد من الفتى ، أن يلمسه بيده ، فجعل يده تنحرف عمدا ، بمقدار بوصة ، فى اللحظة الأخيرة .

قال بول وعيناه على ركن فم أبيه حيث أوشكت قبضته أن تكيل لكمة .

ـ كذا ؟ طيب !

كان يتحرق شوقا الى تلك اللكمة . لكنه سمع أنة خافتة وراءه فالتفت ليرى أمه شاحبة شحوب الاموات وقد اسودت شفتاها . كان مورل يتواثب ليكيل ضربة أخرى ، فصاح الفتى بصوت مدو :

ـ أبى !

جفل مورل ووقف متحفزا .

توجع بول مرددا :

ـ أمى ، أمى !

كانت تناضل لتحتفظ بوعيها . عيناها المفتوحتان كانتا ترقبانه رغم أنها لا تستطيع حراكا . رويدا بدأت تعود الى كامل وعيها . أرقدها على الأريكة ثم صعد الى الطابق العلوى جريا ليحضر بعض الويسكى . استطاع أن يجعلها ترشفه أخيرا . كانت الدموع تسح على وجهه . ركع أمامها بغير صوت ، دون أن تنقطع دموعه ، بينما جلس مورل فى الركن الآخر من الغرفة واضعا مرفقيه على ركبتيه محدقا فيهما بعينين محموتين . سأل ابنه أخيرا :

ـ ماذا بها ؟

اجاب بول :

ـ اغماء .

ـ همم !

بدأ الرجل يحل رباط حذائه ، ثم ذهب متعثرا الى فراشه . كان قد اشتبك فى عراكه الاخير فى ذلك البيت . ظل بول راكعا فى مكانه يتحسس يد أمه ، مرددا :

ـ لا تمرضى يا أماه .. لا تمرضى !

غمغمت :

ــ ليس الأمر خطيرا يا بنى .

نهض أخيرا فأحضر قطعة كبيرة من الفحم ألقى بها فى المدفأة ، وقلب النار ، ثم رتب الغرفة ، فوضع كل شىء فى مكانه ، وأعد أشياء الافطار ، وأحضر شمعة أمه .

ــ أتستطيعين الذهاب الى الفراش يا أمى ؟

ــ نعم ، سآتى معك .

ــ نامى مع آنى يا أماه ، وليس معه .

ــ كلا . سأنام فى فراشى .

ــ لا تنامى معه يا أمى .

نهضت من الاريكة ، فاطفأ ضوء الفاز وتبعها ــ عن قرب ــ وهى تصعد الدرج ، حاملا الشمعة . قبلها على البسطة بقوة قائلا :

ــ ليلة سعيدة يا أمى .

ــ ليلة سعيدة .

دفن وجهه فى الوسادة وقد فاض به الشقاء . ومع ذلك فانه ، فى مكان ما من روحه ، كان فى سلام مع نفسه لأنه ما زال يحب أمه أكثر من أى انسان آخر . كانت تلك سكينة الاستسلام المريرة .

أحس اذلالا ثقيلا لمحاولات الصلح التى قام بها أبوه فى اليوم التالى . حاول الجميع أن ينسوا ما حدث .

الفصل الثالث

هزيمة ميريام

انتاب بول شعورا من عدم الرضى عن نفسه وعن كل شي في حياته. فحبه الأعمق يخص أمه وحدها . وهو لا يطيق أن يحس أنه قد أساء اليها أو آذى حبه لها . والآن قد جاء الربيع ، فاستعرت المعركة بينه وبين ميريام من جديد . لكنها ، هذا العام ، معركة أشد ضراوة ، اذ ازدادت نقمته عليها . وهو ما أحسته الفتاة بطريقة مبهمة . فذلك الشعور القديم الذى طالما راودها وهي تصلى بأنها ستكون ضحية لذلك الحب الذي بات يمتزج بكل عواطفها . فهي في قرارة نفسها غير قادرة على أن تصدق أنه سيكون لها أبدا . وهي ، ابتداء ، لا ثقة لها في نفسها : يخامرها شك دائم في أنها ستتمكن من أن تكون المرأة التى يريدها هو . أما ما هي موقنة منه فانها لن تعرف للسعادة طعما في حياة تقضيها معه . تلك حياة لا ترى فيها الا المأساة ، والحزن ، والتضحية ، بغير انقطاع . لكن ذلك لا يصدها عنه . لأن روحها تقتات على التضحية وتزهو بها ، وتستمد قوتها من التنكر للسعادة . لأنها انسانة لا تطيق رثاثة الحياة اليومية الدارجة ، ولا تطلب من الحياة الا الاشياء الكبيرة ، العميقة ، كالمأساة . أما ذلك الاكتفاء بالعيش الذى تهبه الحياة اليومية الصغيرة لأصحابها ، فهو مالا ثقة لها فيه .

بدأت عطلة عيد الفصح سعيدة . كان بول على سجيته معها . لكنها احست أن تلك حال لن تدوم . وقفت الى نافذة مخدعها في أصيل يوم الأحد تنظر عبر الفناء الى أشجار البلوط التى تلبدت في اغصانها أشعة غسق تحت سماء الاصيل الصافية . أمام النافذة تتدلى أوراق رمادية ــ خضراء ، براعم صغيرة . انه الربيع الذى تحبه ويروعها مقدمه ، قد أقبل .

توتر جسدها وصوت البوابة الحديدية يصك سمعها . كان اليوم مضيئا بنور رمادى . رأت بول يسير في الفناء ودراجته تلتمع بجانبه . كان من دأبه أن يقرع جرس الدراجة وتسبقه الى البيت ضحكته . لكنه اليوم يخطو جهما ، مزموم الشفتين ، ترتسم القسوة والبرود على وجهه ، ونذر شر في ملامحه وانحناءة جسده . كانت قد باتت تعرفه جيدا ، وتستطيع أن تتكهن بما يدور في دخيلة نفسه بمجرد النظر الى

جسده الفتى المتباعد ذاك الذى ينطق بحدة يكبح جماحها . رأته يضع دراجته فى مكانها بروية تنطق بالبرود ، فغاص قلبها بين جنبيها .

نزلت الى الطابق الأرضى وقد انتابها قلق وتوتر . كانت ترتدى بلوزة من الدانتلا بدت لها غاية فى الاناقة ، ذات ياقة عالية فيهـــا كشكشة ذكرتها بمارى ملكة اسكتلندا ، تصورت أنها تبرز أنوثتها وفى الوقت ذاته تحفظ عليها وقارها . أما وجهها فما زال أشبه بقناع ناعم غنى باللون ، لكنه لا يتغير ولا يفصح . أما عيناها ، اذ ترفعهما، فرائعتان . أحست بالخوف منه . سوف يلحظ بلوزتها الجديدة .

وجدته متصدرا المائدة ، تنطق هيئته بحرونة ورغبة فى أن يطاول أحدا بسخريته وتهكمه ، مستغرقا فى وصف صـــلاة فى كنيســة « الميثوديست البدائيين » (١) أقامها واعظ معروف من أهل تلك الشيعة الدينية . رأت وجهه المعبر ، بعينيه اللتين تستطيعان أن تكونا جميلتين مفعمتين بالرقة وأن تتراقصا بالضحك ، يتقلب من تعبير الى آخر فى معرض محاكاته لمن كان يتهكم عليهم . لطالما أوجعها تهكمه . فهو أقرب ما يكون الى الواقع دائما . لكن براعته تلك كانت تصمه بالقسوة فى عينيها ، وتخيفها . فهى تدرك ، عندما ترى تلك النظرة الصلبة المتهكمة فى عينيه ، أنه لن يرحم أحدا ولن يرحم نفسه . لكن مسز ليفرز كانت تمسح دموع الضحك من عينيها ، ومستر ليفرز ، وقد صحا لتوه من اغفاءة ظهر الأحد ، كان يهرش رأسه استمتاعا بذلك العرض الذى يقدمه ضيفه ، بينما جلس الأخوة الثلاثة مشعثين، لم يبرح النوم عيونهم بعد ، يقهقهون بين الحين والحين . فالأسرة كلها تستمتع بمثل هذا العرض استمتاعا لا حدود له .

لم يلق أدنى بال الى ميريام . وقد رأته فيما بعد يلحظ بلوزتها ، ورأت الفنان فيه يومىء برأسه اعجابا ، لكنها لم تحس منه ، كانسان ، بومضة دفء ، فازداد اضطرابها حتى كادت أن تعجز عن احضار فناجين الشاى من فوق الأرفف .

عندما ذهب أبوها واخوتها ليحلبوا الابقار ، تجرأت على مخاطبته فقالت له :

ــ لقد تأخرت .

ــ حقا ؟

---

(١) Primitive nethodisto شيعة دينية من اتباع جون وسلى (John Wesley) وواتيفيلد (Whitefiela)

ساد الصمت لمدى لحظة ، ثم عادت تقول :
ـ كان الطريق وعرا ؟
ـ لم الحظ ذلك .
تسارعت حركاتها وهى تعد المائدة ، عندما انتهت من عملها قالت له :
ـ لن يعودوا لتوهم .. لتناول الشاى . هل تحب أن تأتى الى الحديقة معى ؟
هم واقفا دون أن يقول شيئا . خرجا معا الى الحديقة الخلفية تحت أشجار البرقوق المزهرة . التلال والسماء كانت نظيفة باردة . كل ما حولهما بدا كما لو كان قد غسل بماء مثلوج حتى تصلب . رمقته بنظرة جانبية سريعة . كان شاحبا لا يبدو عليه أنه يحس شيئا . أحست أنه من القسوة أن تكون عيناه اللتان تحبهما قادرتين على الايلام هكذا .
سألته وقد أحست بكلال خبىء فيه ، تحت السطح المتهكم القاسى :
ـ هل أتعبتك الريح ؟
فأجابها :
ـ كلا . لا اظن ذلك .
ـ لابد أن الرحلة شاقة ، انصت الى الغابة تتوجع من وطأة الريح .
ـ تستطيعين أن تدركى من النظر الى السحب أنها ريح جنوبية غربية ، فهى تساعدنى فى رحلتى .
غمغمت قائلة :
ـ أنا لا أركب الدراجة كما تعلم . لذلك لا أفهم هذه الأشياء .
ـ وهل من الضرورى أن يركب المرء الدراجة ليدرك بديهية كهذه ؟
بدت لها سخريته فى غير موضعها ، وليس مايدعو اليها . سارا قدما وقد خيم عليهما الصمت . كانت الأرض كثيفة العشب وراء البيت يحيط بها سياج من الشوك تطل منه زهور قد اخضرت وجناتها من لذعة البرد ، لكن بعضها قد انبثق ذهبه متوهجا . ركعت ميريام فجمعت باقة بين يديها رفعت وجهها الذهبى اليها ، ثم انحنت تتحسسها بفمها ، وخديها ، وجبينها . وقف جانبا يرقبها ، واضعا يديه فى جنبيه ، وهى ترفع اليه وجوه الازاهر الصفراء مستجدية .
غمغمت :

ـ أليست رائعة ؟
ـ رائعة ! هذه مبالغة ! قولي أنها جميلة .
انحنت على زهورها ثانية وقد آلمها توبيخه . أخذ يرقبها وهي مقعية ترشف جمال الزهور بقبلات سريعة حارة . قال محنقا :
ـ لم يجب أن تتحسسي كل شيء بشراهة هكذا ؟
اجابته وقد آلمها قوله :
ـ لكني احب أن ألمسها .
ـ ألا يمكنك أن تحبي الأشياء دون ان تعملي أصابعك فيها كما لو كنت تريدين أن تنتزعي قلوبها ؟ لم لا تتحكمين في مشاعرك قليلا ، أو تتحفظين ، أو اى شيء ؟
رفعت عينيهـــا اليه وقد فاض بها الالم ، ثم عادت تتحسس بشفتيها زهرة أوشكت أن تذبل في يدها . بدا لها عبق الزهور وهي تملأ صدرها به أكثر رفقا ورحمة منه ، حتى أوشكت أن تبكي .
قال لها :
ـ أنت تستدرجين الأشياء الى أن تسلمك روحها . أنا بالأقل لا استدرج شيئا ، بل اذهب الى غايتي راسا ، بغير خداع .
لم يكن في حقيقة أمره يدري ما كان قائله . فتلك كلمات كان يجدها على شفتيه تلقائيا . نظرت اليه ، وكأنما جسده سلاح صلب ، باتر ، موجه اليها .
عاد يقول :
ـ أنت دائما تستجدين الأشياء أن تحبك . كما لو كنت شحاذة تتسول الحب . حتى الزهور تتذللين اليها ..
وقفت ميريام تتمايل بايقاع رتيب ، تمسح على الزهرة بفمهـــا ، تتنسم عبقها فيرتعد جسدها نشوة اذ ينفذ الى أنفها :
ـ أنت لا تريدين أن تحبي ـ فيك اشتهاء ابدى وغير سوى ، كجوع لا يشبع ، لأن يحبك أحد . أنت لست ايجـابية ، بل سلبية . أنت تتشربين ، تتشربين ، كأنما تريدين أن تملئي نفسك بالحب . لان فيك نقصا في مكان ما .
اذهلتها قسوته حتى لم تعد تسمع . لكنه لم تكن لديه ادنى فكرة عما كان قائله . فكأنما روحه المضناة المعـذبة قد صهرها اشتهاؤه المحبط فاندفعت منها تلك الاقوال كشرارات من كهرباء . ولم تع هي اى شيء مما قال ، بل ظلت مقعية تحت سياط قســوته وكراهيته لها . فهي لم تكن تدرك الاشياء خطفا . بل تجترها وتتفكر فيها على

مهل بطريقتها المهمومة المكتئبة .

بعد تناول الشاى انصرف عنها تماما الى ادجار والأخوين الآخرين غير ملق اليها بالا ، فانتظرته صابرة وقد ملأتها التعاسة فى هذه العطلة التى ترقبتها طويلا . اخيرا تعطف فأظهر بعض اللين وجاء اليها . كانت قد عقدت العزم على ان تتعقب ذلك المزاج الجديد الذى تسلط عليه الى منشأه . فهى لم تعتبر تلك الغمة فى علاقتهما الا نزوة طارئة من جانبه .

سألته وهى تعلم أنه لا يرفض طلبا مباشرا :

ـ هل تحب أن نسير فى الغابة قليلا ؟

ذهبا الى المنطقة التى تسكنها الأرانب فى الغابة . فى الدرب الوسطى مرا بفخ على هيئة حدوة حصان ضيقة من أغصان الصنوبر فى وسطها طعم من أمعاء ارنب . رمق بول الفخ عابسا ، فرأت نظرته وقالت :

ـ هذا فظيع ، أليس كذلك ؟

ـ لا أدرى ! انه لاصطياد ابن عرس . فهل هو أسوأ من اصطياد ابن عرس للأرانب ؟ ابن عرس واحد أم أرانب كثيرة ؟ يجب أن يموت هذا أو يموت ذاك .

احست انه يأخذ حقائق الحياة بمرارة ، فحزنت لأجله .

قال لها :

ـ الأفضل أن نعود الى البيت . لا أريد أن أسير فى هذا الخلاء .

مرا فى طريق عودتهما بشجرة الليلاك وقد بدأت براعمها البرونزية تتفتح . لم يكن قد تبقى من كوم الدريس الا أقله : شىء أشبه بنصب مربع داكن كعامود من حجارة . قالت له ميريام :

ـ دعنا نجلس هنا لحظة .

جلس على غير رغبة، مسندا ظهره الى جدار الدريس الصلب . أمامهما كان مدرج التلال الدائرية يتوهج بضوء الغروب ، وعلى البعد تتراءى المزارع متناثرة صغيرة ، تحف بها مروج ذهبية ، وغابات معتمة لكنها تضىء ، تنثنى قمم الأشجار فوق قمم الأشجار ، جلية على البعد خطوطها . صفا المساء ، والشرق أمسى رفيقا وقد تضرج بلون قرمزى انبسطت الأرض تحته ساكنة غنية بوعود مبهمة .

قالت كأنما تستجديه :

ـ أليس المنظر جميلا ؟

لكنها لم تتلق منه جوابا الا العبوس . فنفسه لم تكن تطلب جمالا فى تلك اللحظة بل قبحا وجهامة .

فجأة اقبل كلب ضخم يعدو نحوهما ، فاغر الفكين ، فقفز واضعا كفيه على كتفي بول وأخذ يلعق وجهه . تراجع الفتى تحت هجمة صاحبه ضاحكا : وقد احس ان الكلب انقذه من لحظـــة ثقيلة . دفعه جانبا ، لكن الكلب عاود هجمته ولسانه يعمل فى وجه صديقه.

قال بول :

ـ كفى ! اذهب عنى ، والا ضربتك .

لكن الكلب لم يكن ليسمح له بأن يبعده عنه بتلك السهولة . وهكذا دارت بينهما معركة صغيرة ، جن الكلب لها جذلا ، والفتى يطوحه بعيدا عنه فيعود اليه اكثر اصرارا على اللعب . استمرت معركتهما ، والفتى يضحك رغما عنه ، بينما الكلب ينطق وجهه بسعادته التى لا تحد . وقفت ميريام ترقبهما وقد أثار بول شفقة فى قلبها . أدركت كم يود من كل قلبه أن يحب وأن يعطى الحنان ويأخذه ، فخشونته فى القاء الكلب بعيدا عنه كانت فى حقيقتها حبا . قام الكلب بيل من سقطته الأخيرة وهو يلهث منتشيا ، وعيناه البنيتان تدوران فى وجهه الأبيض ، فاندفع نحو صاحبه من جديد . قطب بول حاجبيه قائلا :

ـ بيل ! اذهب عنى . فقد ضقت بك .

لكن الكلب وقف مكانه واضعا كفين ثقيلتين ، ترتعدان حبا ، على فخذ الفتى ، ولسانه الأحمر متأهب لأن يلعق وجه صديقه من جديد . تراجع بول قائلا :

ـ كلا . كلا ـ لقد اكتفيت .

بعد لحظة انطلق الكلب يعدو بعيدا عنهما ، بحثا عن ملهاة جديدة ، تاركا بول وراءه يحدق بتعاسة فى التلال التى أنكر عليها جمالها الحافل بالسكينة . كان يريد أن يذهب الى جولة بالدراجة مع ادجار ، لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة على أن يترك ميريام .

سألته الفتاة بذلة :

ـ لماذا انت حزين ؟

فأجابها قائلا :

ـ لست حزينا . ولم اكون ؟ انا فى حالة طبيعية تماما .

عجبت له اذ يدعى انه فى حالة طبيعية كلما كان بغيضا . سألته مستعطفة ، تحاول أن تهدىء من ثائرته التى لم تدرك لها سببا :

ـ لكن ما الذى حدث ؟

ـ لا شىء !

غمغمت قائلة :
ـ لا !
التقط عصا أخذ يطعن الأرض بها ، قائلا لها :
ـ يحسن بك أن تكفى عن الكلام .
ـ لكننى أريد أن أعرف .
ضحك محنقا وهو يقاطعها قائلا :
ـ طبعا ! هذا دأبك .
غمغمت قائلة :
ـ أنت تظلمنى .
ظل يطعن الارض بلا انقطاع بعصاه المدببة ، ينتزع كتلا من الطين وكأنما قد انتابته حمى من الضيق والحنق ، حتى وضعت يدها برفق وحزم على رسغه قائلة :
ـ كف عن هذا . ضع هذه العصا جانبا .
طوح بالعصى بين الشجيرات ، ومال يستند بظهره الى الدريس ، وقد انغلق الآن على نفسه تماما .
توسلت اليه بصوت خافت :
ـ ماذا حدث ؟
همد فى مكانه بغير حراك . عيناه وحدهما كانت فيهما حياة ، لكنهما تطفحان بالعذاب .
قال أخيرا بكلال :
ـ أنت تعرفين .. تعرفين .. يحسن بنا أن نضع حدا لعلاقتنا .
كان ذلك ماتخشاه . سرعان ما أظلم كل شىء فى عينيها .
غمغمت :
ـ لم ؟ ما الذى حدث ؟
ـ لم يحدث شىء . كل ماق الأمر أننا ندرك حقيقـــة الأمر . لا جدوى من الاستمرار فى هذه العلاقة .
انتظرت فى صمت ، محزونة ، صابرة . أدركت أن نفاذ الصبر لن يجدى معه . وهو ، على أية حال ، سيفضى اليها بما يحز فى نفسه .
استطرد بصوت متبلد رتيب :
ـ لقد اتفقنا على الصداقة . كم من مرة اتفقنا على أن ما بيننـا ليس الا صداقة ! ومع ذلك فان علاقتنا لاتقف عند هـذا الحـد ، ولا تصل الى أى شىء آخر .
سكت ثانية ، واستغرقت هى فى تفكيرها المهموم . ترى ما الذى

يعنيه ؟ كم هو متعب . هناك شيء لا يريد أن يسلمه لها . لكنها يجب أن تتذرع بالصبر معه .

عاد يقول :

ـ ليس لدى ما أمنحه الا الصداقة .. ذلك كل ما أقدر عليه .. هذا عيب كامن فى تكوينى . وهذا الذى بيننا ... تميل كفته فى جانب شيء آخر ، وأنا أمقت ذلك الميـل فى ميزان علاقتنا . دعينا نضـع الآن حدا للأمر .

عباراته الأخيرة شاع فيها دفء من غضب عارم . فهو يعنى أنهـا تحبه أكثر مما يحبها . لعله غير قادر على أن يحبها . ولعلهـا هى مفتقرة الى ذلك الشيء الذى يبحث عنه . كان ذلك اعمق مايحـرك روحها : هذا التشكك فى النفس . وهو من العمق بحيث لا تقـوى على ادراكه أو الاعتراف به . لعلها معيبة . ذلك الشك ، كعار مستكن فى النفس بغير نهاية ، جعلها تتقاعس دائما . ان كان الأمر كذلك ، فانها تستطيع الاستغناء عنه . تستطيع أن تمنع نفسها من أن ترغب فيه . لكنها يجب أن تقف على جلية الأمر أولا .

قالت :

ـ لكن ما الذى حدث ؟

ـ لا شيء .. الامر كله كامن فى نفسى .. كل ماهنالك أنه لم يظهر الا الان .. ثم تنس اننا نكون دائما هكذا كلما اقترب عيد الفصح!

كان يتخبط مستيئسـا ، حتى راودتها شفقة عليه . هى بالأقل لاتتخبط بهذه الطريقة المزرية . وهو ، بدلا من أن يمسها فى كرامتها ، قد انتهى الى أن أمسى هو المذل المهان .

سألته بهدوء :

ـ ما الذى تريده بالضبط ؟

ـ أبدا .. لا شيء .. فقط يجب ألا أتردد على بيتكم كثيرا .. هذا كل مافى الامر . ولم يجب أن أحتكر كل وقتك بينما أنا لا .. اريد أن أقول لك اننى معيب فى شيء ما ، فيما يخصك ..

هاهو يصارحها بأنه لا يحبها ، وأنه ، لذلك ، يجب أن يتيح لهـا الفرصة لتجرب حظها مع رجل آخر . ياله من أحمق ، أعمى ، فج وخائب ! أى قيمة لرجل آخر بالنسبة اليها ! أى قيمة للرجال جميعا لديها ! أما هو . هو . أنها تحب روحه . لكن هل هو معيب فى شيء ما حقا ؟ لعله كذلك .

قالت بصوت تخنقه العبرات :

ــ لكنى لا أفهم . بالامس ..
تجهمت الامسية وباتت كريهة بالنسبة اليه .. وضــوء الفسق يخبو . أما هى فناءت بعذابها وانحنت تحت ثقله .
صاح بها :
ــ اعرف . لن تفهمى أبدا ! لن تدركى أبدا انى لا أستطيع .. لا استطيع جسديا ، بقدر مالا أستطيع أن أطير الى السماء كقبرة .
غمغمت وقد اجتاحها خوفها الحقيقى الآن :
ــ ماذا ؟
ــ أن أحبك .
كرهها بمرارة فى تلك اللحظة لأنه جعلها تتعذب . أن يحبها ! انهــا تعرف أنه يحبها . انها ، فى الحقيقة ، تمتلكه . وذلك الذى قاله عن عدم حبه لها ، جسـديا ، انما هو مجرد حرونة من جانبه ، لأنه يعرف أنها تحبه . انه غبى غباء طفل . فهو ملك لها . روحــه تريدها . خمنت أن أحدا قد أثر فيه . أحست فيه صلابة ذلك التأثير الدخيل .
سألته :
ــ ما الذى قالوه لك فى بيتكم ؟
فأجابها قائلا :
ــ لا . ليس ذلك هو السبب .
واذ ذاك أيقنت أن قلبها أصدقها القول فى شأن ذلك التأثير . احتقرت أهله لدناءة نفوسهم . أناس من هذه الطينة لن يحسوا أبدا بقيمة مابينهما .
لم يطل بينهما حديث بعد ذلك فى تلك الليلة . وهو ، على أية حال ، قد تركها ليذهب فيركب دراجته مع أدجار .
كان قد عاد الى ذراعى أمه . فأقوى علاقة فى حياته علاقته بها . وهو عندما يفكر فى ذلك تتباعد ميريام وتشحب . وهى ، على أية حال ، يحيط بها دائما جو مبهم ، غير حقيقى . فوق أنه لاوزن فى الحياة لأحد سوى أمه . وهناك مكان واحد فى العالم راسخ صـــلد لا يذوب أو يتلاشى فيبيت وهما : المكان الذى يضم أمه . أما كل من عداها فظلال لا يكاد يكون لهم وجود بالنسبة اليه . أمه وحــدها التى لا تبهت ، ولا تشحب ، ولا تغيم . فكأنما محور حياته وقطبهــا الذى لا مهرب له منه هى أمه .
والام ، هى الاخرى ، بنفس الطريقة ، تنتظره . فهى الان قــد أقامت عليه حياتها . وهى امرأة لاتقيم كبير وزن لحياة أخرى موعودة ،

فى عالم آخر . لأن فرصتنا الوحيدة للفعل ، فيما تراه ، هنا ، فى هذا العالم ، والفعل يعنى الكثير بالنسبة اليها . ولسوف يثبت بول أنها كانت على حق : فهو سوف يجعل من نفسه رجلا لن يزحزحه شيء أو يهزه ، سوف يغير وجه الارض بطريقة ما لها وزنها . حيثما ذهب ابنها أحست روحها تذهب معه ، وأى شيء فعل أحست روحها تقف الى جواره تشد أزره ، وكأنها ، تلك الروح ، متأهبة لان تناوله أدوات عمله . لم تكن تطيق أن يقضى ولو لحظات من وقته مع تلك الفتـاة ميريام . فويليم قد مات . وهى ستقاتل لكى تحتفظ ببول .

ولقد عاد اليها ، وفى روحه شعور من الرضى والتضحية بالذات لكونه قد أخلص لها ولم يخنها . فقد أحبته هى أولا ، وأحبها هو أولا . ومع ذلك لم يكن هذا الحب كافيا . فحياته الفتية جامحة ، قوية ، وآمرة ، يدفعها حافز قوى تجاه شيء آخر . انشق على نفسه وطارت نفسه بددا ، حتى أوشك ذلك التمزق أن يدفعه الى الجنون . وقد رأت أمه ذلك وتمنت بمرارة لو كانت ميريام امرأة لا تعنيها منه الا تلك الحياة الجديدة فتأخذها ، وتترك لها الجذور . اما هو فقاتل ضد أمه بقدر ماقاتل ضد ميريام .

انقضى أسبوع كامل قبل أن يذهب ثانية الى مزرعة ويللى . كانت ميريام قد قاست الكثير طوال ذلك الأسبوع ، حتى خافت ألا تـراه ثانية . هل يتعين عليها الآن أن تجرع مهانة هجره لها ؟ حتى ان حدث ذلك فانه سيكون هجرا سطحيا وموقوتا . فهو سيعود اليها . لانها تمسك بمفاتيح روحه . لكنه ، أثناء ذلك ، سيعذبها بمعركته ضدها . انها تعرف كم سيعذبها ، وتجفل خوفا مما ينتظرها على يديه .

ومع ذلك جاء فى يوم الأحد التالى لعيد الفصح لتناول الشـاى . فرحت مسز ليفرز لمقدمه . وقد أدركت لتوها أنه يعانى من قلـق يعذبه ، وأنه يمر بفترة عصيبة . بدا كما لو كان ينساق نحوها بحثا عن الراحة . وقد ترفقت به المرأة الطيبة ، فكرمته بأن عاملته معاملة أقرب الى التبجيل .

قابلها مع أطفالها الصغار فى الحديقة الأمامية .

قالت له وهى تنظر اليه بعينيها الواسعتين البنيتين :

ـ أنا سعيدة لمجيئك . فاليوم مشمس جميل . وقد كنت فى طريقى الى الحقول لأول مرة هذا العام .

أحس أنها تود لو صحبها ، فهدأ ذلك من ثائرة مشاعره المحتدمة . سار معها يتحدثان ببساطة ، وكله رقة وتواضع . كاد أن يبكى عرفانا

بجميلها لما أحسه من احترامها له . فقد كان يعـــانى من مهانة لا حدود لها .

عثرا فى نزهتهما بعش عصفور صغير .

قال لها :

ـ هل أريك البيض ؟

أجابت مسز ليفرز :

ـ نعم . فهو يبدو علامة على مقدم الربيع ، علامة كلها أمل .

أزاح الأشواك جانبا وأخرج البيض من العش واضـــعا اياه فى راحة يده .

قال :

ـ ما زال البيض دافئا . أظن أن أقترابنا اخافها فطارت وتركت العش .

قالت مسز ليفرز :

ـ نعم ! مسكينة .

لم تستطع ميريام ، التى لحقت بهم ، أن تكف نفسها عن لمس البيض ، واليد الحـــانية التى يرقد فى راحتها . غمغمت ، وهى تقترب منه :

ـ ياله من دفء غريب !

فأجابها باقتضاب :

ـ انه دفء الدم .

وقفت ترقبه وهو يعيد البيض الى عشه ، وجسده لاصق بالسياج ، وذراعه تتلمس طريقها ببطء بين الأشواك ، بينما يده مطبقة على البيض بحرص بالغ ، وقد تركز كيانه كله فيما كان بسبيله . اذ راته هكذا ، أحبته . بدا بسيطا ، وكافيا لذاته . فلم تستـــطع أن تصل اليه .

بعد تناول الشاى وقفت مترددة أمام رف الكتب . أخذ «تارتاران د تاراسكون» ، فذهبا وجلسا ثانية بين بقايا الدريس . قرأ صفحتين من الكتاب ، ولكن بغير حماس . ثم أقبل الكلب ليستأنف ما انقطع من لعب مع صاحبه فى المرة السابقة . دفع خطمه معابثا فى صـــدر الفتى ، فأخذ بول يهرش أذن الكلب لحظة ثم دفعه عنه قائلا :

ـ دعنى الآن يا بيل . لا أريد أن العب معك الان .

فانصرف الكلب عنه محزونا . لزمت ميريام الصمت وهى تتساءل ، خائفة ، فى قرارة نفسها ، عما قد يفجأها به . الصمت الذى يحوطه

جعلها تستكن من خشية وتوجس . فليست فورات غضبه هى اخشى ما تخشاه ، بل ما يبدو عليه أحيانا من تصميم هادىء .

بدأ أخيرا يتكلم ، ببطء ، مهموما ، وقد أشاح بوجهه قليـــلا الى جانب آخر حتى لا تراه :

ـ أتظنين ـ اذا اقللت من مجيئى لزيارتكم ـ أنك تستطيعين ان تتعلقى بشخص آخر ، رجل آخر غيرى ؟

اذن فتلك هى النغمة التى مازال يعزفها !

أجابته بنبرة خفيضة كان يجب أن يحسها كعتاب له :

ـ لكنى لا أعرف رجلا آخر غيرك . لم تسأل ؟

قال والكلمات تفلت منه بغير حرص :

ـ لانهم يقولون أنـه ليس من حقى أن أتردد عليك كثيرا هكذا .. مادمنا ، أعنى .. مادمنا لا نوى أن نتزوج ..

استنكرت ميريام بحنق ذلك التدخل فيما بينهما . ولقد غضبت من ابيها ذات مرة غضبا شديدا اذ لمح لبول ضاحكا انه يعرف لم يزورهم كثيرا .

سألته وقد تبادر الى ذهنها أن أهلها قد يكون لهم دخل فى الأمر :

ـ من هم الذين يقولون ؟

لكنها اطمأنت الى أن أحدا من أهلها لم يقحم نفسه فى شـئونها ، فقد قال :

ـ أمى .. والآخرون . يقولون أن الناس سيظنوننا مخطوبين اذا استمر الأمر على هذا المنوال . وانى يجب أن أعتبر نفسى خطيبـك مادمت أتردد عليكم كثيرا هكذا ، لان الامر على خلاف ذلك يكون فيه ظلم لك . ولقد حاولت أن أتبين .. ولا أعتقد أنى احبك كما ينبغى للرجل أن يحب امرأته . ما رأيك انت فى كل هذا ؟

طأطأت ميريام رأسها مهمومة ، وقد أثار غضبها هذا الصراع الذى فرض عليها . لم لا يدعهما الجميع وشأنهما ؟

غمغمت قائلة :

ـ لا أعرف .

سألها باصرار جعلها ترتعد :

ـ أتظنين أن كلا منا يحب الآخر بما فيه الكفاية لكى نتزوج ؟

أجابته صادقة :

ـ كلا . لا أظن أننا ... مازلنا أصغر من ان نقرر ذلك .

استطرد بتعاسة :

ـ كنت أظن أنك ، وأنت التى تنفعلين بالأشياء بعمق ، قد تمنحيننى اكثر مما أستطيع أن اعطيك . وحتى الآن ـ ان كنت تظنين أن ذلك أفضل ـ سنعلن خطوبتنا .

الآن أحست ميريام أنها تريد أن تبكى . لكن الغضب تملكها أيضا . انه دائما طفل يدع الناس يفعلون به مايشاءون .

قالت بحزم :

ـ كلا . لا أظن ذلك .

تفكر فى الأمر لحظة ، ثم قال :

ـ أتعرفين ؟ بالنسبة الى .. لا أظن انى أستطيع أن أدع أحدا يتملكنى .. يكون كل شىء بالنسبة الى .. لا أظن ذلك أبدا .

ذلك قول لم تلق اليه كبير بال . اكتفت بأن غمغمت قائلة :

ـ كلا .

ثم نظرت اليه بعد صمت وعيناها الداكنتان تلتمعان غضبا :

ـ هذا كله من فعل أمك . أنا أعرف أنها لم تحبنى أبدا .

قال بلهوجة :

ـ كلا ، كلا ، ليس الأمر كذلك . كل ماقالته هذه المرة كان حرصا على مصلحتك أنت . فهى لم تزد عن قولها أنى اذا استمررت فى زيارتك بهذه الكثرة يجب أن أعتبر نفسى خطيبك .

عاد يقول بعد صمت :

ـ فاذا دعوتك لزيارتنا ستأتين ، أليس كذلك ؟

لم تجب . فقد بلغ غضبها ذروته .

قالت باقتضاب :

ـ طيب . ما الذى يجب أن نفعله ؟ أظن انه يحسن بنا أن نصرف نظرا عن دروس الفرنسية . كنت قد بدأت اتقدم . لكن لا بأس . أظننى مستطيعة أن أواصل الدراسة بمفردى .

قال :

ـ وما الداعى الى ذلك ؟ لا ضير فى أن اعطيك درسا فى الفرنسية .

ـ وهناك أمسيات الأحد أيضا . لن اتوقف عن الذهاب الى الكنيسة لانى يروق لى ذلك ، فوق أن تلك الامسيات هى فرصتى الوحيدة للاختلاط بالناس . لكنك لا حاجة بك الى أن تصحبنى الى البيت . أستطيع أن أعود بمفردى .

أجاب وقد بوغت بحزمها :

ـ ما دمت ترين ذلك . لكنى أستطيع أن أطلب من ادجار أن

بصحبنا ، واذ ذاك لن يقول احد شيئا .
ساد الصمت بينهما . انها فى نهاية الأمر اذن لن تخسر شيئا يذكر لأن ما يتاح لهما من حديث فى بيت أهله لا يستحق عناء الذهاب . ولو انها ودت لو كفوا عن الزج بأنوفهم فيما لا يخصهم .
سألها محرجا :
ــ ولن تفكرى فى الأمر ، لن تدعيه يزعجك ، أليس كذلك ؟
أجابت ميريام ، دون أن تنظر اليه :
ــ أوه ، كلا .
فسكت . وجدته مزعزعا ، لا يثبت على راى ، ولا يتشبث بغاية يريدها ، لا دعامة من صلاح أو تدين تثبته وتشد أزره .
عاد يقول :
ــ لان الرجل يجد مايشغله . يركب دراجته .. يذهب الى عمله .. ويفعل كل مابدأ له . اما المرأة فتبقى فى البيت وتجتر مشكلاتها .
فقالت له ميريام ، وهى تعنى ما تقول :
ــ أوه ، كلا . لن أدع الأمر يزعجنى .
كان الجو قد سرت فيه برودة ، فعاد الى البيت .
لم تكد مسز ليفرز تنظر اليه حتى صاحت قائلة :
ــ يالله ! كم أنت شاحب اللون يابول ! ميريام . لم يكن يجدر بك أن تدعيه يبقى طويلا بالخارج . أتظن أنك قد أصابك برد يابول ؟
قال ضاحكا :
ــ أبدا . على الاطلاق .
لكنه أحس أنه لا يكاد يقوى على الوقوف . فذلك الصراع فى داخله ينهكه ويستنفد قواه . أحست ميريام بالشفقة عليه الآن . لكنه ، مبكرا ، والساعة لم تكد تبلغ التاسعة ، هم واقفا لينصرف .
سألته مسز ليفرز قلقة ، خشية أن يكون قد مرض حقا :
ــ هل تنصرف مبكرا هكذا ؟
فأجابها وهو فى حرج واضح :
ــ نعم . فقد وعدت أن أعود مبكرا .
قالت مسز ليفرز :
ــ لكن هذا الوقت مبكر بحق !
جلست ميريام فى المقعد الهزاز دون أن تقول شيئا . تردد وهو يتوقع أن تهم واقفة فتصحبه الى حيث ترك دراجته فى مخزن الفلال كدأبها ، لكنها ظلت حيث هى ، فأسقط فى يده ، وقال متلعثما :

ـ طيب . أسعدتم مساء جميعا !

ردت عليه تحيته مع الآخرين . لكنه وهو يمر أمام النافذة ، رأته ينظر داخلا . رأت وجهه شاحبا وحاجبيه مقطبين فى عبسة أصبحت لازمة له فى الأيام الاخيرة ، وعينيه داكنتين بالألم .

نهضت وذهبت الى الباب لتلوح له وهو يعبر البوابة . قاد دراجته متباطئا تحت أشجار الصنوبر وهو يحس أنه كلب ووغد زنيم . انحدرت الدراجة به تهبط التلال كأنما على هواها ، وقد أحس أنه يكون من رحمة الله أن يدق عنقه .

بعد يومين أرسل اليها كتابا وخطابا قصيرا يستحثهـا فيه أن تنشغل بالقراءة .

فى ذلك الوقت أعطى كل صداقته لادجار . فحبه البالغ للأسرة ، وللمزرعة ، جعلها أحب مكان الى قلبه . لم يكن حبه لبيت أهله بتلك القوة . فأمه هى حبه فى ذلك البيت . لكنه مستطيع أن يكون سعيدا مع أمه فى أى مكان . أما مزرعة ويللى فيحبها حبا لا يوصف . حتى مطبخها المضحك الصغير يحبه ، وأحذية الرجال تطأ أرضه بغير انقطاع ، والكلب ينام فيه بعين واحدة مغمضة وعين مفتوحة خشية أن تطأه قدم ، والمصباح معلق فوق المائدة فى الليل ، والسكون مخيم على كل شيء . وهو يحب غرفة جلوس ميريام ، الطويلة ، الواطئة ، بجوها الرومانسى ، زهورها ، وكتبها ، والبيانو القديم المرتفع فيهـا من خشب الورد . يحب الحدائق والابنية المنتصبة بأسقفها الحمراء البرتقالية على الحافة العارية للحقول المترامية ، زاحفة حتى أطراف الغابة كأنما لتستكن اليها ، والأرض البرية التى لم تمتد اليهـا يد تنقض بأشجارها المتكاثفة هابطة الى واد ، صاعدة فوق سفوح التلال غير المزروعة فى الجانب الآخر . مجرد وجوده هناك يفعمه جـذلا ونشوة . وهو يحب مسز ليفرز ببعدها عن الدنيويات وكلبيتها الغريبة ، ويحب مستر ليفرز الودود ، لطيف المعشر ، بشبابه الدائم المحبب الى النفس ، ويحب ادجار الذى يشرق وجهه كلما أقبل عليه ، ويحب أخويه وأخوته الصغار وكلبهم بيل ، بل وأنثى الخنزير « سيرس » وديك القتال الهندى الذى يدعونه « تيبو » كل ذلك وميريام أيضا ، لا سبيل الى التخلى عنه .

لذلك لم تقل زياراته ، وان قضى معظم وقته فى صحبة ادجار . لولا أنه كان من دأب الأسرة أن يلتئم شملها فى المسـاء ، ليشترك الجميع ، بما فيهم الأب ، فى حل الفوازير والقيام ببعض الالعاب

الجماعية ، ثم تجمعهم ميريام ليقرأوا « ماكبث » معا من احدى الطبعات الشعبية ، يتناوبون قراءة فقرات من شيكسبير ، فقرة اثر فقرة ، كان يجد فى ذلك اثارة ومتعة ، وتبتهج ميريام ، وتفرح مسز ليفرز ، ويستمتع مستر ليفرز مع اسرته وضيفه • ثم يشتركون بعد ذلك فى تعلم الاغنيات من كراسة السلم الموسيقى ، فيتحلقون النار وهم ينشدون معا . لكن اللحظات التى ينفرد فيها بميريام باتت ، باختياره ، نادرة . فانتظرت صابرة . عندما يصحبهما ادجار ، كرغبة بول ، فى عودتهما من الكنيسة أو من الجمعية الأدبية فى بستوود ، كانت تدرك أن أحاديث بول التى تفيض حماسا ، والتى باتت فى الأيام الاخيرة خارجة على كل رأى متعارف عليه ، انما يوجهها اليها . ومع ذلك فانها أصبحت تحسد ادجار على جولاته بالدراجة مع بول ، وأمسيات الجمعة التى يقضيها معه ، والأيام التى يقضيانها فى العمل بالحقول . فهى ، بعد أن حرمت من أمسيات الجمعة ، ودروس الفرنسية ، باتت تقضى جل وقتها وحيدة ، تسير بمفردها فى الغابة مستغرقة فى التفكير ، تقرأ أو تستذكر ، أو تحلم ، وتنتظر . وهو لا يكف عن الكتابة اليها .

فى مساء يوم من أيام الأحد توصلا الى استعادة وفاقهما النادر القديم . فقد تأخر ادجار فى الكنيسة مع مسز مورل ليتناول القربان ، على سبيل الفضول . وهكذا عاد بول الى بيته مع ميريام وحدهما ، وقد وجد نفسه من جديد أسير سحرها • كانا ، كدأبهما ، يناقشان الموعظة التى القاها القس . كان فى تلك الأيام قد فرد شراعه ، متجها بسرعة نحو اللاادرية (١) ، لكنها لا أدرية مدخولة بالتدين لم تنزعج لها ميريام كثيرا . كانا فى تلك الآونة فى مرحلة « حياة يسوع » لأرنست رينان ، وقد باتت ميريام بالنسبة اليه أرض الاختبار التى يستخلص من خلالها معتقداته ، فيتقبل هذا ، ويرفض ذاك ، بفضل مناقشاته معها . فهو يطأ أفكاره بقدميه على أرض روحها ، ليستخلص اللب من القشور ، وتتضح الحقيقة له ، فهى وحدها أرض الدراس التى تخصه • وهى وحدها التى تأخذ بيده نحو الادراك • تستسلم بطريقة تكاد تكون خالية من الانفعال ، لمناقشاته وشروحه ، ورويدا ، بطريقة ما ، بفضل وجودها وأصغائها ، يتبين موطن الخطأ وموطن الصواب فى تفكيره ، فتستقيم الامور بالنسبة اليه • وهو كلما أدرك

(١) Agnosticism مذهب مادى ينكر امكانية ادراك العقل للمطلق او لما هو قائم بذاته . فمجال المعرفة عند اصحابه ، الظواهر المادية وحدها ، لانه ما من سبيل الى اية معرفة يقينية تتعلق بأى شىء سواها .

شيئا ، أدركته معه . أحست انه لا غنى له عنها .
وصلا الى البيت الذى يخيم عليه السكون . أخذ المفتاح من مكانه المعهود على حافة النافذة ، ودخلا ، دون أن يكف لحظة عما كان آخذا فيه من مناقشة . اضاء الغاز ، وتعهد نار المدفأة حتى علا لهبها ، ثم أحضر بعض الفطائر . جلست على الأريكة فى صمت ، وطبق من الفطائر فوق ركبتيها . كانت ترتدى قبعة بيضاء عريضة الحافة تحليها زهور وردية . قبعة رخيصة لكنها تروق له ، يبدو وجهها تحت حافتها ساكنا ، مهموما ، فيه سمرة ذهبية ، ووهج فى وجنتيها . أذناها دائما تختفيان تحت غدائرها القصيرة . أخذت ترقبه .
كان يروق لها فى أيام الآحاد . فهو فى تلك الأيام يرتدى حلة داكنة تفصح عن حركات جسمه السلسة ، وينطق كيانه كله بشىء نظيف صاف ينبع من داخله . كان مستطردا فى تفكيره الذى يصببه فى مسامعها . وفجأة مد يده ليتناول الكتاب المقدس . راقت لها حركته ، وهو يمد يده بطريقة حادة تذهب الى غايتها رأسا . أخذ يقلب الصفحات بسرعة ثم قرأ عليها اصحاحا من انجيل يوحنا . أحست أنه ، وهو جالس يقرأ فى مقعده الوثير ، منكبا ، وصوته أفكار ينطقها بصوت مسموع ، أشبه بانسان مكب على عمل يستغرقه ، وأنها ، بالنسبة اليه ، أدواته التى يستعملها فى أداء ذلك العمل بطريقة لا واعية . لكنها احست فى صوته نزوعا مبهما ، وكأنه يتحسس طريقه الى شىء ما ، وكأنما هى ذلك الشىء الذى يشرئب اليه . جلست غائصة بين وسائد الأريكة ، بعيدا عنه ، لكنها أحست انها الاداة ذاتها التى تمسك بها يده . فاضت بها لذلك الاحساس متعة لا تحد .
ثم أخذ يتعثر فى قراءته ويبدو عليه الحرج . وعندما وصل الى قوله « المرأة وهى تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت . » أسقط تلك الكلمات من قراءته . كانت ميريام قد أحست بحرجه المتزايد . وعندما اغفل تلك الكلمات التى تعرفها جيدا ، جفلت كأنما أصابتها لطمة . استطرد فى القراءة ، لكنها لم تسمع ، حزن وعار ، ناءت بهما ، فطأطأت رأسها . منذ ستة شهور فقط كان حريا أن يقرأ تلك الكلمات ببساطة . لكنهما الآن باتا وكأنما تقطع علاقتهما فجوة . الآن أحست بحق أن هناك شيئا بينهما ، شيئا يخجلان منه ، ويثير العداء بينهما .
تشاغلت بتناول قطعة من الكعك بطريقة آلية . وحاول هو أن يصل ما انقطع من مناقشته لأفكاره ، لكنه لم يستطع . بعد قليل أقبل ادجار وحده ، وقد ذهبت مسز مورل لزيارة بعض أصدقائها .

وسرعان ماانصرفوا ثلاثتهم ذاهبين الى مزرعة ويللى .

أخذت ميريام تفكر مهمومة فى ذلك الفصام بينهما . هناك شىء آخر يريده منها . فهو غير مكتف بما تقدمه له . ولن يدعها فى سلام أبدا . باتت بينهما الآن أرض شحان وصراع لا ينقطع ، وهى تريد أن تتيقن منه . لطالما اعتقدت أنها حاجته الرئيسية فى الحياة . فان استطاعت الآن أن تبرهن على ذلك ، لنفسها وله ، بات من الممكن لكل المشكلات الاخرى أن تحل نفسها بنفسها ، واستطاعت هى ، ببساطة ، أن تنظر الى المستقبل بأطمئنان .

وهكذا دعته فى يوم من أيام شهر مايو الى زيارتها فى المزرعة ، ليقابل مسز دوز . كان هناك شىء تنازعه نفسه اليه . كم من مرة رأته ، كلما جاء ذكر لمسز دوز ، مهتاجا ، وقد انتابه غضب طفيف . ولقد قال لها ان المرأة لا تعجبه . ومع ذلك فهو متلهف أبدا على أنبائها . من الأفضل اذن أن يختبر نفسه ، وجها لوجه مع تلك المرأة . فميريام مؤمنة أن فيه اشتهاء للأشـياء الاعلى ، واشتهاء لاشياء أكثر حطة ، لكنها مؤمنة أيضا أن اشتهاءه للأشياء الأعلى هو الـذى سـينتصر ويسود . وهو ، على أية حال ، يجب أن يحاول . أن يمر بتلك التجربة . وقد نسيت أن معاييرها فيما يخص ماهو « اعلى » وماهو « ادنى » معايير اعتسافية من وضعها هى .

أحس بول قدرا من الاثارة للقائه القريب بكلارا فى مزرعة ويللى . وقد جاءت مسز دوز فى موعدها لقضاء اليوم معهم . كانت قد عقصت شعرها فوق قمة رأسها وارتدت بلوزة بيضاء وجـونلة كحلية . كلما تواجدت فىمكان ، بدت وكأنها تجعل كل ما حولها قميئا لا قيمة له . لم تكد تدخل المطبخ حتى بدا صغيرا ، زريا ، حقيرا . حتىغرفة الجلوس المحببة الى قلبه بدت غاية فى السخف . وكل آل ليفرز انطفأ بريقهم فى حضورها . وجدوا جميعا أنها لا يسهل احتمالها ، رغم ما أظهرته من ود وبشاشة ، حاولت أن تخفف بهما من صلفها الطبيعى وعدم اكتراثها بالغير .

لم يأت بول الا عصرا . لكنه جاء مبـكرا عن موعده المألوف . رأته ميريام يقفز من فوق دراجته ناظرا فى اتجـاه البيت بلهفة واضحة . أدركت أنه كان سيخيب أمله لو تخلفت ضـيفتهم عن الحضور . خرجت للقائه وقد أحنت رأسها بسبب الشمس . رحبت به ، فرحة بمقدمه ، فبادرها قائلا :

ــ لم تأت كلارا ؟

أجابته ميريام بنبرتها الموسيقية :

ـ انها بالداخل ، تقرأ .

ذهب يضع دراجته في مخزن الغلال . كان قد ارتدى ربطة عنق انيقة يعتز بها ، وجوربا يناسبها لونا .

عاد يسألها :

ـ جاءت في الصباح ؟

أجابت ميريام وهي تسير بجانبه :

ـ نعم . هل جئتني بذلك الكتاب الذي وعدت أن تحضره ؟ هل تذكرت ؟

ـ أوه ! اللعنة على ذاكرتي ! نسيت . لو كنت مكانك لما تركتني في سلام حتى آتيك به .

ـ لكني لا أحب أن أزعجك .

ـ افعلي ذلك سواء أحببت أم لا . هل هي ألطف معشرا من آخر مرة رأيتها ؟

ـ أنت تعلم اني أجدها لطيفة المعشر دائما .

لزم الصمت . بدا جليا أن الضيفة هي السبب في مجيئه مبكرا . بدأت ميريام تتعذب . سارا في اتجاه البيت معا . انحنى يفرد ساقي سرواله ، لكنه تكاسل عن تنظيف حذائه من تراب الطريق ، رغم جوربه وربطة عنقه .

وجدا كلارا في غرفة الجلوس مستغرقة في القراءة . رأى عنقها الأبيض من خلاف وشعرها الناعم قد شدته الى قمة رأسها . همت واقفة تنظر اليه بعدم اكتراث ، مدت اليه يدها بحركة متصلبة من ذراعها ، بطريقة بدت كما لو كانت قد تعمدتها لتبعده عنها ، وفي الوقت ذاته ، لتلقي بشيء في اتجاهه . انشدت عيناه الى نهديها بامتلائهما الذي يرفع صدر بلوزتها ، وجمال كتفيها تحت الموسلين الرقيق الذي ينتهي على قمة الذراعين .

قال لها :

ـ لقد اخترت يوما جميلا .

ـ حدث ذلك بغير قصد .

قال :

ـ نعم . يسعدني مجيئك .

جلست دون أن تشكر له ترحيبه بها ، فالتفت الى ميريام يسألها :

ـ كيف قضيتما الصباح ؟

قالت ميريام وهى تسعل لتخفى اضطرابها ٠

ـ لم يمض على مجيء كلارا وقت طويل ٠٠ فقد وصلت منذ قليل مع أبى ٠

جلست كلارا مستندة الى المنضدة ، متباعـدة عنهما ٠ لاحـظ أن يديها كبيرتان ، وان كانت تعنى بهما ، يكاد جلدهما أن يكون خشنا ، لا شفافية فيه رغم بياضه ، تتناثر على سطحه شعيرات ذهبية . لم تبد أى اهتمام بنظرته الى يديها . فقد انتوت أن تظهر له الاحتقار . رقدت ذراعها الثقيلة على سطح المنضدة ، لا تتحرك غير عابئة به او بنظراته ، وقد زمت شفتيها كأنمـا أساء اليهـا ، وأشاحت قليلا بوجهها .

قال موجها حديثه اليها وكأنه يتزلف اليها :

ـ سمعت أنك حضرت اجتماع مارجرت بونفورد منذ بضع ليال .

رمقته المرأة بنظرة سريعة ، أما ميريام ففوجئت بتلك اللهجة التى لم تعهدها منه ٠

قالت كلارا باقتضاب :

ـ نعم .

وسألته ميريام :

ـ ولكن كيف عرفت ؟

ـ ذهبت فقضيت بضع دقائق فى الاجتماع قبل موعد القطار .

أشاحت كلارا بوجهها ثانية علامة الازدراء .

لكنه ثابر قائلا :

ـ انها امرأة عظيمة محببة الى النفس .

فصاحت كلارا :

ـ مارجرت بونفورد ! انها أعظم من كثيرين من الرجال ، وأشد براعة منهم .

فقال مهادنا :

ـ وهل قلت غـير ذلك ؟ لـكنها ، رغم تلك العظمة ، محببة الى النفس .

قالت كلارا بازدراء واضح :

ـ وهذا هو كل ما يهمك بطبيعة الحال .

هرش رأسه وقد تملكته الحيرة وشيء من الضيق . ثم قال :

ـ أظنه أهم من براعتها التى لن تفتح لها أبواب ملكوت السماء على اية حال .

فقالت كلارا محتدة :

ـ انها لا تبحث عن ملكوت السماء ، بل تريد نصيبها العادل على هذه الأرض .

قالتها كما لو كان مسئولا بشكل ما عما تعانيه مس بونفورد من حرمان من حقوقها العادلة .

ـ تريدين الحقيقة ؟ لقد وجدتها امرأة بالغة اللطف ، ذات طبع ودود ، حتى تمنيت لو كانت جالسة فى بيتها فى سلام .

قاطعته كلارا بمرارة :

ـ ترتق جوارب زوجها .

ـ أنا واثق من أنها لن تمانع حتى فى رتق جواربى أنا ، ومتأكد من أنها ستتقن عملها ، تماما كما أنى لن أمانع فى تلميع حذائها ، ان أرادت .

لكن كلارا رفضت أن تجيب على ذلك الهذر من جانبه . فانصرف الى ميريام يتحدث اليها بعض الوقت ، وقد تباعدت الأخرى .

قال أخيرا :

ـ آه . أظننى سأذهب لأبحث عن ادجار . هل هو فى الحقل ؟

قالت ميريام :

ـ اظنه ذهب يحضر حملا من الفحم . وسيعود لتوه .

ـ اذن سأذهب لألقاه .

لم تجرؤ ميريام على ابداء أى اقتراح فيما يخص ثلاثتهم ، فهم واقفا وانصرف .

رأى ادجار مقبلا ، يسير فى تكاسل ، والفرس جواره ، تومىء برأسها الكبير تتوسطه غرة على شكل نجمة بيضاء ، وهى تجر العربة المحملة بالفحم . أشرق وجه الفلاح الفتى عندما رأى صديقه . كان أدجار وسيما ، له عينان داكنتان دافئتان ، يسير مزهوا رافع الرأس، رغم ثيابه الزرية القديمة .

قال وقد رأى بول عارى الرأس :

ـ أهلا . الى أين أنت ذاهب ؟

ـ خرجت أنتظرك . لم أستطع أن أطيق صاحبة العظمة « لن تتكرر ثانية » !

ـ صاحبة العظمة ! من تكون ؟

ـ السيدة الجليلة . مسز دوز . ينبغى أن يكون اسمها السيدة غراب .. التى نعبت فى القصة قائلة « لن تتكرر ثانية » .

ضحك ادجار بجذل :

ــ الا تروقك ؟
ــ ليس كثيرا . لم ؟ هل تعجبك ؟
جاءه الرد بلهجة يقين لا تقبل النقاش :
ــ كلا . على الاطلاق .
زم ادجار شفتيه وعاد يقول :
ــ كلا ، بكل تأكيد . ليست من الصنف الذى يعجبنى من النساء.
تفكر قليلا ثم قال :
ــ ولكن ما حكاية « لن تتكرر ثانية » هذه ؟
ــ الا ترى . عيناها ، اذا ما تنازلت ونظرت الى رجل مرة ، تقولان له بعجرفة : « لن تتكرر ثانية » . بل اذا نظرت الى صورتها فى المرآة قالت بازدراء « لن تتكرر ثانية » ، فاذا ما فكرت فيما مضى قالتها بقرف ، واذا تصورت ما هو آت قالتها بكلبية .
وقف ادجار يهضم هذه الخطبة على مهل ، فلم يفهم لها رأسا من ذنب ، وقال ضاحكا :
ــ تعنى أنك تظنها ممن يكرهن الرجال ؟
فأجاب بول :
ــ هى التى تظن أنها كذلك .
ــ لكنك انت لا تظنها كذلك ؟
ــ كلا .
ــ لم تكن لطيفة معك اذن ؟
فسأله بول :
ــ هل تستطيع أن تتصورها لطيفة مع أى انسان ؟
ضحك ادجار لانفعال صاحبه . ثم ذهبا يفرغان حمولة الفحم فى الفناء معا . وقد أحس بول بشىء من الحرج وهو يفعل ذلك لانه خشى ان تطل كلارا من النافذة . لكنها لم تفعل .
كان عصر يوم السبت موعد العناية بالجياد فى المزرعة . فذهب بول يساعد صديقه وهو يعطس من الغبار الذى أثارته حوافر جيمى وفلاور .
قال ادجار :
ــ لديك اغنية جديدة تعلمنى اياها ؟
لم يكف عن عمله وهو يقول ذلك . وقف بول يرقبه بعض الوقت ، ينظر الى عنقه من خلاف وقد احمر من لفحة الشمس ، واصابعه الغليظة مطبقة على الفرشاة ، ثم قال ، على سبيل الاقتراح :

ـ تتعلم ماري موريسون ؟

وافق ادجار . كان ذا صوت رخيم من طبقة التينور ، يلذ له أن يتعلم كل ما يستطيع صديقه أن يعلمه اياه من أغنيات ليعلو صوته بها أثناء عمله . أما بول فله صوت لا يعتد به من طبقة الباريتون ، لكنه صاحب أذن موسيقية . ومع ذلك أخذ يغني بصوت خفيض خشية أن تسمعه كلارا ، فيردد ادجار البيت وراءه بصوت يلعلع . لكنهما اضطرا أكثر من مرة الى التوقف عن الغناء بسبب نوبات العطس وما يعقبها من سباب مقذع يكيله كل منهما لحصانه .

لطالما أحست ميريام بنفاد الصبر تجاه الرجال . فما أسهل أن يجدوا الملهاة في أبسط الاشياء ... حتى بول . فلقد وجد من الشذوذ فيه أن يدع أبسط تفاهة من التفاهات تستغرقه كلية .

كان موعد تناول الشاي قد أزف عندما انتهيا من عملهما .

سألت ميريام وهما يدخلان :

ـ أي اغنية كانت هذه ؟

أخبرها ادجار ، فاتجه الحديث الى الغناء .

قالت ميريام لكلارا :

ـ اننا نستمتع بالغناء هنا كثيرا .

لم تجب مسز دوز ، فقد كانت منصرفة الى وجبتها ببطء ووقار . كلما تواجد الرجال تباعدت وتحفظت .

سألتها ميريام :

ـ أتحبين الغناء ؟

ـ اذا كان جيدا .

احمر وجه بول :

ـ تعنين عندما يكون أرستقراطيا ومدربا .

قالت :

ـ أظن أن الصوت في حاجة الى تدريب حتى تكون للغناء أية قيمة .

فأجابها :

ـ لعلك تتمسكين أيضا بأن يدرب الناس أصواتهم قبل أن يسمح لهم بالكلام . الحقيقة أن الناس يغنون ليستمتعوا بغنائهم .

ـ أو ليزعجوا الآخرين به .

ـ اذن فعلى أولئك الآخرين أن يسدوا آذانهم .

أغرق بول وادجار في الضحك ، ثم ساد الصمت ، فتضرج وجه

صاحبتنا بحمرة قانية .

بعد تناول الشاى ، عندما انصرف الرجال جميعا خلا بول ، قالت مسز ليفرز لكلارا :

ــ والآن تجدين الحياة أكثر سعادة ؟

ــ بما لا يقاس .

ــ وأنت راضية عن حياتك ؟

ــ طالما استطعت أن أكون حرة ومستقلة .

عادت مسز ليفرز تسألها مترفقة :

ــ ولا تفتقدين أى شىء فى الحياة ؟

ــ لقد وضعت كل ذلك ورائى .

أحس بول بضيق متزايد من ذلك الحديث ، فهم واقفا وهو يقول لمسز دوز :

ــ ستجدين أنك ستتعثرين دائما فى الاشياء التى تضعينها ورائك.

قال كلمته وانصرف ، قاصدا حظيرة الابقار ، وهو يغبط نفسه على حضور بديهته ، وسلاطة لسانه ، مزهوا غاية الزهو برجولته . فأخذ يصفر بفمه وهو يسير على الممر المرصوف بالآجر .

جاءت ميريام فى طلبه بعد قليل لتسأله هل يحب أن يصحبها هى وكلارا فى نزهة قصيرة ؟ .ساروا ثلاثتهم فى اتجاه مزرعة ستريلى ميل . وبينما هم على شاطىء الغدير ، فى الجانب الذى تروى منه مزرعة ويللى ، أبصروا بين جذوع الاشجار رجلا يقود حصانا ضخما ذا لون بنى ضارب الى الحمرة عبر قنوات الصرف ، والجواد العظيم أحمر اللون يرقص فى مشيته فى تلك العتمة المخضرة بين الاشجار ، بعيدا ، حيث الهواء يموج بظلال لاثبات لها ، وكان المنظر كله يحدث فى الماضى بين أزاهر لعلها أينعت ذات يوم لديدرى (١) أو ايزو (٢) .

وقفوا ثلاثتهم مسحورين .

ثم قال بول :

ــ ما أروع ان يكون المرء فارسا ، وأن يقيم خيمته هناك .

فقالت كلارا متهكمة :

---

(١) Deidre بطلة اسطورة الحب الكلتية التى استخدم مأساتها J.M. Synge, G.W. Russel, W.B. Yeats

(٢) Iseut بطلة أسطورة Tustan et Iseut والبطلتان تهربان : الاولى من زوجها الموعود ، والثانية من زوجها ، كل مع حبيبه ، وتموتان فى النهاية ، لمنــــالذلك ، ميتة مأساوية . ولورنس ، بهذه الايماءة ، يمهد لحكاية بول مع كلارا ، وهى أيضا زوجة رجل آخر .

ـ وأن تحبسنا وراء أبواب مغلقة ، فتطمئن الى اننا فى قبضة يدك ؟
أجابها قائلا :
ـ نعم . فتنصرفن الى التطريز والغناء مع وصيفاتكن . واذ ذاك أحمل رايتك ، وأنقش اسمك على دروعى وأنا أقاتل من أجلك .
ـ لا شك عندى فى أنك تفضل أن تقاتل من أجل امرأة ، بدلا من أن تدعها تقاتل دفاعا عن حقوقها .
ـ طبعا . لأنها عندما تقاتل كما تقولين تكون أشبه بكلب يجن جنونه أمام مرآة فيقاتل خياله فيها .
سألته وهى تقوس شفتها :
ـ وأنت طبعا المرآة ؟
ـ أو الخيال الذى فيها .
ـ يبدو أنك أبرع من أن أجاريك فى هذا المضمار .
رد عليها قولها ضاحكا :
ـ يكفيك أن تكونى طيبة اذن ! هنيئا لك طيبتك يا فتاتى الجميلة. أما أنا فدعينى لبراعتى .
ضاقت كلارا بهذا الهذر فلزمت الصمت . أدرك فجأة وهو ينظر اليها أن شموخ أنفها انما هو شقاء وليس ازدراء . رق قلبه لها ولكل من عداها ، حتى التفت الى ميريام ، وكان قد أهمل شأنها حتى تلك اللحظة ، فتلطف معها .
التقوا على مشارف الغابة برجل نحيل داكن اللون فى الأربعين ، اسمه ليمب ، هو مستأجر مزرعة ستريلى ميل المجاورة التى يديرها لتربية الماشية ، ممسكا ، فى غير اكتراث ، وكأنه متعب ، بعنان حصان فحل يجره وراءه . تنحى الثلاثة جانبا ليمر الرجل بحصانه، وقد أخذ بول بفحولة الحصان ، وحيويته ، ورشاقة خطواته . توقف ليمب أمامهم قائلا لميريام بصوت رفيع غريب الوقع :
ـ قولى لأبيك يامس ليفرز أن صغار ماشيته قد حطمت السور ثلاث مرات على التوالى فى الأيام الثلاثة الأخيرة .
سألته ميريام بصوت راعش :
ـ أى سور ؟
كان الحصان يزفر بقوة ، لا يكاد يستقر على الارض ، وعيناه الرائعتان الكبيرتان تنظرانهم بارتياب .
أجاب ليمب قائلا :

ـ تفضلوا بالسير معى قليلا ، وسأريكم .

تقدمهم الرجل وحصانه . جفل الحصان والرجل يحاول أن يعبر به الغدير ، فهدأ صاحبه من روعه برفق حتى عبر الماء بقفزات قصيرة رشيقة . أخذت كلارا ترقبه نصف مسحورة نصف مزدرية . توقف ليمب وأشار على سور تحت بعض أشجار الصفصاف .

ـ هاك . أترين أين كسرت ماشيتكم السور ودخلت الى أرضى ؟ لقد طاردها رجالى ثلاث مرات .

أجابت ميريام ووجهها يتضرج خجلا كأنما الذنب ذنبها :

ـ نعم .

سألهم الرجل قائلا :

ـ هل تتفضلون بزيارة البيت ؟

ـ كلا ، شكرا . لكننا نحب أن نمر بالبركة .

ـ كما تشاءون .

صهل الحصان فرحا باقترابه من البيت ، فقالت كلارا التى بدا اهتمامها به واضحا :

ـ انه سعيد بعودته .

ـ نعم .. فقد تعب كثيرا اليوم .

عبروا البوابة فرأوا سيدة صغيرة الحجم ، سمراء ، فى حوالى الخامسة والثلاثين ، يبدو عليها التوتر ، مقبلة عليهم من دوار المزرعة، وقد سرى الشيب فى شعرها ، وأفصحت عيناها عن اصطخاب داخلى، تسير واضعة يديها وراء ظهرها . تقدم أخوها ليلقاها ، ولم يكد الحصان يراها حتى صهل ثانية . تقدمت منهم باهتياج واضح .

قالت للحصان ، لا للرجل ، برقة وتدليل :

ـ عدت الى البيت ثانية يابنى ؟

استدار الحصان اليها وهو يخفض رأسه ، فألقمته خلسة التفاحة الصفراء المفضنة التى كانت تخفيها وراء ظهرها ثم قبلته بجانب عينه . زفر الحصان زفرة متعة غامرة وهى تضم رأسه بذراعيها الى صدرها .

قالت لها ميريام :

ـ أليس رائعا ؟

رفعت مس ليمب عينيها فنظرت اليهم ، واتجهت عيناها الداكنتان رأسا الى بول .

قالت لميريام :

ـ أوه ، أسعدت مساء يا مس ليفرز . لم نرك منذ زمن طويـــل .
قدمت ميريام أصدقاءها ، وقالت كلارا للمرأة :
ـ حصانك رائع بحق !
قالت وهي تقبل الحصان ثانية :
ـ أليس كذلك . انه حبوب كأى رجل !
فقالت كلارا :
ـ بل أكثر من أى رجل فيما أظن .
صاحت المرأة وهي تعانق الحصان من جديد :
ـ انه ولد لطيف !
تقدمت كلارا ، وقد بدا واضحا أنها مسحورة بالحصان ، فأخذت تتحسس عنقه .
قالت مس ليمب :
ـ انه وديع للغاية . شأنه شأن ضخام الأجسام من الرجال ! ألا ترين ذلك ؟
أجابت كلارا قائلة :
ـ انه باهر الجمال !
وقفت أمام الحصان لتنظر في عينيه ، تريده أن ينظر اليها .
قالت :
ـ من أسف أنه لا يتكلم .
فأجابت المرأة الأخرى :
ـ أوه ! لكنه يستطيع أن يتكلم ـ أو يكاد .
وهنا تحرك أخوها متجها بحصانه الى الاسطبل ، قائلا :
ـ ألا تتفضلون بالدخول ؟ تفضل يا مستر ـ
فقالت ميريام :
ـ مورل . مستر مورل . كلا ، شكرا . لن نزعجكم الآن . لكننا نود أن نرى البركة .
ـ طبعا .. طبعا . تفضلوا . هل تصطاد السمك يا مستر مورل ؟
قال بول :
ـ كلا .
فقالت مس ليمب :
ـ لأنك ان كنت تصطاد السمك تستطيع أن تأتي لتصطاد في أى وقت . فنادرا ما يزورنا مخلوق ، أسبوعا بعد أسبوع . سأكون شاكرة لك لو تفضلت بالمجيء .

فسألها بول :
ـ أى نوع من السمك فى بركتكم ؟
عبروا الحديقة الأمامية ، مروا بالبربخ ، صاعدين السفح المنحدر الى البركة الراقدة فى الظلال، وفى وسطها جزيرتان صغيرتان تكسوهما الاشجار . سار بول بجوار مس ليمب .
قال لها :
ـ لا شك أن الاستحمام يكون ممتعا هنا .
فأجابته متلهفة :
ـ تفضل بالمجىء فى أى وقت . سيسعد أخى كثيرا بالتحدث اليك. انه يبدو ميالا الى الصمت . لكن ذلك راجع الى أنه لا يجد من يتحدث اليه . تفضل حقا بالمجىء لتستحم .
أقبلت كلارا عليهما قائلة :
ـ تبدو عميقة . والماء صاف كالبللور .
فقالت مس ليمب :
ـ نعم .
قال بول :
ـ هل تجيدين السباحة ؟ كانت مسز ليمب تقول لتوها أننا نستطيع ان نسبح فى البركة فى أى وقت .
قالت مسز ليمب :
ـ هناك طبعا عمال المزرعة . قد يضايقونكم .
وقفوا يتحدثون بضع دقائق ، ثم انصرفوا تاركين المراة وراءهم ، يصعدون سفح التل ، الغارق فى ضوء الشمس بشجيراته الكثيفة وجحور الأرانب التى تملأ أرضه . ساروا ثلاثتهم فى صمت الى أن قال بول :
ـ فيها شىء يبعث على عدم الارتياح .
قالت ميريام :
ـ تعنى مس ليمب ؟ نعم .
ـ ما خطبها ؟ هل هى موشكة على الجنون بسبب هذه الوحدة التى تعيش فيها ؟
فأجابت ميريام قائلة :
ـ نعم . فهذه الحياة لا توافقها . من القسوة أن يسوقها أخوها بهذا الشكل وانا فى الحقيقة مقصرة فى حقها . يجب أن أذهبلزيارتها فأخفف عنها وحدتها قليلا . لكنها ... لكنها تزعجنى .

قال بول مؤمنا على قولها :
ـ انها تجعلنى أشعر بالرثاء لها . لكنها ، كما تقولين ، فيهـا شيء مزعج .
فقالت كلارا فجأة ، بغير ترو :
ـ أظنها تريد رجلا .
لزم الآخران الصمت لحظات ، ثم قال بول :
ـ لكنها الوحدة المستمرة التى تدفعها الى الجنون .
لم تجب كلارا ، بل سبقتهما قليلا صاعدة السفح أمامهما . سارت خافضة رأسها ، مطوحة ساقيها وهى تركل الحسك الجاف والعشب الكثيف بقدميها ، وذراعاها تتأرجحان ، حتى بدا جسدها الجميل وكأنه يتعثر فى صعود مضطرب . أحس بول وهو يرقبها بموجةساخنة تجتاحه . وانتابه فضول بشأنها . لعل الحياة قد قست عليها . انشغل بها حتى نسى ميريام التى سارت بجواره تتحدث اليه . رمقته الفتاة وهى لا تتلقى منه جوابا ، فرأت عينيه لاصقتين بظهر كلارا .
سألته قائلة :
ـ ما زلت تجدها رذلة ؟
لم يلحظ ما فى سؤالها من مباغتة ، فقد كان متمشيا مع أفكاره . أجاب قائلا :
ـ هناك شيء ينغص عليها حياتها .
ـ نعم .
اكتشفوا حقلا بريا على قمة التل تحده الغابة من جانبين ، وعلى الجانبين الآخرين شجيرات من الزعرور البرى والبيلسان ، متكاثفة ، بينها فجوات لعل الماشية أوجدتها فى غدوها ورواحها . أما الأرض فيكسوها عشب كثيف ناعم الملمس كالقطيفة سوته الارانب وآخترمته بجحورها ، والحقل ذاته ، وسط كل ذلك ، يموج بزهور برية لم تمسسها يد ، تنتصب سوقهـا قـوية مستقيمة من قلب الخضرة المائجة ، حتى لقد بدا المكان كله أشبه بممر بحرى تزحمه صـوار سامقة لسفن مسحورة .
افلتت من ميريام آهة نشوة وانبهار ، ونظرت الى بول بعينين داكنتين مفتوحتين على سعتهما . ابتسما وهما يتشربان جمال تلك البقعـة المسحورة سويا فى صمت . وقفت كلارا على بعد خطوات تنظر الى الزهور باكتئاب ، بينما تلاصق بول وميريام يتهامسان . ركع على ركبة واحدة يجمع باقة من أفضل ما فى الحقل من زهور ، متحركا

بسرعة من شجيرة الى شجيرة ، بعصبيته المعهودة ، وهو لا يكف عن الكلام . أما ميريام فأخذت تقطف الزهور بوله ، متمهلة ، تتحسس كل زهرة . بدا لها ، كعهدها به ، مدققا أكثر مما ينبغي ، وكأنه يقوم بتجربة علمية . ومع ذلك فان الباقات التي جمعها كانت اجمل مما جمعته هي . فهو يحب كل زهرة من تلك الزهور ، وكأنها ملك له وحده ، وله الحق في جمعها ، بينما تعامل زهورها بتقديس ورهبة ، وكأن تلك الزهور حائزة لشيء تفتقده هي .

كانت الزهور حلوة ندية حتى ود او عب منها عبا . لم يستطع أن يكف نفسه ، وهو يجمعها ، عن التهام كئوسها الصغيرة الصفراء . ظلت كلارا تتجول باكتئاب دون أن تمد يدها الى الزهور .

فذهب اليها قائلا :

ـ لم لا تقطفين باقة منها ؟

ـ لا أحب ان أقطف الزهور . من الأفضل أن ندعها حية على سوقها .

ـ لكن أنت ، ألا تحبين أن تمسكي بباقة منها في يدك ؟

ـ المهم هو ما تريده الزهور . وهي تريد أن تترك وشأنها .

ـ لا أظنها تريد ذلك .

ـ لا أحب أن أحمل جثث الزهور .

ـ آه ! هذه فكرة سخيفة مصطنعة . فهي تعيش في الماء بقدر ما تعيش على سوقها . وهي فوق ذلك تبدو جميلة عندما تنسق في فازة .. تبدو رائعة . والانسان لا يقول عن الشيء أنه جثة الا اذا كان منظر ذلك الشيء كالجثة فعلا .

ـ سواء كان جثة أو لم يكن ؟

ـ انها ليست كذلك بالنسبة الى . فالزهرة الذابلة ليست جثة زهرة .

ـ وحتى ان كان الامر كذلك .. فأى حق لك في قطفها .

ـ لأنى أحبها ، وأريدها ، وهناك الكثير منها .

ـ تلك أسباب كافية ؟

ـ نعم . ولم لا ؟ أنا واثق من أن رائحتها ستكون جميلة في غرفتك بنوتينجهام .

ـ فوق أني سأستمتع أيضا بمنظرها وهي تموت على مهل .

ـ لنسلم بذلك . ولكن أى قيمة لموتها ؟

قال ذلك وأولاها ظهره وانصرف عائدا الى ميريام . توقف فى طريقه أكثر من مرة ، فانحنى على شجيرات الزهور الكثيفه المتناثرة فى الحقل بغزارة أشبه بندف كبيرة شاحبة من زبد مضىء .

كانت ميريام قد اقتربت ، بينما ركعت كلارا تتنسم عبير بعض الزهور .

قالت ميريام :

ـ أظننا لا نسىء اليها متى عاملناها بتبجيل . فالمهم الروح التى نقطفها بها .

قال وهو يمد يده بباقته :

ـ نعم . ولكن لا . المرء يقطفها لأنه يريدها . وهذا كل ما فى الأمر .

لزمت ميريام الصمت ، بينما أخذ هو يقطف المزيد من الزهور ، قائلا لها :

ـ انظرى الى هذه الزهور ! قوية وتفيض حياة كأنها أشجار صغيرة ، أو صبية بسيقان سمينة .

كانت قبعة كلارا ملقاة على العشب غير بعيد ، وقد ركعت صاحبتها فى نفس وضعها الأول تتشمم الزهور . بعث فيه مرأى عنقها ومضة حادة من ألم . شىء جميل لكنه لا يزهو بجماله ، بعد . رأى نهديها يتأرجحان قليلا تحت بلوزتها الموسلين ، وخط ظهرها ينطق بجمال فتى يفيض قوة . لم تكن ترتدى مشدا كما تفعل النساء . فجأة ، بغير وعى منه ، وجد نفسه ينثر أوراق زهور زرقاء فوق شعرها وعنقها منشدا :

ـ « من الرماد والى الرماد ، والتراب الى التراب يعود .

« فان رفضك الاله فلابد للشيطان أن يقبلك » .

تساقطت أوراق الزهور مثلوجة اللون على عنقها ، فنظرت اليه بعينين رماديتين مذعورتين تثيران الشفقة ، متساءلة عما هو فاعل بها . تساقطت أوراق الزهور على وجهها فأغمضت عينيها .

وفجأة أحس ، وهو مخيم فوقها ، بسخف فعله ، فقال محاولا أن يدارى حرجه :

ـ بدا لى أنك فى حاجة الى جناز .

ضحكت كلارا ضحكة غريبة وهمت واقفة وهى تلتقط أوراق الزهور التى علقت بشعرها ، ثم تناولت قبعتها فارتدتها ، وثبتتها بدبوس فى شعرها . رأى زهرة ما زالت عالقة بغدائرها ، لكنه لم ينبهها اليها .

جمع أوراق الزهور التى نثرها عليها .
عند حافة الغابة كانت الزهور الزرقاء قد فاضت من بين الاشجار الى الحقول شبه طوفان ناعم أزرق . ذهبت كلارا اليها ، فسار فى أعقابها . تلك الأزهار تروق له .
قال لها :
ـ انظرى كيف انفلتت خارجة من الغابة .
استدارت اليه بومضة من دفء وعرفان جميل وقالت باسمة :
ـ نعم .
أحس دمه يدق صدغيه .
ـ انها تذكرنى بسكان الغابات القدامى والذعر الذى لا شك أنه انتابهم عندما وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الفلوات المفتوحة .
سألته قائلة :
ـ أتظن ان الذعر تملكهم حقا ؟
ـ ترى من كان أشدهم ذعرا ؟ تلك القبائل التى خرجت من عتمة الغابات ليفجأها كل هذا الضوء ، أم تلك القبائل التى تركت الضوء وراءها لتتسلل الى عتمة الغابات ؟
اجابت قائلة :
ـ فى ظنى أن هؤلاء الآخرين كانوا أشد الجميع ذعرا .
ـ نعم . أنت تحسين احساس مخلوقة من مخلوقات الفلوات المفتوحة تحاول أن تزج بنفسها فى الظلام . أليس كذلك ؟
اجابت بنبرة غريبة :
ـ من أين لى أن أعرف ؟
فانتهى حديثهما عند ذلك الحد .
كان المساء يتكاثف على الأرض ، وقد أمسى الوادى ممتلئا بالظلال . مربع واحد صغير من الضوء كان يقف أمام مزرعة كروسلى باتك . لكن الظلمة تصعد كأمواج تتعالى من الأرض ، وما تبقى من ضوء النهار يسبح فوقها ، على قمم التلال . أقبلت ميريام على مهل ووجهها فى باقة الزهور الكبيرة التى تحملها فى يدها ، تخوض حتى كاحليها فى زبد الزهور الازرق والاشجار وراءها تتخذ أشـــكالها ، وقد أمست ظلالا كلها .
قالت لهما :
ـ آن لنا أن نذهب .
فاستدار ثلاثتهم وقد خيم عليهم الصمت .
ثم قال بول :

ـ كانت نزهة ممتعة ، أليس كذلك ؟
فغمغمت ميريام بالايجاب ، بينما لزمت كلارا الصمت .
سألها ملحا :
ـ الا ترين ذلك ؟
سارت رافعة رأسها ، دون أن ترد عليه . لكنه استطاع أن يستشف معاناتها رغم مشية اللامبالاة التي اصطنعتها .
قرابة ذلك الوقت اصطحب بول أمه الى لينكولن . كانت مبتهجة متحمسة كعهدها كلما خرجا معا ، لكنها بدت ضئيلة هشـة وهي جالسة قبالته في عربة القطار ، حتى انتابه احساس عابر بأنها تتسرب من بين أصابعه . واذذاك أحس أنه يود لو أمسك بها ، وثبتها في مكانها ، أو ، بالاحرى ، كبلها . أحس أنه يجب أن يظل ممسكا بها في يده .
عندما اقترب القطار من المدينة وقفا كلاهما الى النـافذة يمدان البصر بحثا عن الكاتدرائية .
صاح بها :
ـ ها هي ذي أخيرا يا أماه !
نظرا الى الكاتدرائية العظيمة رابضـة والسـهل يترامى تحتها . أخذت عيناها الزرقاوان تتأملان المنظر بهدوء ، فبدت من جديد بعيدة عن متناول يده . شيء من السكينة الابدية للكاتدرائية السامقة ، زرقاء مهيبة تطاول السماء ، بدا كما لو كان ينعكس داخلها ، وشيء من القدر المحتوم الذي تنطق به . ماكان قد كان . بكل ارادته الفتية لم يستطع أن يغير منه شيئا . رأى وجهها ، مازال جلده غضا ، موردا ، مزغبا ، رغم التجاعيد المتشعبة من ركني العينين . جفناها ثابتان ، غائران قليلا ، وفمها مطبق أبدا على مرارة من خيبة الامل . ملامح الوجه .. كلها فيها نفس اللمحة من الابدية ، كأنما قد وقفت أمـام القدر أخيرا ، وجها لوجه .
ـ انظري يا أماه ، كم هي ضخمة مخيمة فوق المدينة ! تصوري كم من شارع يمتد في ظلها . انها تبدو أكبر من المدينة كلها .
صاحت أمه والحياة تشرق فيها من جديد :
ـ صدقت ، صدقت !
لكنه قد رآها جالسة تحدج الكاتدرائية ، عبر النافذة ، بنظرة لاتحيد ، وجهها جامد والعينان ثابتتان ، والوجه والعينان تنعكس فيهما صرامة الحيـاة التي لاترحم . صرامـة التجـاعيد التي تحف

بالعينين والفم المطبق جعلته يحس انه موشك على الجنون .
تناولا وجبة اعتبرتها تبذيرا صارخا .
قالت وهى تأكل شريحة اللحم :
ـ هل تظننى فرحة بوجبة كهذه ؟ أبدا . صدقنى انى لا أحب مثل هذا الاسراف . فكر فى نقودك التى تضيع هدرا .
فقال لها :
ـ دعك من نقودى . هل نسيت انى فى صحبة فتاتى التى أحبها ؟
اشترى لها بعد ذلك باقة من البنفسج الأزرق ، فقالت له آمرة :
ـ كف عن هذا التبذير فورا ياسيدى ؟ كيف استطيع أن أفعل شيئا كهذا ؟
ـ من قال لك افعلى شيئا ؟ قفى ساكنة لحظة !
وقف فى منتصف الشارع الرئيسى يشبك باقة الزهور فى معطفها ، فقالت متصنعة الاستهجان :
ـ امرأة عجوز مثلى !
ـ ألا ترين ؟ اريد أن يظننا النـــاس من علية القوم . تظـــاهرى بالعنطزة !
فلم تتمالك من الضحك :
ـ والله أضربك على رأسك !
لكنه قال آمرا :
ـ هيا ! صعرى خدك ، وتصنعى الخيلاء !
استغرقا ساعة بأكملها فى المرور بذلك الشارع . فكل ركن فبه كان يبهرها ، يشدها فتقف مســـــحورة وتصيح من فرط عجب ونشوة .
تقدم منها رجل فرفع قبعته وانحنى لها قائلا :
ـ هل تسمح سيدتى بمشاهدة المدينة فى صحبتى ؟
فأجابته قائلة :
ـ كلا ، شكرا لك . فمعى ابنى .
مما أغضب بول ... أنها لم تترفع بما فيه الكفاية على الرجل .
صاحت به ضاحكة :
ـ رح ياشيخ !
وفى اللحظة التالية :
ـ ها ! هذا بيت اليهودى . أتذكر تلك المحاضرة يابول ؟
لكن تسلق التل الى الكاتدرائية أرهقها . لم يلحظ مابها من تعب

فى أول الأمر ، ثم وجدها فجأة وقد عجزت عن الكلام ، فأدخلها حانة صغيره لتستريح .
قالت له بعد أن استردت أنفاسها :
ــ لم يحدث شيء . كل ما فى الأمر أن قلبى قد شاخ قليلا ، وهو أمر متوقع فى مثل سنى .
لم يجب ، بل جلس ينظر اليها ، وقد أحس قلبه تعتصره من جديد قبضة من حديد محمى . ود لو انفجر باكيا ، أو حطم كل ماحوله فى فورة من جنون الغضب .
خرجا من الحانة ليكملا رحلتهما ، خطوة خطوة ، ببطء بالغ ، وكل خطوة تبدو كحجر ثقيل على صدره . أحس كما لو كان قلبه يوشك أن ينفجر . وأخيرا وصلا الى قمة التل ، فوقفت مسحورة ، تنظر الى أبواب القلعة ، تنظر الى واجهة الكاتدرائية ، وقد نسيت نفسها تماما .
صاحت أخيرا :
ــ هذا أفضل مما تصورت!
لكنه كره المنظر كله . سار فى أعقابها حيثما ذهبت ، مستغرقا فى تفكير مهموم . جلسا داخل الكاتدرائية معا ، ثم حضرا صلاة صغيرة أقيمت فى ركن المرتلين .
سألته فى خشية واضحة :
ــ أتظن أنه من حقنا أن نحضر هذه الصلاة ؟
ــ نعم . أنت لاتظنين أنهم سيكونون من الصفاقة بحيث يطردوننا !
فصاحت به :
ــ لاشك عندى فى ذلك اذا سمعوا اللغة التى تتكلم بها .
أضاء وجهها بالفرح والسلام ثانية أثناء القداس ، بينما شيء فى داخله يغلى غضبا حتى ليود لو أطلق العنان لهياجه فجأر بأعلى عقيرته وهشم كل ماحوله .
فيما بعد ، وهما مستندان على الحائط يطلان على المدينة تحتهما ، أفلتت الكلمات منه فجأة :
ــ لم لاتكون للمرء أم صغيرة ؟ لم يجب أن تكون عجوزا ؟
ضحكت أمه قائلة
ــ أما والله ! وماحيلتها فى ذلك ؟
ــ ولم لم أكن أنا الابن الأكبر ؟ يقولون أن الأبناء الصغار يفوزون بكل المزايا ــ لكن الابن الأكبر يفوز بالأم الصغيرة . كان ينبغى لك أن

تلدينى أولا ، فأكون ابنك الاكبر .
قالت مدافعة عن نفسها :
ـ لم تكن لى يد فى الأمر . وعلى أية حال فأنت الملوم بقدر ما أنا ملومة .
استدار اليها وقد غاض لونه والتمعت عيناه غضبا ، فانفلتت الكلمات من فمه بجنون عنين :
ـ لماذا أنت عجوز ؟ لم لاتقدرين على المشى ؟ لم لاتستطيعين أن تخرجى معى الى حيث أريد ؟
أجابته قائلة :
ـ منذ بضع سنين كنت أستطيع أن أسبقك فى تسلق هذا التل .
صاح وهو يضرب الحائط بجمع يده :
ـ ومافائدة ذلك بالنسبة الى الآن ؟
ثم انقلب غضبه الى شكاة :
ـ حرام عليك ياصغيرة أن تمرضى ، انه ...
صاحت محتجة :
ـ أمرض ! لقد تقدمت بى السن قليلا ، ويجب عليك أن تحتملنى . هذا كل ما فى الأمر .
خيم عليهما الصمت ، فقد وصلا الى نقطة لم يجرؤ أى منهما على الحديث بعدها . استردا مرحهما بعد تناول الشاى ، ثم ذهبا يشاهدان القوارب فى النهر ، فأخبرها عن كلارا . انهالت عليه بأسئلة لا حصر لها :
ـ ومع من تعيش اذن ؟
ـ مع أمها .
ـ وهل لديهما دخل كاف ؟
ـ لا أظن ذلك . أعتقد أنهما تشتغلان بصناعة الدانتلا .
ـ وما الذى يشدك اليها يابنى ؟ أى شىء يسحرك فيها ؟
ـ أنا لا أجدها ساحرة يا أماه . لكنها لطيفة . وهى تبدو صريحة ، لاشىء من اللؤم فيها ، لاشىء البتة .
ـ لكنها تكبرك سنا بكثير .
ـ انها فى الثلاثين ، وأنا قد تخطيت الثالثة والعشرين .
ـ لكنك لم تخبرنى ما الذى يعجبك فيها .
ـ لم اخبرك لأنى لا أعرف ... قد يكون ما تظهره من تحد ، أو طريقتها الغاضبة .

أخذت مسز مورل تقلب الأمر على وجوهه • انهـــا على استعداد الآن لان ترحب بعلاقة حب تربط بين ابنها وبين أى امرأة ، قد لاتعرف ماذا • لكنه دائم القلق سريع التقلب • تنتابه نوبات غضب عاتيـــة فجأة ، ثم يعود مكتئبا . انها تود لو تعرف على امرأة لطيفة ـ انها لاتعرف ماذا تريد ، وتفضل أن تدع ذلك الذى تريده مبهما . على اية حال هى ليست ضد حكاية كلارا هذه .

وآنى هى الأخرى ستتزوج عما قريب . كان ليونارد قد ذهب ليعمل فى برمينجهام . جاء لزيارتهم فى احدى العطلات فقالت له :

ـ لاتبدو على مايرام ياولدى . مالك ؟

قال :

ـ لا أدرى • يعنى لابأس ياما •

فهو يدعوها « ما » منذ الآن ، بطريقته الصبيانية .

سألته :

ـ هل تقيم فى مسكن صحى ؟

ـ نعم •• نعم • لكنها حياة كئيبة • يشرب المرء الشاى وحـده، فاذا خطر له أن يسكبه من الفنجان فى الطبق ليرشفه لم يجد من يؤنبه على ذلك . فلا يكون للأمر طعم !

ضحكت مسز مورل قائلة :

ـ وذلك هو مايجعلك هزيلا هكذا ؟

قال فجأة وهو يلوى اصابعه ناظرا الى حذائه :

ـ لا أدرى . أنا اريد أن أتزوج .

ساد الصمت لحظة ، ثم صاحت به :

ـ ما هذا ! ألم تقل انك تريد أن تنتظر عاما آخر ؟

فأجاب بعناد :

ـ نعم ، قلت •

تفكرت فى الأمر لحظة ثم قالت :

ـ أنت تعلم أن آنى مسرفة قليلا . لم تدخر حتى الآن الا احد عشر جنيها . وأنا اعرف انك لم تتح لك الفرصة لتدخر شيئا يذكر .

تضرج وجهه حتى احمرت أذناه ، وقال :

ـ معى ثلاثة وثلاثون جنيها .

ـ لن يكفيكما مبلغ كهذا .

لم يقل شيئا ، مستمرا فى تلك الحركة العصبية من يديه :

ـ وأنت تعلم أنى ليس لدى شىء •

قاطمها صائحا وقد احتقن وجهه خجلا :
- لم يخطر لى ببال أن آخذ منك شيئا ياما !
- كلا يابنى . أعرف ذلك . لكنى كنت أود أن يكون معى ما أساعدكما به . قل خمسة جنيهات تكاليف الحفل وما الى ذلك ... يتبقى معكما تسعة وعشرون جنيها . ما الذى تستطيعانه بمبلغ كهذا ؟
أخذ يلوى أصابعه ، عنيدا ، لا حيلة له ، غير ناظر اليها ، لكنه مصمم على ماعقد العزم عليه .
- ولكن هل تريد حقا أن تتزوج ؟ هل تحس كما لو كان من الضرورى أن تتزوج الآن ؟
أجابها بنظرة واحدة صريحة من عينيه الزرقاوين ، قائلا :
- نعم .
- اذن فعلينا جميعا أن نبذل كل ما فى وسعنا لتحقيق رغبتك ياولدى .
عندما رفع وجهه لينظر اليها كانت عيناه مغرورقتين بالدموع . قال متلعثما :
- لا أريد أن تحس آنى أنها قد خرجت من الصفقة خاسرة .
- لم يابنى ؟ أنت ولد مستقيم ، تشغل وظيفة لا بأس بها . لو كنت قد وجدت رجلا مثلك فى صباى لتزوجته بغير تردد حتى لو لم يكن فى جيبه الا أجر الاسبوع الماضى . قد تجد آنى بعض الصعوبات فى بداية حياتها . لكن كل الفتيات هكذا . يتوقعن البيت الجميل اللائى يتصورن انهن سيحصلن عليه . أنا عندما تزوجت بدأت حياتى فى بيت مؤثث بأثاث ثمين . ليس الأثاث هو كل شىء .
وهكذا تم الزفاف سريعا . جاء آرثر ليحضره ، فكان رائعا فى بزته العسكرية ، وبدت آنى جميلة ، فى ثوب زفاف رمادى تستطيع بعد ذلك أن ترتديه فى أيام الأحاد . وصفها مورل بالحمق لاقدامها على الزواج ، وعامل عريس ابنته بفتور . أما مسز مورل فزينت قبعتها بشرائط بيضاء ، وبلوزتها بكلفة من نفس اللون ، فلم تنته من مداعبات ولديها لها لهذه الفخفخة . وأما ليونارد فكان ، كالعهد به ، ودودا مرحا وان أحس بالخجل من نفسه لكونه محط الأنظار . لم يستطع بول أن يجد سببا يبرر اقدام آنى على الزواج . كان بينهما ود متبادل قديم جعله يخشى ماسوف تعانيه من بلايا الحياة الزوجية . ومع ذلك عزى نفسه بالأمل : فقد تكون الزيجة موفقة بعد كل شىء .
كان آرثر وسيما بشكل ملفت فى ردائه العسكرى بألوانه القرمزية

والصفراء ، وقد أدرك هو ذلك ، لكنه فى قرارة نفسه كان خجلا من ذلك الرداء . بكت آنى فى المطبخ وهى تودع أمها حتى تقرحت عيناها ، وذرفت مسز مورل بعض الدموع .. ثم ربتت على ظهر ابنتها قائلة :

ــ لاتبك يا ابنتى . سيكون طيبا معك .

ضرب مورل الأرض بقدمه قائلا أنها حمقاء اذ تتورط فى شيء كهذا فتضع غلا فى عنقها ، بينما وقف ليونارد ضائعا ، شاحب الوجه ، وقد بلغ آخر درجات التوتر . قالت له مسز مورل :

ــ سأتركها أمانة فى عنقك ياولدى ، واعتبرك مسئولا عنها .

فقال الفتى وقد أوشكت المحنة أن تقضى عليه :

ــ تستطيعين الاعتماد على .

وبذلك انتهى كل شيء .

عندما صعد مورل وآرثر الى الفراش ، جلس بول ، كعادته ، يتحدث مع أمه :

ــ أنت لست آسفة لزواجها يا أماه ، أليس كذلك ؟

ــ لست آسفة لزواجها .. ولكن .. يبدو غريبا أن تتركنى وتذهب. بل ويبدو لى من المؤلم أن تفضل الذهاب مع ليونارد على البقاء معى . كل الامهات هكذا .. أعرف أنى حمقاء !

ــ وهل ستعانين بسبب فراقها ؟

ــ عندما أتذكر يوم عرسى ، لا أستطيع الا أن اتمنى لها حياة مختلفة .

ــ لكنك تستطيعين أن تطمئنى الى أنه سيحسن معاملتها ؟

ــ نعم ، نعم . يقولون انه ليس كفئا لها . لكن الرجل فى رأيى ، متى كان رجلا بحق ، مثله ، وكانت الفتاة مغرمة به ، يستطيع أن يهيىء لامرأته حياة طيبة . واعتقادى أن كلا منهما سيسعد الآخر .

ــ اذن فأنت لست نادمة ؟

ــ لم أكن لأسمح بزواج ابنتى ابدا لو لم أكن واثقة من أن الرجل أصيل .. ورجل بحق . ومع ذلك فقد ترك ذهابها فراغا فى حياتى . ركبتهما التعاسة معا ، وودا لو عادت آنى ، فالتأم الشمل بها .

بدا لبول أن أمه قد بدأت تحس بالوحدة . رآها كالضائعة فى بلوزتها الحريرية السوداء بوشيها الأبيض . قال لها :

ــ على أية حال يا أماه . أنا لن اتزوج .

ــ آه ! كلهم يقولون ذلك ياولدى . أنت لم تقابل المرأة التى تصلح لك بعد . لكن الأمر لن يطول بك .

ـ لكنى لن أتزوج يا أماه . سأعيش معك . وستكون لنا خادمة .
ـ نعم يابنى . ما اسهل الكلام . لكنا سنرى عندما يؤون الأوان .
ـ أى أوان ؟ لقد قاربت الثالثة والعشرين .
ـ نعم . فأنت لست ممن يتزوجون صغارا . لكنك خلال ثلاث سنوات ...
ـ سأكون معك ، كما أنا الآن .
ـ سنرى يا ابنى ، سنرى .
ـ لكنك لا تريدين أن أتزوج .
ـ اه ! لا أحب أن أراك تقضى حياتك دون أن يعنى بك أحد ويقوم ... كلا .
ـ أنت ترين أنى يجب أن اتزوج اذن ؟
ـ كل رجل يجب أن يتزوج ان آجلا وان عاجلا .
ـ لكنك تفضلين أن يكون ذلك آجلا .
ـ سيكون الامر صعبا على .. صعبا للغاية . صدق من قال « ابنى يظل ابنى حتى تأخذه زوجته منى » .
« لكن ابنتى تظل ابنتى حتى وان أبعدها زوجها عنى »
ـ وأنت تتصورين أن ادع زوجتى تأخذنى منك ؟
ابتسمت مسز مورل قائلة :
ـ لا تستطيع أن تطلب منها أن تتزوجك وتتزوج أمك معك .
ـ تستطيع أن تفعل مايحلو لها ، فلا حاجة بها الى أن تدخل بينى وبينك .
ـ لن تفعل طبعا .. حتى تصبح فى قبضة يدها ، واذ ذاك سترى .
ـ لن أرى أبدا . لن أتزوج أبدا طالما انت لدى . لن افعل .
فصاحت :
ـ لكنى لا أريد أن أتركك وحدك بغير رفيق يا بنى .
ـ لن تتركينى . كم عمرك ؟ ثلاث وخمسون ؟ ستعيشين حتى الخامسة والسبعين ، واذذاك أكون أنا قد أصبحت رجلا بدينا فى الرابعة والاربعين ، فأتزوج ، امرأة رصينة فى مثل سنى . أرأيت ؟
جلست أمه مستغرقة فى الضحك ، ثم قالت له :
ـ اذهب الى الفراش . اذهب الى الفراش .
ـ وسيكون لنا بيت جميل ، أنت وأنا ، فتقوم خادم على خدمتك فيه ، ويصبح كل شىء على ما يرام . من يدرى ، قد أصبح ثريا بفضل لوحاتى .

ـ هلا ذهبت الى الفراش ؟

ـ واذذاك أشترى لك عربة بحصان · تصورى نفسك ·· سيدة صغيرة أنيقة أشبه بالملكة فيكتوريا ، تقود عربتها الفاخرة .

ضحكت قائلة :

ـ قلت لك اذهب فنم !

قبلها وانصرف . كانت مشاريعه للمستقبل لاتتغير أبدا .

جلست مسز مورل وحدها بعد ذهابه تفكر مهمومة ـ فى ابنتها ، فى بول ، وفى آرثر . أسرتها أسرة متماسكة . يجب أن تعيش ، لتكون مع أطفالها . فالحياة غنية بالوعود بالنسبة اليها . بول يريدها ، وكذلك آرثر . آرثر لايدرك مدى حبه العميق لها . فهو دائما ابن اللحظة العابرة . والحياة لم ترغمه بعد على ادراك حقيقة نفسه . الجيش قد علم جسده النظام ، ولكن ليس روحه · فهو فى أتم صحة ، وسامته تخطف الأبصار . شعره الداكن القوى لاصق برأسه الصغير ، شىء طفلى فى شكل انفه ، وجمال أشبه بجمال الفتيات فى عينيه الزرقاوين . لكن فمه ، تحت شاربه البنى ، فم رجل ، بحمرته وامتلاء شفتيه ، وفكه قوى . فمه فم أبيه . والأنف والعينان ورثهما عن أهله ، وكلهم أناس يتصفون بالوسامة ، وضعف المبادىء · فهى قلقة دائما فيما يخصه . ترى ماذا سيكون مستقبله ؟

لم تعد عليه حياة الجيش بكبير نفع فى حقيقة الأمر . فهو يضيق غاية الضيق بسلطة الصف ضباط ، ويكره الطاعة العمياء المفروضة عليه كما لو كان حيوانا · لكنه أعقل من أن ينطح الحائط برأسه ، ولذلك انصرف الى محاولة الاستمتاع بحياته الجديدة قدر ماستطاع ، مستغلا فى ذلك مواهبه . فهو يحسن الغناء ، ويخلق جوا من المرح حيثما حل . حقيقة أنه كثير الشجار ، لكن معاركه الصغيرة من ذلك النوع الذى يغض قادته الطرف عنه بسهولة ، باعتباره من شيم الرجال . وهكذا توصل الى أن يقضى وقتا طيبا فى الجيش ، ولو على حساب احترامه لنفسه ، معتمدا فى كسب عطف قادته على وسامته ، وقوامه المشوق ، وسلوكه المهذب ، وتعليمه الذى يفوق تعليم أقرانه . ولم يخب فأله ، فحصل دائما على جل مايريد . ومع ذلك لم يفارقه قلقه ، وكأنما شىء فى داخله لايدعه فى سلام . فهو لايهدأ ، لايقر له قرار ، ولا ينفرد بنفسه أبدا . سلوكه تجاه أمه كان أقرب الى التذلل والانكسار . أما بول ، فهو يعجب به ، ويحبه ، ويزدريه قليلا . وبول يعجب به هو الآخر ، ويحبه ،

ويزدريه قليلا .

كانت مسز مورل قد ورثت بضعة جنيهات عن أبيها ، فقررت ان تشترى بها خلاص ابنها من حياة الجندية . فجن الفتى فرحا . وهو الان أشبه بتلميذ فى عطلة من مدرسته .

كان مغرما منذ الصغر ببياتريس وايلد ، فانتهز فرصة اجازته ليعيد ما انقطع من صلته بها . كانت الفتاة قد باتت اكثر قوة وأصح بدنا ، مما أتاح له أن يصحبها فى جولات عديدة سيرا على الأقدام ، متأبطا ذراعها على طريقة الجنود ، بشىء من التصلب . ثم يدعوها الى البيت ، فتعزف على البيانو ويصاحبها هو بالغناء ، واذ ذاك يفتح ياقة ردائه ، ويحتقن وجهه ، وتلتمع عيناه ، وهو يرفع عقيرته بأغنية مما تعلمه فى الجيش ، ينشدها بصوت رخيم . بعد ذلك يجلسان جنبا الى جنب على الأريكة ، فيبدو فى جلسته كأنما يستعرض جسده مزهوا أمامها ، دون أن تكون به حاجة الى ذلك : فالفتاة متيمة به ، بالصدر القوى ، والعضل المفتول ، والفخذين فى سروال الجندية اللاصق بهما .

وهو يحب أن يرتد الى لهجة عمال المناجم عندما يتحدث اليها ، ويدعها أحيانا تدخن معه ، لكنها لاتزيد عن بضعة انفاس تشدها أحيانا من لفافته .

قال لها ذات مساء وهى تمد يدها الى اللفافة :

ـ آه ! كلا ياحلوتى ! ممنوع . أو اقل لك ؟ سأعطيك قبلة بالدخان ان احببت .

قالت :

ـ نعم ؟ أريد نفسا لا قبلة .

ـ وهل قلت شيئا ؟ ستحصلين على النفس ، ولكن مع القبلة .

قالت وهى تحاول اختطاف اللفافة من بين شفتيه :

ـ أريد نفسا قلت لك .

كان جالسا وكتفه لصق كتفها ، وهى صغيرة الحجم سريعة الحركة كالبرق ، فأفلت بسيجارته فى اللحظة الأخيرة ، قائلا :

ـ قلت سأعطيك قبلة بالدخان .

قالت وهى تجلس على الأريكة مغضبة :

ـ أنت ولد ثقيل الظل يا آرتى مورل .

ـ قبلة بالدخان ؟

قالت :

ــ بعينك !

وأشاحت عنه .

شد نفسا من اللفافة ، ومط شفتيه والدخان فى فمه ، ثم قرب وجهه من وجهها وشاربه البنى الداكن نافر فوق شفتيه العليا كفرشاة . نظرت الى الشفتين القرمزيتين ممدودتين اليها ، ثم اختطفت السيجارة من بين أصابعه وانفلتت هاربة . لكنه قفز فى أعقابها ، فاختطف المشط من مؤخر رأسها ، فاستدارت اليه وألقت بالسيجارة فى وجهه . التقطها من الأرض ، فوضعها بين شفتيه ، ثم جلس على الأريكة .

صاحت به :

ــ بايخ ! اعطنى مشطى !

كانت تخشى أن ينساب شعرها الذى عقصته من اجله خصيصا ويختل رونقه . وقفت أمامه واضعة كفيها على جانبى رأسها ، فأخفى المشط بين ركبتيه قائلا :

ــ ليس معى .

أخذت اللفافة تهتز بين شفتيه وهو يضحك منها .

ــ كذاب !

ضحك وهو يريها كلتا يديه :

ــ ليس معى قلت لك . حتى أنظرى !

صاحت :

ــ يالك من شيطان !

ثم اندفعت نحوه محاولة استخلاص المشط من تحت ركبته . بينما هى تصارعه ، محاولة أن تخمشه بأظافرها خلال قماش سرواله، استغرق فى الضحك حتى استلقى على ظهره فوق الأريكة ، وجسده كله يهتز بتأثير ضحكاته . سقطت السيجارة من فمه فكادت أن تلسع عنقه . احتقن وجهه تحت السمرة الخفيفة التى لوحته بها الشمس فى تدريبات الجيش ، وضحك حتى أعمت الدموع عينيه الزرقاوين ، وأوشك أن يختنق . هم جالسا وهى تعيد المشط الى شعرها .

قال لها بصوت ينم عن اضطرابه :

ــ دغدغتنى يابياتريس !

فلم يدر الا ويدها الصغيرة البيضاء كالبرق تصفعه على وجهه . قفز واقفا ، وقد بوغت بصفعتها ، يحملق فى وجهها بغضب ، فقابلته بنظرة لا تقل غضبا . مالبث خداها أن تضرجا خجلا ، فخفضت

عينيها ، وطأطأت رأسها ، ثم خرجت من المطبخ لتصلح شـعرها .
اختلت بنفسها فذرفت بضع دموع ، وان لم تدر لم ..
عندما عادت كانت متجهمه مطبقة الشفتين . لكن ذلك كان مجرد قناع يخفى ما اشتعل فيها من لهب . وجدته حيث تركته ، مهوش الشعر ، مغضبا ، على الأريكة . جلست قبالته ، فى المقعد الوثير ، دون أن ينطق أحدهما ، ودقات الساعة تتعاقب فى الصـمت كضربات متلاحقة .
قال أخيرا ، نصف معتذر :
ــ أنت قطة صغيرة شرسة يابيت .
فأجابت :
ــ وأنت ؟ لا يجب أن تكون قليل الحياء .
طال بينهما الصمت من جديد . أخذ يصفر لنفسه شأن من يحاول أخفاء اضطرابه بالمكابرة . فجأة همت واقفة فذهبت اليه وقبلتـه ، ثم قالت ساخرة :
ــ لا تبتئس يامسكين !
رفع اليها وجهه بابتسامة غريبة . قال يدعوها :
ــ قبلة ؟
ــ لا تظننى أجرؤ ؟
قال متحديا وفمه مرفوع اليها :
ــ هيا ؟ أرنى !
ببطء ، بابتسامة راعشة غريبة بدت كما لو كانت تبتسمها بكل جسدها ، انحنت عليه فوضعت فمها على فمه . طوقتهـا ذراعاه لفوره . لم تكد قبلتهما الطويلة تنتهى حتى أمالت رأسها الى الوراء ثم تحسست عنقه بأصابعها فى رفق تحت ياقة سترته المفتوحة ، وأغمضت عينيها ، فأسلمت نفسها فى قبلة أخرى من جديد .
فعلت ما فعلته بارادتها الحرة ــ ما أرادته فعلته ــ دون أن تحمل أحدا مسئوليته .

***

أحس بـول بالحيـاة تتغير من حوله . أيام الشـباب ولت وانقضت . البيت صار بيت أناس بالغين . آنى قد باتت امـرأة متزوجة ، وآرثر يجرى وراء ملذاته فى مسارب يجهلها أهله . انقضى زمن طويل وهم يعيشون فى البيت معا : ويخرجون ليقضـوا بعض الوقت ثم يعودون . أما الان فالحياة بالنسبة لآنى وآرثر قد باتت

خارج بيت الام . نعم يجيئان احيانا ، ولكن لقضاء عطلة ، او بضعة ايام من الراحة ، ثم يذهبان . وهكذا عرف البيت ذلك الجو الغريب، ذلك الخواء ، كأنما الطيور قد طارت وهجرت عشها • ازداد بول قلقا • آنى وآرثر قد ذهبا • وهو يتحرق شوقا لان يذهب بدوره • لكن البيت بالنسبة اليه جوار أمه • ومع ذلك فهناك شيء آخر • شيء خارج البيت • شيء يريده •

يوما بعد يوم ازداد قلقه ، فلم يعد يقر له قرار . ميريام لم يعد يجد اشباعا لديها . رغبته القديمة المجنونة الى صحبتها أخذت تضعف • أحيانا يقابل كلارا فى نوتينجهام على غير موعد ، وأحيانا يذهب ليلقاها ، ومرات يقابلها فى مزرعة ويللى . لكن تلك اللقاءات الاخيرة كانت الامور تتأزم فيها .. بات هناك مثلث من العداء زواياه بول ، وكلارا ، وميريام • فهو مع كلارا يتكلف لهجة متحذلقة ، دنيوية ، متهكمة ، يعلم أنها سلاح عداء موجع يشهره فى وجه ميريام ، عامدا • لم يعد يقيم وزنا لكل ما كان بينهما • فهى قد تكون صديقته ، وقد تمارس كآبتها معه ما شاءت لها الكآبة : لكن كلارا لا تكاد تطل بوجهها حتى يتلاشى كل شيء ، فينصرف اليها •

قيضت لميريام أمسية واحدة جميلة معه ، وحدهما ، حدثها فيها عن آماله ومخاوفه حتى بدت روحه كلها وكأنها تتعرى أمامها • أحست كما لو كانت ترقب نبض الحياة ذاته فى داخله . طلع القمر ، فسارا الى البيت معا : بدا انه جاء اليها لأنه يحتاجها بكل روحه • أنصتت اليه ، وأعطته كل حبها وكل ثقتها • بدا لها أنه قد جاءها بأفضل ما فى كيانه لتحفظه لديها ، وأنها ستحرص على عطيته طيلة حياتها • السماء ذاتها لن تحرص بنجومها مثلما ستحرص هى على الذى فى روح بول مورل • عادت الى البيت وحدها منتشية ، تترنم روحها غبطة فى قبضة ايمانها •

ثم جاءت كلارا فى اليوم التالى . خرجوا يتناولون الشاى فى الحقول . وقفت ميريام وحدها ترقب مقدم المساء يوشيه الذهب والظلال ، بينما بول يمرح طيلة الوقت مع كلارا . يكوم أكواما من الدريس لا ينى يعليها ، فيقفزون فوقها • مثل هذا العبث لا يروق لها ، فتقف متباعدة . لكن ادجار ، وجوفرى ، وموريس ، وكلارا ، وبول يقفزون ، لا يصيبهم ملل • وبول يبزهم جميعا لانه أخفهم وزنا . وكلارا قد التهب الدم فى عروقها ، ونضح وهجا فى وجنتيها . تجرى فلا تكل كمقاتلات الامازون • وبول مسحور بالطريقة التى

تندفع بها ، وتقفز ، فتطير فوق كومة الدريس ، لتسقط فى الجانب الآخر وثدياها يترجرجان ، وشعرها الغزير سائب تعابثه الريح .
صاح بها :
ــ لقد لمست قدمك قمة الكومة !
صاحت به منفعلة :
ــ كلا !
ثم التفتت الى ادجار مستشهدة به :
ــ لم تلمس قدمى ، أليس كذلك . قفزت قفزة عالية ، أليس كذلك ؟
قال ادجار ضاحكا :
لا استطيع ان أقطع بذلك .
قال بول :
ــ رايت قدمك تلمس القش . لقد هزمت .
صاحت :
ــ لم اهزم .
قــــال :
ــ ذلك واضح لكل ذى عينين .
فصاحت بادجار :
ــ اضربه !
قال ادجار ضاحكا :
ــ لا أجرؤ . يجب ان تضربيه أنت !
وضحك بول :
ــ مهما ضربتنى . لا شيء يمكن ان يغير الحقيقة الماثلة : انك لمست القش بقدمك ، وهزمت .
تملكها غضب عارم . فانتصارها الصغير امام هؤلاء الصــــبية والرجال قد تبخر . اندمجت فى اللعب كطفلة حتى نسيت نفسها ، وها هو يذلها أمامهم .
قالت :
ــ موقفك هذا جدير بالاحتقار .
ضحك ثانية ، بطريقــــة مزقت قلب ميريام . قال مستمرا فى اغاظتها :
ــ كنت أعلم أنك لا تستطيعين القفز من فوق هذه الكومة .
أولته ظهرها . لكنه كان واضحا للجميع انه الشخص الوحيد

الذى تصغى اليه ، او تلقى اليه بالا ، أو تحس به ، وان الامر كذلك بالنسبة اليه . ولقد لذ للرجال أن يشهدوا تلك المعركة بينهما . لكن ميريام ذاقت غصص العذاب ، فى صمت .

أدركت الآن ان بول مستطيع ان يختار الاحقر بدلا من الاسمى ، وانه مستطيع ان يخون نفسه ، أن يغــــدر ببول مورل الحقيقى ، الاعمق . فهو عرضة لان يتردى فى وهدة الخسة والرعونة ، فيجرى وراء شهواته كأى آرثر مأفون ، او كأبيه . أمضها وملأها مرارة ان تجده مستعدا لأن يضيع روحه فى سبيل هذه التفاهة الفثة مع كلارا فانصرفت وحدها ممرورة ، صامتة ، وهو سادر فى غيه .

فيما بعد أحس بالخجل من نفسه ، وأن لم يعترف بوزره . لكنه تدلل لها ، ثم تمرد فثار عليها :

ــ ليس من التدين ان يكون المرء متدينا . فاعتقادى ان الغراب اذ يسبح عبر السماء يكون متعبدا اكثر من أى متدين يقتل نفسه صلاة . لكن الغراب يفعل ذلك لانه يحس بنفسه محمولا الى حيث هو ذاهب ، لا لانه يظن نفسه موعودا بالخلود .

لكن ميريام مؤمنة بأن الانسان يجب ان يكون متدينا فى كل شىء ، وأن الله يجب أن يكون ماثلا ، بالنسبة اليه ، فى كل شىء .

صاح بها :

ــ لا أعتقد فى هذا فلى رأى آخر ..

بدا لها كمن يحاول أن يقنع نفسه أن الله فى جانبه ، ليفعل مايحلو له ، ويجرى وراء ملذاته . كانت هناك معركة طويلة بينه وبينها . فهو عديم الاخلاص لها حتى بمحضر منها . ثم يندم . ثم يمقتها . ويبدأ من جديد . تلك هى الحلقة التى يدوران فيها .

هرأت له روحه بحبها ، وظلت جاثمة فوقها ، محزونة ،مهمومة، متعبدة . وهو يكيل لها الأسى . ثم ينشق على نفسه : يأسى لها ، ويعود فيمقتها . فهى ضميره . وهو يحس بطريقة ما ، انه رزىء بضمير لا طاقة له به . لا يستطيع أن يتركها ، لانها ممسكة بين يديها بخير ما فيه ، ولا يستطيع أن يبقى معها لانهـــا لا تريد أن تتقبل بقيته : ثلاثة أرباعه الباقية . ظل يتقلب فوق صـــخور تلك المأزق الذى وضعته فيه ، حتى أثخنت روحه بالجراح ، بسببها .

عندما بلغت الحادية والعشرين كتب اليها خطابا لم يكن من الممكن أن يكتب الا لها :

« قد تسمحين لى ان اتحدث عن حبنا القديم المنهك هذه المرة الاخيرة . فهو أيضا ، حبنا ذاك ، يتغير ، أليس كذلك ؟ او لنقل : ألم يمت جسد ذلك الحب ويترك لك روحه الصامدة ؟ أنت ترين : أنا مستطيع ان امنحك حبا روحيا ، ولطالما أعطيتك اياه ، لكنى لا أستطيع أن أحبك بالجسد . انظرى : أنت راهبة . ولقد أعطيتك كل ما أنا حرى بأن أعطيه لراهبة قديسة ، كراهب متصوف لراهبة متصوفة . ولا شك عندى فى انك تعتبرين ذلك أعظم ما يمكن أن يعطى لك . ومع ذلك فأنت تتحسرين – أو كنت فى وقت ما تتحسرين – على الحب الآخر . فى كل علاقتى بك لا دخل للجسد . فأنا لا أخاطبك من خلال الحواس بقدر ما أخاطبك بالروح . ذلك هو السبب فى أننا عاجزين عن الحب بالمعنى المألوف . فعلاقتنا ليست علاقة هوى دارج . لكن ما دمنا حتى الآن نعيش بالجسد الفانى ، فان استمرارنا فى العيش جنبا الى جنب يكون مفزعا ، لانى ، بشكل ما ، لا استطيع أن أهزل طويلا معك . أما اذا تزوج الناس فانهم يجب أن يعيشوا معا كبشر يجمعهم ما يجمع البشر من حب واشتهاء ، دون أن يجدوا حرجا أو خطيئة فى ذلك – أما العيش معا كروحين فحسب فلا . هكذا أحس .

« هل ينبغى أن أرسل هذا الخطاب ؟ أشك فى ذلك . لكن من الأفضل أن يفهم أحدنا الآخر . الى اللقاء . »



قرأت ميريام الخطاب مرتين ، ثم أغلقته من جديد . بعد عام كامل عادت ففتحته لتريه لامها .

« انت راهبة ... أنت راهبة ». الكلمات كنصل يغمد فى قلبها، مرة اثر مرة . لم يقل فى يوم شيئا نفذ الى اعماقها بثبات النصل ، بألم الجرح المميت ، كهذه الكلمات .

أجابته بعد الحفل بيومين ، بكلمات ليست كلماتها :

« كانت علاقتنا حرية بأن تكون أجمل ما فى الوجود ، لولا خطأ واحد صغير » ثم أضافت سؤالا واحدا : « فهل هو خطأى ؟ »

رد عليها لفوره من نوتينجهام ، ورفق خطابه نسخة صغيرة من رباعيات الخيام :

« يسعدنى أنك رددت . لكن هدوءك وعدم انفعالك جعلانى أخجل من نفسى . أحسست أنى قلت هراء كثيرا . لطالما اختلفنا أنا وأنت .

لكننا فى الجوهريات سنلتقى دائما ، فيما اظن .

« يجب أن أشكرك لتعاطفك مع لوحاتى ، والكثير منها مهدى اليك، ولكم أترقب نقدك لها ، ولو انه من قبيل الاطراء دائما . انها فرحة رائعة هذه . الى اللقاء . »

***

كانت تلك نهاية المرحلة الاولى فى غرام بول . كان فى ذلك الوقت قد ناهز الثالثة والعشرين ، ورغم أنه ما زال بكرا ، فان غريزة الجنس عنده التى طالما كبحت ميريام جماحها .. وحاولت ان تنقيها وتتسامى بها ، باتت عارمة عنده موشكة على أن تجتاح كل ما فى طريقها . كم من مرة وهو يتحدث الى كلارا دوز أحس دمه يغلظ قوامه ويشتعل ويتسارع فى عروقه ، وأحس بذلك التركز الغريب فى صدره ، كأنما شيء يولد هناك : ذات جديدة ، أو بؤرة وعي جديدة، تنذره بأنه مضطر ، ان آجلا وان عاجلا ، أن يمد يده الى امرأة أو أخرى . لكنه يخص ميريام . وهي موقنة من ذلك يقينا لا يتزعزع الى درجة جعلته يسلم بصحة يقينها .

الفصل الرابع

كلارا

في عامه الثالث والعشرين، اشترك باحدى لوحاته في معرض الشتاء الذي أقيم في نويتنجهام كاسل . وقد أولته مس جوردان ، منذ أن بدأت معرفتها به ، اهتماما تزايد على مر الايام ، حتى دعتـه الى منزلها ليلتقي بغيره من الفنانين . كان الطموح قد تمكن منه ، فبدت له تلك الدعوة فرصة تغتنم .

ذات صباح بينما هو يغتسل ، جاء ساعي البريد فسلـم أمه خطابا . سمعها تصيح صيحة ابتهاج ، أقرب الى الصراخ ، فاندفع الى المطبخ حيث وجدها أمام المدفأة ، وبيدها خطاب تلوح به مهللة كمن أصابها مس . بوغت بمنظرها فصرخ مرتاعا :

ـ ماما ! مالك ؟

طارت اليه فطوقت عنقه بذراعيها لمدى لحظـة ، ثم لوحت بالخطاب في وجهه صائحة :

ـ مرحى يا بني ! كنت أعلم أننا سننجح !

ازداد خوفه وهـو يـرى تلك المـرأة دقيقـة الحجم ، بصرامتها والشيب الذي يجلل رأسها تلتاث هكذا بغتة . رجع ساعي البريد عدوا بعد أن ابتعد عن البيت ، وقد خشي أن يكون في الأمر مكروه . أبصرا غطاء رأسه المائل فوق حافة الستارة القصيرة ، فاندفعت مسز مورل الى الباب صائحة :

ـ فازت لوحته بالجائزة الأولى يا فرد ، وبيعت بواحد وعشرين جنيها !

قال ساعي البريد الشاب وهو صديق للاسرة منذ صباه :

ـ يا الله ! هذه أخبار سارة !

فاستطردت :

ـ وقد اشتراها ميجور موريتون .

قال ساعي البريد وسرور حقيقي يلمع في عينيه :

ـ هذه مسألة لا يستهان بها ، حقيقة يامسز مورل . لا يستهان بهـا .

أسعده أن يكون قد جاءهم بذلك الخطاب الذي يحمل اخبارا سارة .

عادت مسز مورل الى المطبخ ، فانحطت جالسة وهى ترتعد • خشى بول أن تكون قد أساءت فهم الخطاب ، فتصاب بخيبة أمل عندما تقف على حقيقة الامر • لذلك أخذ الخطاب من يدها فتفحصه مثنى وثلاث . وأعاد قراءته • نعم ليس فى الامر شك • الخطاب ، كما قرأته أمه ، يعلن فوزه وبيع لوحته . انحط بدوره جالسا وقلبه يدق بعنف .

صاح بها :

ـ أمـاه !

فقالت محاولة التظاهر بأنها لا تبكى :

ـ ألم أقل لك أننا سننجح ؟

رفع الاناء من فوق النار وتشاغل باعداد الشاى :

ـ أصدقينى القول الآن . لم تصدقى أبدا أنى ...

ـ أبدا يا بنى ، أبدا . لم أتوقع كل هذا طبعا . لكنى كنت أتوقع الكثير .

ـ ولكن هذا •• لم تتصورى أن يحدث •

ـ كلا كلا .. لكنى كنت واثقة أننا سننجح .

ثم تمالكت نفسها واستعادت اتزانها ، فى الوقت المناسب فيما يبدو . جلس وقميصه مفتوح ، يكشف عن الجزء الأعلى من صـدره الفتى يكاد أن يكون كنحر فتاة ، والمنشفة فى يده ، وشعره مبتل غير ممشط •

ـ واحد وعشرون جنيها يا أماه ! ذلك هـو المبلغ الذى كنت تبحثين عن وسيلة للحصول عليه حتى ندفع البدل لآرثر . لا حاجة بك الى الاقتراض الآن • سيكفي هذا المبلغ ويزيد •

ـ انت لا تتصور انى سآخذه كله !

ـ ولم لا ؟

ـ لأنى لن آخذه كله .

ـ طيب خذى انت اثنى عشر جنيها ، وسآخذ أنا تسعة •

أخذا يتناقران على اقتسـام المبلغ • فهى مصرة على الا تأخـذ أكثر من الجنيهات الخمسة التى تنقصها ، وهو مصر على رأيه . وهكذا تغلبا على أصطخاب العاطفة بذلك الشحان الودود •

عاد مورل من المنجم ليلا فى حال الاهتياج ، غير مصدق :

ـ يقولون أن بول ربح الجائزة الأولى بلوحته وأنه باعها للورد هنرى بنتلى بخمسين جنيها .

فصاحت :

ـ يا لهؤلاء الناس ! لا يكفون عن اختلاق الحكايات !
قال وقد فتر حماسه :
ـ ها ! كنت واثقا أن الامر كذبة · لكنهم قالوا انك أنت التى أخبرت فرد هودجيكسون ·
ـ أنا ؟ أنا اقول لذلك الولد حكايات كهذه ؟
قال الرجل مؤمنا :
ـ هـــــا !
لكنه خاب فأله رغم ذلك . فقد أردفت مسز مورل :
ـ لكن الحقيقة أنه ربح الجائزة الأولى فعلا .
فصاح وهو ينحط فى مقعده :
ـ حقيقة ؟ حقيقة والله ؟
أخذ يحدق فى الحائط المقابل بنظرة لا تحيد ، بينما استطردت زوجته :
ـ أما عن الخمسين جنيها ، فهذا كلام فارغ ·
ثم لزمت الصمت برهة وعادت تقول :
ـ حقيقة ان الميجور موريتون اشــــتراها ـ بواحد وعشرين جنيها .
صاح الرجل :
ـ واحد وعشرون جنيها ! غير معقول !
ـ نعم . واللوحة تستحق ذلك وأكثر .
قال :
ـ طبعا . أنا لا أشك فى ذلك . ولكن ! واحد وعشرون جنيهــا مقابل قطعة طلاء كهذه أتمها فى ساعة أو ساعتين ·
سكت وقد ملأه الفخر بابنه ، بينما تظاهرت مسز مورل بأن الأمر لا يستحق كل تلك الضجة .
سأل الأب قائلا :
ـ ومتى سيأخذ النقود ؟
ـ آه ! هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به . عندما تصل اللوحة الى بيت صاحبها فيما أظن .
ساد الصمت · جلس مورل محدقا فى السكرية بدلا من أن يتناول طعامه ، واضعا ذراعه السوداء على سطح المائدة ، بيدها الخشنة التى لم تعرف الا المعول وتراب الفحم . تظاهرت مسز مورل بأنها لم تلحظه وهو يمسح عينيه بظاهر يده فيترك خطوطا مبللة من تراب

الفحم على وجهه الاسود .
قال بصوت خافت :
- نعم • ذلك الولد الآخر كان سيصبح ذا شأن فى الحياة هو أيضا لو لم يقتلوه فى مقتبل عمره •
اخترمتها ذكرى ويليم كنصل بارد ، فتركتها وقد احست انها متعبة فى حاجة الى الراحة •
دعى بول اثر ذلك لتناول العشاء فى بيت مستر جوردان ، فقال لأمه :
- أماه • أريد بذلة سهرة •
قالت الام :
- نعم . توقعت ذلك .
أسعدها ذلك الطلب . ساد الصمت لحظة ثم قالت :
- هناك تلك البذلة التى اشتراها ويليم . أتعرف أنها كلفته اربعة جنيهات وعشر شلنات ؟ ولم يلبسها الا ثلاث مرات .
- أتحبين أن البسها يا أماه ؟
- نعم أظنها ستكون على مقاسك • خاصة السترة • أما البنطلون فيحتاج الى تقصير .
صعد الى الطابق العلوى فارتدى السترة والصدار . عندما نزل اليها بدا منظره غريبا فى قميص السهرة والسترة السوداء بصدارها الانيق فضفاضة عليه •
قالت أمه وهى تمرر يدها على كتفه تتحسس السترة :
- يستطيع الخياط أن يجعلها على مقاسك • قماشها جميل • لم يطاوعنى قلبى أن أعطى البنطلون لأبيك ، وخيراً فعلت •
عاودتها ذكرى ابنها الأكبر وهى تتحسس الياقة الحريرية . لكن هذا الابن حى وابقى ، فى ثياب الآخر الذى فقدته . تحسست ظهره بيدها هابطة من كتفيه الى خصره كأنما تطمئن الى وجوده • انه حى ، وملك يمينها . اما الآخر فميت .
ذهب الى حفل عشاء وراء آخر فى بذلة ويليم . فى كل مرة كان قلب الأم يفيض غبطة وفخرا . لقد خطا خطواته الأولى نحو النجاح ، وبدأ حياته . الأزرار التى اشترتها لويليم كانت تزين صدر قميصه ، أو ، بالحقيقة ، قميص أخيه . لكنه ذو قوام رشيق . وجهه خشن الملامح نعم ، لكنه ودود يبعث دفئا فى النفس ويريح العين . لم يبد فى ثيابه جنتلمانا بمعنى الكلمة ، لكنه بدا لها رجلا ملء ثيابه .

كان يعود من كل مكان يذهب اليه ، فيروى لها ما حدث له تفصيلا ، ويعيد على مسامعها كل كلمة قيلت فتحس كما لو كانت قد صحبته وأرت كل شيء معه . أما هو ... فيتحرق شوقا الى أن يقدمها الى أولئك الاصدقاء الجدد ، الذين يتناولون العشاء فى السابعة والنصف .

قالت له :

ــ رح يا شيخ ! وأى شيء يجعلهم راغبين فى معرفتى ؟

فصاح مستنكرا قولها :

ــ انهم يريدون أن يتعرفوا اليك . اذا كانوا يريدون ان اصادقهم ــ وهم يقولون انهم يريدون ذلك ــ فانهم بغير شك يريدون التعرف اليك ، لأنى ان كنت قد نجحت فى شيء ، فأنت قد نجحت مثلى تماما.

قالت ضاحكة :

ــ رح يابنى رح !

لكنها بدأت ترحم يديها قليلا من العمل . فيداها ، كيدى زوجها ، لم تعرفا الا خشونة العمل طوال حياتهما ، فى جلدهما لمعة من طول تعاملهما مع الماء الساخن ، ومفاصلهما متورمة قليلا . لكنها بدأت تحرص على أن تبعدهما عن الصودا ما استطاعت . تحسرت على هاتين اليدين : كانتا صغيرتين رائعتين فى يوم من الأيام . وعندما أصرت آنى على أنه يجب عليها أن ترتدى بلوزات أكثر اناقة ، تلائم سنها ، استسلمت بسهولة لاقناع ابنتها . بل وذهبت الى حد السماح لأولادها بوضع شريط من القطيفة السوداء فى شعرها ، ولو انها حاولت ان تتظاهر باستهجان ذلك كله ، قائلة أن منظرها قد بات مضحكا ولا شك . لكن بول احتج قائلا أنها تبدو الآن على حقيقتها : سيدة بكل معانى الكلمة ، تماما كحرم الميجور موريتون ، والطف منها الف مرة . كانت الأسرة تخطو حثيثا نحو مستوى أفضل. الا مورل . فهو وحده الذى لم يتغير ، بل وأخذ يتدهور على مهل .

كان بول وأمه فى تلك الآونة يستغرقان فى مناقشات طويلة عن الحياة . الدين ، فيما يخصه ، تراجع الى مؤخرة الصورة . فقد أزاح من طريقه كل المعتقدات التى كانت حرية بأن تغل قدميه : سوى الارض ، ووصل الى ايمان بأن المرء يجب ان يتحسس الطريق فى دخيلة نفسه الى الخطأ والصواب ، وأن يكون لديه الصبر الذى يوصله تدريجيا الى أكتشاف الهه بنفسه . أصبحت الحياة أشد أثارة لاهتمامه .

قال لأمه :

ـ تعرفين يا أماه . لا رغبة لدى فى الانتماء الى الطبقة المتوسطة المنعمة . افضل عامة الناس الذين انا منهم . فأنا واحد منهم .

ـ لكنك يا بنى اذا قال أحد عنك ذلك ستستشيط غضبا . انت تعلم أنك تعتبر نفسك ندا لاى سيد مهذب من الصفوة .

أجابها قائلا :

ـ نعم . ولكن بذاتى ، لا بطبقتى ، أو تعليمى ، أو ما اصطنعه من سلوك . بذاتى أنا ند لأى منهم وأفضل .

ـ عال . فيم حديثك اذن عن عامة النـاس وقـولك أنك واحد منهم ؟

ـ لأن التباين بين الناس ليس فى الطبقة التى ينتمون اليها ، ولكن فى أنفسهم . كل ما هنالك أن المرء يحصل من الطبقة المتوسطة على الأفكار ، أما عامة الناس فالحياة ذاتها فيهم ومنهم ، والدفء . هؤلاء اناس يستطيع المرء أن يشاركهم حبهم وكرههم .

ـ كل هذا جميل يا ابنى . لكن ، ما دام الأمر كذلك ، لم لا تذهب فتعاشر أصدقاء أبيك مثلا ؟

ـ أصدقاء أبى حكاية أخرى .

ـ على الاطلاق . هم عامة الناس الذين تتغنى بهم . ثم قل لى ، من الذين تعاشرهم الان ؟ عامة الناس ؟ لا أراك تخالط أحداً غير أولئك الذين يتبادلون الافكار من أبناء الطبقة المتوسطة ، ولا أراك تهتم بأحد سواهم .

ـ ولكن .. هناك الحياة ..

ـ لن تقنعنى ابدا أن فتاة مثل ميريام ليفرز لديها ذرة من الحياة أكثر مما لدى أى فتاة متعلمة ... كمس موريتون مثلا . كل ما فى امر انك معقد من حكاية الطبقات هذه .

فهى فى حقيقة الامر تريده أن يتسلق فيصعد الى الطبقة المتوسطة ، وهو أمر تعرف أنه ليس صعبا . تريده أن يتزوج فتاة من تلك الطبقة وأن يندمج فيها .

أخذت تحارب ذلك القلق الذى انتـابه . مازال على عـلاقته بميريام : لا يستطيع أن يتحرر منها ، ولا يستطيع أن يذهب فى صلته بها الى حد الخطوبة . تلك الحيرة استنزفت طاقته . فوق أن أمه كانت تعتقد فى أنه يميل الى كلارا ، دون أن يعترف بذلك فيما بينه وبين نفسه ، ولما كانت هذه الأخيرة امرأة متزوجة فانها تود لو أحب

نتاة أخرى غيرها ، ويا حبذا لو كانت من طبقة أفضل · تكنه يتصف بغباء غريب فى ذلك الشأن ، يمنعه من أن يحب فتاة تفوقه مكانة أو حتى أن يعجب بها ·

قالت له أمه :

ـ يبدو لى يابنى أنك رغم براعتك ، وتمردك على الأشياء القديمة ، واخذك للحياة بين يديك ، لم تحصل على أى قدر من السعادة بذكر ·

فصاح بها :

ـ السعادة ! وما هى السعادة ؟ انها لا تعنى شيئا بالنسبة الى ! كيف يمكن أن أكون سعيدا ؟

أزعجها ذلك السؤال المباشر .

ـ ذلك أمر لا يقرره سواك يا ابنى · لكنك ان قيض لك أن تلتقى بامرأة تصلح لك ، تستطيع أن تجعلك سعيدا ·· وبدأت تفكر فى الاستقرار ·· عندما تتوفر لديك الامكانيات المادية ·· حتى تستطيع أن تعمل فى هدوء ، بغير هذا القلق ، فان ذلك يكون أفضل لك كثيرا·

تجهم وجهه . فأمه قد نكأت جرحه الحى فيما يخص ميريام . ازاح شعره المهدل على جبينه ، وعيناه تفيضان ألما وضنى .

صاح بها :

ـ تعنين يكون أسهل يا أماه . ذلك كل ما تبحث عنــــه المرأة فى الحياة : راحة البال وترف الجسد . ذلك شىء أزدريه .

اجابت أمه :

ـ والله ؟ وماذا تسمى ما أنت فيه ، التذمر الالهى ؟

ـ نعم . لا يهمنى ان كان الهيا . لكن لتذهب تلك السعادة التى تتحدثين عنها الى الجحيم ! طالما كانت الحياة حياة بمعنى الكلمة ، لا يهم أن تكون سعيدة أو شقية . أخشى أن تكون تلك السعادة التى تتحدثين عنها باعثة على الملل .

قالت :

ـ وهل أعطيتها فرصة ابدا ؟

وفجأة اندفق كل ما تحسه من ضنى ومن خشية عليه ، صاحت به :

ـ بل يهم أن تكون الحياة سعيدة . وأنت يجب أن تكون سعيدا ، أن تبحث عن السعادة ، وأن تعيش لتكون سعيدا . كيف أطيق أن أتصور أن حياتك قد لا تكون سعيدة ؟

ــ حياتك أنت كانت سيئة بما فيه الكفاية يا اماه ، لكنها لم تجعلك اقل من أولئك الذين عاشوا حياة هنيئة . وفى تقديرى أنك لم تخرجى من الصفقة خاسرة . وأنا أيضا . هل صفقتى مع الحياة خاسرة ؟

ــ نعم يابنى ، حتى الآن . فأنت ، فيما أرى ، لا تعـود منها بغـير الصراع . الصراع ، والعذاب .

ــ ولم لا أيتها العزيزة . قلت لك أن ذلك أفضل ما فى ...

ــ أبدا . المرء يجب أن يكون سعيدا ، ينبغى له أن يكون سعيدا .

فاذا ما بلغت مسز مورل ذلك الحد من النقاش ، أخذت ترتعد بعنف . ما أكثر ما تشتبك فى معارك كهذه مع ابنها ، تبدو فيها كما لو كانت تقاتل دفاعا عن حياته ضد ارادة الموت المتسلطة عليه . اخذها بين ذراعيه ، وقد ذاب قلبه شفقة بها اذ تذكر مرضها .

غمغم قائلا :

ــ خل عندك يا صغيرة ! طالما لم يحس المرء أن الحياة قميئة زرية ، فالباقى لا يهم ، سعادة أو لا سعادة .

ضمته اليها قائلة بضراعة تثير الشفقة :

ــ لكنى أريدك أن تكون سعيدا .

ــ اه يا عزيزتى . قولى أنك تريديننى أن أعيش .

أحست مسز مورل كما لو كان قلبها يوشك أن يتحطم لاجله . فهى تعلم انه ، على هذا المنوال ، لن يعيش . تعرف أنه ينطوى على عدم أكتراث بنفسه ، بمعاناته ، وبحياته ، وأن ذلك الاستهتار ليس فى حقيقته الا ضربا من الانتحار البطىء . وهو ما أوشك ان يحطم قلبها . بكل ما فى طبيعتها القوية من ضراوة العاطفة كرهت ميريام ليفرز لانها قد توصلت بهذه الطريقة المستكنة الى القضاء على كل بهجة فيه . ولا قيمة عندها لكون الفتاة لا حيلة لها فيما هى عليه . يكفيها أن ميريام قد فعلت ذلك بابنها لكى تكرهها كراهة التحريم .

لكم تود لو أحب فتاة تستطيع أن تكون كفئا له : قوية ومتعلمة . لكنه مصر على الا ينظر الى فتاة تفوقه مكانة . وهو يبدو ميالا الى مسز دوز . ذلك بالاقل شعور سوى . لم تنقطع الام عن الصلاة من أجله ، طالبة من الله الا يجعل حياته تضيع هدرا . تلك كل صلاتها . فهى لا تصلى من أجل روحه ، او من أجل استقامته وصلاحه ، بل لكى يحفظه الله من تضييع حياته سدى . حتى وهو مستغرق فى النوم ، كانت تسهر ساعة بعد ساعة ، تفكر فيه وتصلى من أجله .

تباعد عن ميريام بطريقة غير محسوسة ، دون أن يدرك أنه فاعل

ذلك • لم يكد آرثر يترك الجيش حتى تزوج • ولد الطفل بعد ستة أشهر من تاريخ الزفاف • وقد توصلت مسز مورل الى أن تجد لابنها عملا في نفس الشركة – التي كان يعمل بها قبلا – بأجر قدره واحد وعشرين شلنا في الاسبوع ، وأثثت له كوخا صغيرا من غرفتين ، بمساعدة أم بياتريس • وقع الفتى في الخية وقضى الامر • لم يعد يجديه تملص أو صراخ ، فقد أحكمت الاغلال حول عنقه • وقد ضاق بتلك الاغلال في أول الامر وتنمر مع زوجته الصغيرة التي أخلصت له الحب • ثم جاء الوليد ، وكان رقيق البنية ، فزاد الطين بلة : لا يكاد أبوه يسمع صياحه حتى يوشك أن يفقد عقله غيظا مما ورط فيه نفسه • فيذهب الى أمه يبرطم بين يدها ساعة وراء ساعة ، فلا تزيد عن قولها له : « والله لم يدفعك أحد يا بني • لقد فعلتك باختيارك ، وعليك الآن أن تتحمل نتائج عملك » • ثم مرت تلك الفترة القصيرة من التململ وظهر معدنه الصلب ، فشمر عن ساعد الجد في عمله ، وتحمل مسئولياته كأي زوج همام ، وقد أدرك أخيرا أن حياته ملك لزوجته وطفله • لم يكن منغمسا في حياة أسرته شديد الارتباط بها ، فلم يكد يستقر في بيت الزوجية حتى خرج من كنف أهله تماما •

تتابعت الشهور ببطء . اتصل بول ، عن طريق كلارا ، بجماعات من الاشتراكيين ، والمدافعين عن حقوق المرأة ، واتباع كنيسة التوحيد (١)، في نوتينجهام . كلفه صديق مشترك من أهالي بستوود ذات يوم أن يحمل رسالة الى مسز دوز • فذهب يبحث عن بيتها في المساء ، بعد انتهاء عمله ، ولم يكن قد زاره قبلا . وجد البيت في شارع ضيق قميء ، أرضه مرصوفة بأحجار الجرانيت ، وعلى جانبيه طواران بدائيان من الآجر • كان الباب الامامي يرتفع درجة واحدة عن ذلك الطوار الخشن الذي تدب عليه أقدام المارة بخطى متثاقلة ، يكسوه طلاء بني قديم تشقق فكشف عن خشب نخر . وقف في الشارع يطرق الباب ، فجاءه من الداخل وقع أقدام متثاقلة ، ثم انفتح الباب فخيمت فوقه امرأة ضخمة فارعة الطول تناهز الستين . رفع وجهه فنظر اليها من مكانه على الطوار ، فاصطدمت عيناه بوجه صارم عبوس •

أدخلته غرفة الجلوس التي تفتح على الشارع مباشرة . غرفة ضيقة ، خانقة ، لا حياة فيها ، يزحمها أثاث عتيق من خشب الموجانو ، وتشوه حوائطها صور مكبرة شاحبة شحوب الموت ، رسمت بالفحم لاعزاء كثيرين رحلوا . تركته مسز رادفورد . امرأة فخيمة ، راسخة،

---

(١) Unitaians شيعة دينية تنكر مذهب الثالوث في المسيحية .

أشبه بمنشأة عسكرية . أقبلت كلارا بعد لحظة ، وقد تضرج وجهها خجلا ، فتولاه الارتباك • بدت كما لو كانت قـــد أزعجها وقوفه على أملاقها وظروفها القاسية •

قالت :

ـ عندما سمعت صوتك لم اصدق أذنى •

لكنها سرعان ما تماسكت ، وقد قررت أن تواجه الامر ببساطة ، مادام الطابق قد انكشف ، فدعته الى الخروج من جبانة تلك الغرفة الى المطبخ •

كان المطبخ هو الاخر صغيرا معتما ، لكنه مكتظ بأكوام بيضاء من الدانتلا . وجد الام قد عادت الى مكانها ، منصرفة الى عملها ، تشد خيطا وتتهيأ لان تعمل ابرتهـا ، وحولها وتحت قدميهـا خيوطهـا ومعداتها • بدا المكان بعتمته ودفئه والاكوام البيضاء الناصعة التى تزحمه أشبه بورشة صغيرة اقتحمها فأخل بايقاع العمل فيها •

قالت له مسز رادفورد وقد وقف مترددا :

ـ ان كنت ستدخـل فلا تلق بالا الى العمل . أعـرف أن المكان مزدحم • لكنك تستطيع أن تجد لك مكانا •

قدمت اليه كلارا مقعدا وهى من الحرج فى حال ، فجلس ازاء الحائط وامامه الاكوام البيضاء ، ثم عادت هى الى ما بدا أنه مكانها المألوف على الاريكة ، فجلست ، غير قادرة على أن تدارى خجلها •

سألته مسز رادفورد :

ـ هل لك فى زجاجة من الاستاوت (١) ؟ كلارا ، قدمى له زجاجة الجعة •

حاول أن يعتذر لكن مضيفته الحت :

ـ تبدو كما لو كنت فى مسيس الحاجة اليها • هل لونك مخطوف، هكذا على الدوام ؟

فأجابها :

ـ كل ما فى الامر ان جلدى سميك فلا يبين الدم خلاله !

أحضرت له كلارا زجاجة وكوبا ، ووجهها ينطق بما تعانيه من خجل وأسف • صب قليلا من السائل الداكن فى الكوب ثم رفعه فى يده قائلا :

ـ فى صحتكم !

قالت مسز رادفورد :

---

(١) Stout جعه انجليزية قوية داكنة اللون •

ـ تعيش !

شرب قليلا من الجعة ، فقالت مضيفته :

ـ يمكنك أن تشعل سيجارة ان احببت بشرط الا تحرق البيت على رءوسنا .

ـ اشكرك .

ـ أبدا .. تفضل . سيسعدني أن أشم رائحة الدخان في البيت من جديد . فبيت لا تسكنه الا النساء يكون ميتا ، كبيت لا نار فيه . هذا رأيي بالاقل . فأنا لست عنكبا يحب أن ينفرد بنفسه في ركن مظلم . أحب أن يشاركني البيت رجل ، حتى ولو كان ذلك لمجرد أن أتشاجر معه !

اخذت كلارا تعمل ، وبول يرقبها ، جلست أمامه راسخة فاتنة . نحرها مكشوف وذراعاها عاريتان ، ودماء الخجل مازالت فيوجهها . نكست رأسها خجلا وذلة . انصرفت عنه الى عملها ، لا تستطيع أن تنظر في عينيه ، ذراعاها بياضهما مشرب بلون وردى ، تضجان بالحياة ، ويداها الكبيرتان الرخصتان من فرط عناية بهما تعملان بايقاع واتزان كأنما لا يستطيع أن يتعجلهما شيء . لم يرفع عينيه عنها لحظة ، مأخوذا بها دون أن يدرى . رأى التقاء الكتف بمنبت العنق وهي تنحني ، والشعر الغزير قد جمعته في كعكة وراء رأسها . وأنشدت عيناه الى ذراعيها فيحركتهما التي لاتكف ،وامتلائهما الشهى.

واصلت الأم حديثها دون أن تكف عن العمل :

ـ سمعت عنك من كلارا . أنت تعمل عند جوردان ، أليس كذلك ؟

ـ نعم

ـ تعرف ؟ مازلت أذكر توماس جوردان وهو طفل في مثل سني يسألني قطعة من الحلوى .

قال بول ضاحكا :

ـ حقا ؟ وهل كنت تعطينه شيئا ؟

ـ أحيانا كنت أحن عليه ، وأحيانا لا ، خاصة عندما كبرنا . فهو من صنف يأخذ ولا يعطى . هو كذلك . أو كان في صباه .

قال بول :

ـ في رأيي أنه انسان طيب ، على خلق .

ـ عال . يسعدني أن أسمع هذا الرأى فيه .

جلست مسز رادفورد تتفحصه بنظرة لا تحيد من مكانها في الجانب الآخر من المطبخ . أحس فيها صلابة حببتها الى قلبه . وجهها قد بدأ

يترهل لكن عينيها هادئتان ، وصلابتها تجعل الرائي يكذب سنها ، حيث يرى تجاعيدها ووجنتيها المترهلتين مغالطة من جانب الزمن :ففيها قوة أمرأة فى ربيع العمر • لم تكف عن العمـل لحظة ، على مهـــل ، بحركات متئدة • ذراعاها مازالتا محتفظتين بجمال شكلهما، رغم انهما كالعاج القديم صفرة ولمعانا ، لكنه لمعان ليس كالألق المتوهج الغريب الذى سحره فى ذراعى الابنة •

سألته الأم :

ـ بينك وبين ميريام ليفرز علاقة حب ؟

تلعثم قائلا :

ـ تقصدين • • •

لكنها لم تلق اليه بالا :

ـ نعم . أنها بنت لطيفة . لطيفة بحق . لكنها لا تروق لى . فهى ليست من هذا العالم •

وافقها الرأى قائلا : ـ

ـ نعم ، انها خيالية بعض الشىء •

ـ أنا أعرفها ، لو استطاعت لظهر لها جناحان فحلقت بهما فوق رءوس الجميع ، كالملائكة •

تدخلت كلارا فى الحديث ، فأبلغها الرسالة التى كلف بنقلها • حدثته بأنكسار • فقد فاجأها فى املاقها ، ورآها وهى تعمل كالأمة• وقد سره ذلك بعد تعاليها القديم • أحس أن آنكسارها يتيح له تفوقا عليها ، ويمنحه أملا فى امتلاكها •

سألها :

ـ هل تحبين عملك ؟

فأجابت بمرارة :

ـ وأى عمل آخر تستطيع المرأة أن تقوم به ؟

ـ هل يبخسونكن الاجر ؟

ـ طبعا . كما هى الحال دائما بالنسبـــة الى كل عمل تقــوم به المرأة • فتلك حيلة أخرى من حيل الرجال يحاربوننا بها منذ أن أقتحمنا نحن النساء سوق العمل •

قالت أمها :

ـ اسمعى • اقفلى فمك فيما يخص الرجال • فلولا حمق النساء لما بات الرجال أشرارا • هذا رأيى • لم ألتق برجل حاول أن يسىء الى الا ورددت اليه اساءته • ولو انهم كلهم ملاعين لا يؤمن جانبهم •

قال بول :
ــ لكنهم ليسوا سيئين الى هذا الحد !
ــ يعني • انهم يختلفون بعض الشيء عن النساء •
وجه قوله الى كلارا ، سائلا اياها :
ــ هل تحبين أن تعودى الى العمل عند جوردان ؟
ــ لا أظن ذلك •
لكن أمها صاحت قائلة :
ــ نعم تحب ! ليتها تتوصل الى ذلك فتقبل يدها ظهرا لبطن • لا تلق بالا اليها . فهى لا تريد أن تتنازل عن هذه الكبرياء الحمقاء التى ستميتنا جوعا •
لم تجرؤ كلارا على معارضة أمها وان بدا واضحا انها قد جرحت فى الصميم • انتبه بول الى نفسه فاذا به يحدق فيها غير مصدق • هل يعنى ذلك أنه لا يجب أن يأخذ عجرفة كلارا مأخذ الجد ؟ لم يرفع عينيه عنها وهى آخذة فى عملها بغير انقطاع • أحس جذلا غريبا لمجرد التفكير فى انها قد تحتاج الى مساعدته • هاهى تبدو له على حقيقتها، بغير قناع كبريائها ، محتاجة ، محرومة من أشياء كثيرة . ذراعها الجميلة تعمل كالآلة وهى لم تخلق لتكون آلة ، ورأسها الشامخ منكس على عملها ، وهو لم يخلق بهذا الجمال لينكس •
بدت له كما لو كانت ضائعة فى جزيرة مهجورة بين الركام الذى لفظته الحياة • أحس مدى مرارتها اذ تجد نفسها وقد أزاحتها الحياة جانبا هكذا ، كأنما لا نفع للحياة فيها • لا عجب أن تثور وتحتج •
صحبته الى الباب الخارجى ، وقف فى الشارع الحقير رافعا رأسه ينظر اليها • قوامها الرائع وتعاليها فى ذلك الجو الزرى جعلاه يراها أشبه بربة من ربات الاوليمب قد أنزلت عن عرشها • رآها تجيل البصر فيما حولها فكأنما تتلقى صفعة •
أطال فى حديث لا طائل من ورائه الا أن يظل معها بضع لحظات أخرى • نظرته عيناها الرماديتان فى عينيه أخيرا ، ناطقتين بما فيهما من بكم المهانة التى تحسها ، ضارعتين بشقاء حبيس لا منطلق له . اهتز كيانه أمام شقائها ، وأسقط فى يده • وهو الذى كان يظنها قوية متغطرسة !
عندما فارقها أحس انه يريد أن يجرى • ذهب الى المحطة كمن يسير فى حلم ، وعاد الى البيت دون أن يدرك انه قد تحرك خطوة من ذلك الشارع •

قيل له فى المصنع ان سوزان ، احدى المشرفات ، سوف تتزوج فى القريب ، فسألها فى اليوم التالى :

ــ قولى يا سوزان . سمعت البعض يتهامسون عن قرب زواجك . ما الحكاية بالضبط ؟

تضرج وجه الفتاة خجلا :

ــ من الذى قال لك ؟

ــ لا أحد . سمعت فقط أنك تفكرين ...

ــ الحقيقة ، نعم . ولو انك لا يجب أن تخبر أحدا . فوق انى أود لو لم يكن ذلك صحيحا !

ــ سوزان ! لن تجعليننى أصدق ذلك !

ــ والله ! كان يجب أن تكون أنت أول من يصدقه . فأنا أفضل البقاء هنا ألف مرة .

أحس بول شيئا من التوجس . قال لها مترفقا :

ــ لم ياسوزان ؟

التهبت وجنتاها خجلا والتمعت عيناها :

ــ لا تعرف ؟

ــ أعرف ماذا ؟

أجابته بنظرة من عينيها . فيه رفق وبساطة يدفعان النساء دائما الى الاطمئنان اليه . قرأ الرد فى عينيها ففهم ما أرادت أن تقول . قال برقة :

ــ أوه ! انا آسف .

أغرورقت عيناها بالدموع . فاستطرد بشىء من الأسى :

ــ سترين . سوف يكون الامر على ما يرام .

ــ هذا ما تظن . فلا حيلة لى فيما أشعر به .

ــ ستجعلين الامر أصعب على نفسك . حاولى أن تنظرى اليه نظرة أخرى .

اختلق مناسبة ليعود الى زيارة كلارا . سألها أثناء الحديث :

ــ ما رأيك فيما عرضته عليك من قبل ؟ هل تحبين ان تعودى الى العمل عند جوردان ؟

وضعت عملها من يدها ، ومدت ذراعيها الجميلتين على المنضدة ، ناظرة اليه ، لمدى لحظات ، بغير جواب . رويدا صعد الدم الى وجنتيها . سألته :

ــ ولم ؟

احس بول بشيء من الحرج . قال لها :
ـ لان سوزان تفكر فى ترك العمل
عادت كلارا الى عملها . قالت ، أخيرا ، دون أن ترفع رأسها ،بصوت خفيض غريب النبرات :
ـ هل تحدثت فى الامر الى احد ؟
ـ لم أحدث مخلوقا سواك ·
طال بينهما الصمت من جديد ، ثم قالت :
ـ سأتقدم بطلبى عندما يعلنون عن الوظيفة ·
ـ بل قبل ذلك · سأخبرك فيما بعد عن الموعد بالتحديد ·
استمرت فى ادارة ماكينتها الصغيرة ، ولم تعارضه ·
عادت كلارا الى جوردان . تذكر بعض قدامى العاملين وفانى من بينهم عهدها القديم ، وكرهوا الذكرى من كل قلوبهم . كانت كلارا ، كما عرفوها ، متغطرسة دائما ، متحفظة ، متعالية ، لم تخالط الفتيات أبدا أو تشعرهن انها واحدة منهن · كانت ، متى أتيح لها أن تكتشف خطأ ارتكبه أحد ، تؤاخذ المخطىء ببرود وأدب جم يجدهما ذلك الاخر أشد مهانة من أى لوم أو تقريع · اما تجاه فانى ، الحدباء المسكينة دائمة التوتر ، فكلارا تظهر من العطف والشفقة ما يجعل فانى تذرف من الدموع المريرة أكثر مما تدفعها اليه المشرفات الاخريات بألسنتهن الحداد ·
فى كلارا شيء يكرهه بول ، وأشياء كثيرة تستثيره · كلما رآها انشدت عيناه الى جيدها المتلع أو عنقها عند منبت شعرها الاشقر الكثيف ، أما الزغب الدقيق الذى لا يكاد يرى ، على جلد وجهها وذراعيها ، فانه يتراءى لعينيه ابدا منذ أن فطن اليه ·
عندما يخلو فى العصر الى عمله ، منهمكا فى التصوير ، كانت تأتى فتقف بالقرب منه ، بلا أدنى حراك · محاذرة من أن تشتت انتباهه بلمسة أو كلمة · لكنه رغم وقوفها على بعد ياردة منه ، يحس كما لو كان متصلا بها · فلا يعود فى مكنته أن يعمل · يلقى بالفرشاة والالوان من يده ويلتفت اليها ليتحدث معها ·
كانت ، أحيانا ، تمتدح عمله ، وفى احيان اخرى ، تنتقده ببرود ، كأن تقول له :
ـ تبدو شديد التكلف والاصطناع فى هذه اللوحة ·
فيغلى دمه غضبا لان ادانتها للوحة يكون فيها عنصر من الصدق · أو اذ يسألها ، فى مرة أخرى ، متحمسا :

ـ وما رأيك في هذه ؟
تجيب وهي تزوم علامة التشكك في قيمة اللوحة :
ـ انها لا تثير اهتمامي كثيرا ٠
فيرد عليها قولها مغضبا :
ـ ذلك لأنك لا تفهمينها ٠
ـ اذن لم تسألني رأيي ؟
ـ لاني ظننتك ستفهمين ٠

فتهز كتفيها استهانة بعمله . وتثير جنونه غيظا . يتملكه غضب عارم منها . فيسبها ويندفع شارحا لوحته بحرارة ، مدافعا عنها ، وتجد هي في اهتياجه مسلاة وملهاة ، لكنها لا تسلم أبدا بأنها كانت على خطأ ٠

تبين له أنها خلال السنوات العشر التي اتصلت فيها أسبابها بالحركة النسائية ، قد اكتسبت قدرا لا بأس بـــه من التعليم ، وأنهـــا (وهي في ذلك تشبه ميريام الى حد ما في شهوتها الى العلم) علمت نفسها الفرنسية حتى باتت قادرة على قراءة تلك اللغة وان لم تجدها تماما ٠ كانت تعتبر نفسها امرأة متفردة ، ومتفردة بوجه خاص عن طبقتها ٠ كل الفتيات في القسم الذي تشرف عليه كن من عائلات ميسورة الحال . فالصناعة التي يشتغل بها مستر جوردان ، صناعة خاصة ، تتصف بقدر من الامتياز عن غيرها ٠ فجو العمل ، خاصة في الحجـــرتين اللتين ترأسهما كلارا ، جو مهذب لا شائبة فيه ٠ لكن كلارا تباعدت بأنفة واضحة عمن يعملن معها ٠

لكنها عنيت بالا يقف بول على أي شيء من ذلك كله . فهي ليست ممن يكشفن أسرارهن عن غفلة أو قلة حيطة ٠ بل انها تتعمد أن تحوط نفسها دائما بجو غامض ٠ ولقد أحس من فرط تحفظها انها لابد متسترة على شيء بكل ذلك التحفظ ٠ حقيقة أن تاريخها مفتوح معروف ظاهر ، لكن معناه الداخلي خبيء لا يعرفه أحد . ولقد بدا له ذلك مثيرا . لكنه ضبطها أحيانا ترمقه من تحت حاجبيها بنظرة متلصصة لا ود فيها ، أدهشته وأثارت ارتباكه ٠ غالبا ما قابلت نظرته بنظرة مبـــاشرة لا التواء فيها ، لكن عينيها ، حتى في تلك المرات ، كانتا كأنما قد أسدل عليهما ستار ، فلم تعودا تفصحان عن شيء ٠ كل ما يفوز به منها اذذاك ابتسامة صغيرة متساهلة ، كأنما تغفر له شيئا ٠ لكنها رغم ذلك كله شدته بقوة . بدت له مثيرة بدرجة غير عادية ، بفضل ما بدا أنها ملمة به من أمور يجهلها ، وما لديها من ثمار تجربة لا سبيل له اليها ٠

وجد معها ذات يوم نسخة من كتاب فرنسي (١) ، فصاح دهشا :
ـ أنت تقرأين الفرنسية ؟
فالتفتت اليه بغير اهتمام . كانت تصنع جوربا من حرير العبيرة (٢) وهي تدير ماكينتها بانتظام متوازن بطيء ، وتنحني بين الحين والحين لتلقى نظرة على عملها أو لتضبط الابر ، فيشع بياض عنقها الناصع بزغبه الاشقر ازاء حرير ثوبها اللامع . تشاغلت عنه بالعمل بعض الوقت ، ثم توقفت وقالت له وهي تبتسم بعذوبة :
ـ ماذا قلت ؟
التمعت عينا بول غضبا لعدم اكتراثها الوقح تجاهه ، وقال بأدب شديد :
ـ لم أكن أعرف انك تقرأين الفرنسية .
فأجابت بابتسامة خفيفة ساخرة :
ـ حقا لم تكن تعرف ؟
فلم يتمالك من القول :
ـ مغرورة نتنة !
لكنه قالها بصوت لا يكاد يسمع .
أطبق فمه مغضبا وهو يرقبها . بدت كما لو كانت تحتقر ذلك العمل الآلي الذي تقوم به ، لكن الجوارب التي تصنعها كانت أقرب ما تكون الى الكمال .
قال لها :
ـ يبدو انك لا تحبين هذا العمل .
فقالت وكأنها تعرف عن الامر كل شيء :
ـ يعني . العمل كله واحد .
لطالما عجب لبرودها ، وهو الذي يفعل كل ما يفعله بحرارة . لابد أنها نسيج وحدها هذه المرأة .
عاد يسألها :
ـ ما هو العمل الذي تفضلينه ؟
فضحكت منه كما يضحك المرء من طفل يسأل سؤالا لا معنى له ، وقالت :
ـ والله لم أفكر في الامر ، لانه من الذي سيتيح لي الفرصة لكي أفعل ما أفضله ؟

(١) (Lettres de mon Moulin)
(٢) (Heliotrope) نبات عطري من فصيلة عباد الشمس يدعى أيضا « حشيشة العقرب » .

فقال وقد واتته فرصة ليظهر لها الاحتقار :

ـ كلام فارغ ! أنت تقولين ذلك لان كبريائك تمنعك من الافصاح عما تريدينه ولا تستطيعين الحصول عليه ·

أجابت ببرود :

ـ أنت تعرفني جيدا فيما يبدو !

ـ انا أعرف انك تتصورين نفسك امرأة عظيمة لا نظير لها ، وانك، اذ تعملين في مصنع ، تتحملين اهانة أبدية عظمى لا تغتفر ·

دفعه الغضب الى فظاظة ليست من دأبه . لم تفعل هي أكثر من انها أشاحت عنه بازدراء . فانصرف عنها وهو يصفر بفمه ثم تعمد أن يتوقف ليغازل هيلدا ويضاحكها ·

قال لنفسه فيما بعد ، مغتاظا من نفسه ، ومبتهجا في الوقت ذاته:

ـ ما الذي جعلني اعاملها بهذه القحة ؟

ثم أضاف ، فيما بينه وبين نفسه ، غاضبا :

ـ تستاهل ! انها تفوح بنتن غرورها الصامت ·

لكنه في العصر نزل اليها ، وثقل ينيخ على قلبه يريد أن يتخلص منه · ظن أنه يستطيع أن يفعل ذلك بتقديم الشيكولاتة اليها ·

قال لها :

ـ تأخذين واحدة ؟ اشتريت حفنة منها لتجعلني حلو المذاق !

تنفس الصعداء وهي تقبل منه قطعة . جلس بجوارها وأخذ يلوى قطعة من الحرير حول اصبعه . كانت تحبه لحركاته السريعة غير المتوقعة ، كحركات حيوان فتي . أخذت قدماه تتأرجحان وهو يفكر . تناثرت قطع الحلوى على المنضدة أمامهما · انحنت على ماكيتنها مستغرقة في العمل بايقاع منتظم ، تميل بين الحين والحين لتنظر الى الجورب المدلى وثقله يشده الى أسفل . أخذ يتأمل ظهرها مفتونا ، ثم قال :

ـ هناك دائما جو من الانتظار يحف بك · كل شيء أراك تفعلينه لا تكونين حاضرة فيه ، بل آخذة فيه وأنت تنتظرين ، مثل بنيلوبي (١) وهي جالسة الى منسجها ·

لم يستطع أن يكف نفسه عن الشيطنة :

ـ سأدعوك بنيلوبي !

قالت وهي تغير احدى الابر بعناية :

---

(١) زوجة يولسيس ، بطل الملحمة الاغريقية التي تغنى بها هومر ، وقد قضت السنين تنتظر عودة زوجها ، متشاغلة عن خطابها العديدين بمنسجها ·

ــ وهل يغير ذلك من الامر شيئا ؟

ــ لا يهم أن يغير أو لا يغير ، طالما يروق لى . اسمعى . لقـد خطر لى الآن أنك تنسين أنى رئيسك .

فسألته ببرود :

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ أريد أن أقول أن لى الحق فى أن اترأس عليك .

ــ هل هناك ما تعترض عليه فى عملى ؟

فقال مغضبا :

ــ لا حاجة بك الى الشجار معى .

قالت وهى مستمرة فى عملها :

ــ لا أعرف ما الذى تريده بالضبط .

ــ أريدك أن تعاملينني بلطف واحترام .

فسألته بهدوء :

ــ أن أخاطبك « بياسيدى » علىّ سبيل المثال ؟

ــ نعم ناديني « بياسيدى » . سيروق لى ذلك كثيرا .

ــ اذن ارجوك أن تذهب عنى ياسيدى وتدعنى أعملّ .

اطبق فمه وقد اكفهر وجهه غضبا . قفز من مكانه فجأة قائلا لها :

ــ انت مغرورة بدرجة لا تطاق .

وانصرف عنها الى الفتيات الأخريات . احس وهو يفعل ذلك أنه يتصرف كالاطفال محاولا اغاظتها ، وأنه يبالغ فى غضبه . ولكن لا بأس . ليستمر فيما هو فيه . سمعته كلارا يضحك مع فتيـات الحجرة المجاورة بطريقة لا تطيقها .

عندما مر فى القسم بعد انصراف الفتيات ، رأى قطع الشيكولاتة ملقاة لم تمس أمام الآلة التى تعمل عليها كلارا . فتركها حيث كانت. وفى الصباح كانت القطع ما زالت فى موضعها ، وكلارا منهمكة فى العمل . فيما بعد نادته سمراء صغيرة اسمها مينى يدللونها باسم بوسى قائلة :

ــ هاى . ليس معك شيكولاتة لأحد ؟

فقال :

ــ آسف يا بوسى ، كنت أنوىَ أن أقدم هذه الشيكولاته اليكم ،لكن نسيتها هناك على ذلك النضد .

قالت الفتاة :

ـ هذا ما ظننت .
ـ سآتيك ببعض الشيكولاته بعد الظهر · لا أظنك تريدين هذه القطع بعد أن باتت على النضد طوال الليل .
ابتسمت بوسى قائلة :
ـ أوه ·· أنا لا أدقق فى هذه الاشياء ·
قال :
ـ كلا ، كلا . ستكون متربة .
ثم ذهب الى كلارا فقال لها :
ـ آسف اذ تركت هذه الأشياء تزحم المكان ورائى .
احمرت وجنتاها خجلا · جمع قطع الشيكولاته فى قبضته قائلا لها :
ـ لقد اتسخت الآن . كان ينبغى لك أن تأخذيها معك . لا أدرى لم لم تفعلى ذلك . كنت أنوى أن أقول لك أنى أريدك أن تفعلى .
طوح بالقطع من النافذة الى الفناء ، ثم رمقها بنظرة سريعة ، فتراجعت أمام نظرته كأنما لطمها ·
فى العصر أحضر معه كمية أخرى من الشيكولاتة .
قال وهو يقدم الحلوى الى كلارا قبل الأخريات :
ـ هل لك فى بعضها ؟ هذه طازجة ·
فقبلت واحدة ، وضعتها على النضد . لكنه قال :
ـ كلا ، كلا ، خذى أكثر .
فأخذت قطعتين وضعتهما على النضد بجوار الأولى ، ثم عادت الى عملها فى ارتباك واضح ، وانصرف هو عنها الى الفتيات الأخريات فى الغرفة فقال وهو يقدم الحلوى الى بوسى :
ـ هاك يا بوسى . لا تكونى شرهة !
تصايحت الأخريات وهن يتدافعن حوله :
ـ كل هذه الشيكولاتة لها ؟
قال :
ـ كلا طبعا .
فازداد صخب الفتيات . سحبته بوسى من يده بعيدا عن زميلاتها قائلة :
ـ تعال بعيدا عنهن .
ثم أخذت منه الشيكولاتة . فقالت :
ـ أستطيع أن أنتقى ما أريد أولا ، اليس كذلك يابول ؟

فقال لها وهو ينصرف :
ــ كونى لطيفة معهن .
تصايحت الفتيات فى أعقابه :
ــ انت حبوب يا بول !
مر بكلارا دون أن ينبس بشفة . أحست أن قطع الشيكولاتة الثلاث ستحرق أصابعها اذا لمستها . احتاجت لكل شجاعتها لكى تضعها خلسة فى جيب مئزرها .
كل الفتيات كن يحببنه ويخفن منه . فهو ألطف خلق الله عندما يكون لطيفا . لكنه لا يكاد يكدره شيء حتى يتباعد فيجعلهن يحسسن كما لو كن لا وجود لهن . فاذا ما لجأن الى الصفاقة معه قال لهن بهدوء : « أرجو أن تنصرفن الى عملكن » . ثم يقف صامتا يراقبهن .
عندما احتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين ، كان البيت مقلوبا رأسا على عقب . فآرثر يوشك أن يتزوج ، وأمه مريضة ، وأبوه ، وقد شاخ وأصابه عرج من كثرة اصاباته ، أعطى عملا حقيرا فى المنجم ، وميريام تتراءى له باستمرار كوزر لا خلاص منه . فهو يحس أنه مدين بنفسه لها لكنه لا يستطيع أن يفى بالدين فيعطيها نفسه . وأهله ، فوق هذا وذاك كله فى أشد الحاجة الى عونه ومساندته . وهكذا بات مشتتا تتنازعه الرغبات فى كل اتجاه ولا يستطيع أن يحقق منها واحدة . فلا عجب ان لم يبتهج بمقـدم عيد ميـلاده . ملأته تلك المشكلات مرارة .
وصل الى عمله فى الثامنة صباحا . لم يكن معظم الكتبة قد وصلوا بعد . والفتيات لا يبدأ توافدهن الا فى الثامنة والنصف . بينما هـو يرتدى سترته القديمة التى يستخدمها فى العمل، سمع صوتا وراءه:
ــ بول ، بول ، تعال ، أريد أن أقول لك شيئا .
التفت فاذا فانى الحدباء هى التى تناديه ، واقفة على رأس الدرج، ووجهها مضيء بسر ما . نظرا اليها بول دهشا ، فعادت تستحثه :
ــ هيا تعال . أريدك .
فوقف مكانه وقد أسقط فى يده .
قالت فانى :
ــ يا أخى تحرك . تعال قبل أن تنشغل بالخطابات .
فنزل وراءها الدرجات القليلة المفضية الى غرفة التشطيب الطويلة الضيقة التى ترأسها . سارت فانى أمامه ، قميصها الأسود بالغ القصر ، فخصرها تحت ابطيها ، وجونلتها الكشمير الخضراء تبـدو

مفرطة الطول وهى تخطـو بخطى واسـعة أمام الفتى . ذهبت الى مقعدها فى الركن الضيق من الفرفة . أخذ بول يرقب يديها النحيلتين ورسغيها وهى تعبث بمئزرها فى عصبية ، منتظرا أن تفضى اليه بما عندها . قالت أخيرا ، وفى صوتها نبرة عتاب :

ــ هل تصورت أننا سوف ننساك ؟

سألها دهشا وقد نسى تماما حكاية عيد ميلاده :

ــ لم ؟

ــ لم ! انه يسألنى لم ! انظر !

أشارت على التقويم فرأى الرقم ٢١ ، وهو يوم ميلاده ، تحوطه مئات من صلبان صغيرة رسمت بالقلم الرصاص .

فضحك قائلا :

ــ أوه ! قبلات بمناسبة عيد ميلادى . كيف عرفتن ؟

قالت فانى ساخرة منه ، وهى غاية فى الابتهاج لنجاح مفاجآتها !

ــ كيف عرفنا ! نعم . كل هذه العلامات قبلات . قبلة من كل واحدة منا . الا ليدى كلارا . وهناك البعض أهدينك قبلتين . لكنى لن أقول لك كم قبلة من عندى .

قال :

ــ انت ؟ طبعا . انت متيمة على الدوام !

فصاحت مستنكرة قوله . وصوتها ينطق بالقوة :

ــ انا ! انت مخطىء . كيف تتصور انى لينة العريكة الى هـذا الحد ؟

لكنه ضحك منها :

ــ نعم . انت تتظاهرين دائما بأنك امراة قوية الشكيمة لا قلب لها . لكنك ، فى قرارة نفسك ، لا تقلين « عواطفية » عن ...

فقالت والكلمات تنفلت منها برغمها :

ــ والله من الأفضل أن يقال عنى أنى عواطفية ولا يقال أنى قطعة من اللحم المجمد !

أدرك بول أنها تعنى كلارا ، فابتسم ، ثم سألها ضاحكا :

ــ هل تقولين عنى أشياء كهذه وراء ظهرى ؟

فأجابته وهى تفيض رقة ، العانس ابنة التاسعة والثلاثين .

ــ كلا يا نور عينى . كلا يا حبيبى . لأنك لا تتصور أنك شىء ثمين من رخام وأننا نحن نفاية من طين . فأنا لست أقل منك شأنا ، أليس كذلك يا بول ؟

بدا أن السؤال يلذ لها .

أجابها بول :

ــ الله ! وهل فى ذلك شك ؟ ليس أحدنا افضل من الآخر .

فقالت بالحاح وقد تملكتها جراة غير مألوفة :

ــ لكن لا أقل عنك شأنا يا بول ، أليس كذلك ؟

ــ طبعا لا تقلين شأنا عن أحد . بل أنت افضل من كثيرين بطيبتك .

كان الخوف قد بدأ يداخلها من الموقف ، ومما قد يفضى اليه الحديث ، فقالت :

ــ خطر لى أن أبكر بالمجىء قبل الاخريات .. سيقلن أنى خدعتهن. لكن لا بأس . اغمض عينيك يا بول .

فقال مكملا قولها :

ــ وافتح فمك ، وانظر ماذا أعطاك الله !

اغمض عينيه بالفعل وفتح فمه ، متوقعا قطعة من الشيكولاتة . لكنه ما لبث أن قال :

ــ سأفتح عينى وانظر .

كانت فانى تحملق فيه ووجنتاها الطويلتان متوردتان ، وعيناها الزرقاوان تلتمعان ، وعلى النضد امامها كومة صغيرة من انابيب الالوان . غاض لونه وقال محتجا :

ــ كلا يا فانى !

قالت بلهوجة :

ــ منا جميعا .

ــ كلا ، ولكن ...

قالت وهى تتمايل طربا :

ــ المهم . هى من النوع الجيد ؟

ــ رباه ! انها أفضل ما يمكن العثور عليه فى أى مكان .

ــ لكنها من الصنف الجيد .

قال وهو يعض شفتيه :

ــ تريدين الحقيقة ؟ كنت أتحرق شوقا الى شرائها . لكننى لم أكن لأستطيع ذلك قبل أن اثرى !

أوشكت فانى أن تبكى وقد غلبتها عواطفها ، فأسرعت تغير الحديث :

ــ كن كلهن على أحر من الجمر لتقديم هذه الهدية اليك . وقد ساهمن فى شرائها ، بغير استثناء ، الا ملكة سبأ بطبيعة الحال .

سألها بول :
ـ هى التى رفضت أن تشترك ؟
ـ ومن اعطاها الفرصة ؟ لم يخبرها أحد . فلم نكن نريدها أن تتأله علينا فى أمر كهذا أيضا . لم نكن نريدها معنا والسلام .
ضحك بول من المرأة الطيبة . لكن تأثره كان واضحا . قال انه يجب أن ينصرف . كانت واقفة لصقه . فجأة طوقت عنقه بذارعيها وقبلته بحرارة .
قالت معتذرة :
ـ أستطيع اليوم أن أعطيك قبلة . فقد شحب لونك حتى وجعت قلبى .
قبلها بول ومضى . أحس نحول ذراعيها حول عنقه ففاض قلبه اسى لها .
قابل كلارا فى ذلك اليوم وهو يهبط الدرج مسرعا ليغسل يديه ساعة الغداء ، فصاح دهشا :
ـ كيف ؟ ما زلت هنا ؟ لم تذهبى لتناول الغداء ؟
فقد ألفت أن تنصرف لتناول الغداء فى بيتها .
قالت :
ـ نعم . وليتنى لم افعل . احس كما لو كنت قد اكلت كمية من المعدات الطبية القديمة ! يجب أن أخرج الآن الى أى مكان ، والا ظل طعم هذا المطاط فى فمى !
تمهلت فى سيرها قليلا ، فأدرك انها تريد أن يصحبها ، وسارع لفوره يلبى رغبتها . سألها قائلا :
ـ هل تنوين الذهاب الى مكان ما ؟
صحبها الى قلعة نوتينجهام . كانت ترتدى خارج البيت ثيابا ممعنة فى البساطة الى حد القبح ، رغم أنها تبدو حسنة المظهر فى ثياب البيت . سارت بجواره مترددة الخطى ، منكسة الرأس ، مشيحة بوجهها ، ثيابها الرزية ، وراسها الحاسر جعلاها تبدو فى عينيه قميئة . لم يكد يجد فى تلك المخلوقة المتهالكة السائرة بجواره أثرا للحيوية المتوثبة التى أحسها دائما كامنة فيها . بدت له زرية تتخطاها العين وقد اغرقت قوامها الرائع فى انحنائها وتقوس كتفيها وكأنها تود لو غاصت داخل نفسها هربا من نظرات الآخرين .
كانت حدائق القلعة خضراء ، يانعة الخضرة ، ندية . أخذ يثرثر ويضحك وهما يصعدان السفح شديد الانحدار ، لكنها لزمت

الصمت ، وقد بدت غارقة فى تفكير مهموم . لم يكن لديهما الوقت الكافى لدخول المبنى العريض المربع الرابض فوق قمته الصخرية . أطلا من فوق الحائط حيث الصخور نكاد أن تكون عمودية فى انحدارها الى المتنزه . تحتهما ، فى فجوات الصخور الرملية كان الحمام يهدل بأصوات خفيضة ، والأشجار أسفل التل تتراءى دقيقة الحجم ، كل شجرة وسط بركة من الظل تصنعها فروعها ، والناس أشبه بحشرات صغيرة تهرول هنا وهناك فى أهمية جادة بدت من عل زرية مضحكة.

قال لها :

ــ من ينظر اليهم من هذا الارتفاع يحس كما لو كان قادرا على أن يغترفهم بيده كالحشرات فيملأ بهم قبضته .

أجابته ضاحكة :

ــ نعم . ليس من الضرورى أن يذهب المرء بعيدا كيما يتاح له أن يرى نفسه والناس بمنظور صحيح . الأشجار ، على صغرها من هذا الارتفاع ، تبدو أكثر من الناس مغزى .

ــ مسألة حجم فقط .

ضحكت متشككة ، بكلبية ادهشته .

بعيدا ، وراء حدود الطريق الرئيسى ، أشرطة معدنية رفيعة تتراءى ، هى قضبان السكك الحديدية ، تحف بهـا من الجانبين أكوام صغيرة مرصوصة من الأخشاب ، وتندفع فوقها ، رائحة غادية ، قطر صغيرة مدخنة كلعب الأطفال . والى جانب ، فى مسار عشوائى ، بين الأكوام السوداء ، خيط الترعة الفضى يتلوى ، والمنازل ، متكاثفة ، تبدو على البعد أشبه بحشائش سوداء سامة ، فى صفوف متلاصقة ، تحف بها حقول لا تبلغ العين مداها ، تقطع خضرتها بين الحين والحين نباتات أكثر ارتفاعا ، تترامى حتى شاطىء النهر الذى تلتمع مياهه تحت ضوء الشمس . الصخور السامقة على الشاطىء الاخر من النهر ، بدت على البعد كأقزام سود وسط فلوات شاسعة مظلمة بظلال الاشـجار ، يحف بها وهج ذهبى خافت من حقول الحنطة التى تترامى حتى حافة الافق حيث تعلو تلال زرقاء مبهمة .

قالت مسز دوز :

ــ من رحمة الله أن البلدة محدودة الحجم . فهى ما زالت قرحة صغيرة لم تتسع بعد .

ــ أشبه ببثرة صغيرة فى وجه مشرق .

ارتعدت مقتا . فهى تكره البلدة من كل قلبها . وقفت تنظر بكآبة

الى الريف المنبسط أمامها ، المحرم عليها ، ووجها الكتوم شاحب ناطق بالعداء • رآها بول أشبه بملاك من ملائكة النقمة تملأه المرارة •
قال لها :

ــ ليس الذنب فى الحقيقة ذنب البلدة . فهى لا بأس بها . وكل هذا القبح الذى ترينه مؤقت ، لأننا مازلنا نجرب ، بطريقة فجة خائبة نعم ، لكننا نجرب • وسنتوصل فى النهاية الى حل ما • واذذاك يستقيم أمر البلدة .

كان الحمام فى جيوبه الصخرية مطمئنا ، بين الشجيرات المتعلقة بالسفح كطيور صعبة المراس . الى اليسار انتصبت كنيسة سانت مارى الضخمة تطاول السماء ، تباهى القلعة بأبراجها السامقة،وكأنهما بمنجاة من القبح الرابض تحتهما ، تترفعان على ركام البلدة . ابتسمت مسز دوز ابتسامة خفيفة وهى تملأ عينيها من جمال الحقول البعيدة ، وغمغمت قائلة :

ــ هدأت الآن نفسا .

فأجابها :

ــ شكرا لك . هذا تقدير عظيم من جانبك !

فضحكت قائلة :

ــ يا أخى !

ــ هكذا أنت دائما .. تخطفين باليد اليسرى ما تمنحينه باليد اليمنى .

ضحكت لقوله طويلا .

سألها :

ــ كنت فى حالة يرثى لها • ماذا دهاك ؟ أنا موقن من آنك تفكرين فى شىء له أهميته • ما زلت أرى تأثيره على وجهك •

قالت :

ــ لا أظن انى سأخبرك .

ــ آه ! كما تشاءين • احتفظى به لنفسك •

احمر وجهها وعضت شفتها . ثم قالت :

ــ اسمع • الفتيات فى المصنع ••

ــ ما خطبهن ؟

ــ منذ اسبوع وهن يدبرن أمرا . وقد حققنه اليوم فيما يبدو . كلهن بدون استثناء • يجعلننى أحس بالمهانة اذ يخفين الامر عنى ، كأنى دخيلة أو منبوذة .

قال متظاهرا بأن الأمر يقلقه :
ــ هن يفعلن ذلك حقا ؟
استطردت قائلة بنفس النبرة الغاضبة :
ــ لم اكن لأقيم لأعيبهن وزنا ، لولا أنهن يتعمدن اغاظتى ، فلا ينقطعن عن التلميح الى ذلك السر الذى يخفينه عنى .
ــ هذا دأب النساء .
قالت بانفعال بالغ :
ــ انها دناءة منهن أن يتشفين فى هكذا .
سكت بول . فهو يعرف السر الذى يخفينه عنها ويغظنها به . وقد ضايقه أن يكون هو السبب فى ذلك الشقاق الجديد بينها وبين زميلاتها .
قالت بنفس المرارة :
ــ هن أحرار فى اسرارهن . لكن ما يحز فى نفسى هو اصرارهن على إغاظتى بها ، فذلك يجعلنى أحس أنى منبوذة بينهن .
لزم بول الصمت مفكرا لمدى لحظات ، وقد أثار الأمر قلقه . قال لها بعصبية ، وقد شحب لونه :
ــ اسمعى . سأوقفك على جلية الأمر . اليوم عيد ميلادى . وقد اشترين لى هدية ثمينة ، مجموعة من الالوان ، اشتركن جميعا فى دفع ثمنها . انهن يشعرن بالغيرة منك ..
شعر ان الكلمة صدمتها ، فتصلب جسدها وهى ترمقه ببرود ، فسارع يقول :
ــ لمجرد أنى أتحدث اليك ، أو آتيك أحيانا بكتاب .
ثم أضاف ببطء :
ــ لكن الأمر غاية فى التفاهة كما ترين . لا تقيمى له وزنا ، أرجوك ، لأن . . .
سكت لحظة ثم قال ضاحكا :
ــ ما الذى يقلنه لو رأيننا هنا الآن بالرغم من انتصارهن ؟
اغضبها منه ذلك التلميح الفج الى ما بينهما . اعتبرته قحة غير مبررة . لكنها وقد رأت اضطرابه ، وما أفصح عنه صمته من ندم على ما قال ، غفرت له ، رغم ما كلفها ذلك من جهد .
كانت يداهما متقاربتين على حائط القلعة . وهو قد ورث عن أمه يدين جميلتين ، قويتين رغم صغر حجمهما . أما هى فيداها كبيرتان ،

لتناسبا أطرافها ، لكنهما قويتان ، بضتان ، جلدهما ناعم أبيض . احس بول وهو ينظر اليهما كما لو كان قد وقف على حقيقة أمرها . قال لنفسه : « انها تموت شوقا الى أن يأخذ أحد يدها بين يديه ـ رغم كل ما تبديه لنا من احتقار » . وهى ، بدورها ، لم تعد ترى شيئا الا يديه ، دافئتين ، حيتين ، وكأن كل ما تجيشان به من حياة مختزن لها وحدها . رأته ساهما ، مهموما ، يحدق أمامه بنظرةمعتمة تحت حاجبين مقطبين . كل ما بين الأشكال من تباين فى المنظر المنبسط أمامه تلاشى ، فلم يبق منه الا قالب معتم من الحزن والمأساة بدا كما لو كان يشكل كل ما حولهما : البيوت ، والنهر ، والسهل ، والناس ، والطيور ، ويصبغها بحزنه . كل ما كان بينها من اختلاف وهو مجرد تباين فى الشكل ، انصهر فجأة ، حتى بدت له كل الأشكال كأنما تذوب وتتلاشى ، فلا يعود من شيء الا الكتلة التى شكل منها المنظر الذى خدعهما لحظة بتباينه واشراقه ، كتلة معتمة مادتها الصراع والالم . المصنع ، والفتيات ، وأمه ، والكنيسة السامقة الضخمة ، والمدينة المتكاثفة أسفل التل ، كلها تداخلت وتمازجت فى جو واحد معتم ، مهموم ، محزون فى كل ذرة من ذراته .

قالت مسز دوز دهشة :

ـ الساعة تدق الثانية ؟

جفل بول ، فاستيقظ من حلم يقظته ، وللفور استعاد كل شيء شكله ، واسترد تفرده ، لا مبالاته ، واستبشاره .

اسرعا عائدين الى المصنع .

بينما هو حمأة الاعداد لبريد المساء ، منهمكا فى فحص القطع التى تم تشطيبها فى ورشة فانى ، ورائحة الكواء تفوح منها ، أقبل ساعى البريد . قال باسما وهو يعطى بول طردا صغيرا :

ـ طرد للسيد بول مورل المحترم ! هذا خط نسائى يا صاح ! لاتدع الفتيات يرينه !

فصاحبنا ، وهو ذو حظوة لدى فتيات المصنع ، يروق له أن يعابث بول ملمحا الى شغف الفتيات به .

كان الطرد ديوانا من الشعر بداخله خطاب قصير : « ارجو أن تدعنى أهديك هذه الهدية أنا أيضا ، فلا اعود احس بالعزلة وسط هذا الاجماع . فأنا أيضا أتمنى لك كل خير ـ ك . د . »

التهبت وجنتا بول ، وهو يردد فى دخيلة نفسه :

ـ يالله ! مسز دوز . لكن هدية كهذه ليست فى طاقتها . يالله .، من كان يتصور أن تفعل شيئا كهذا !

انتابه فجأة تأثر عميق . فامتلأ بدفئها ـ حتى كاد أن يحسبها فى وهج ذلك الدفء ـ يحس ذراعيها ، كتفيها ، صدرها الناهد ، يراها كلها ، يحسها ، ويكاد أن يحتويها .

تلك الخطوة من جانبها قربت بينهما . جعلت علاقتهما حميمة ، فى دخيلة نفسه بالاقل . الفتيات الاخريات لاحظن أنه كلما رأى مسز دوز تعلقت عيناه بها وفاضتا بذلك الترحيب الحار الودود الذى يستطعن تفسيره . أما كلارا فلم تبدر منها بادرة ، اللهم الا لفتة صغيرة أحيانا ، اذ تراه مقبلا ، فتشيح عنه بوجهها . كانت موقنة أنه لا يدرك حقيقة شعوره نحوها .

لكنهما كثر خروجهما ساعة الفداء معا ، جهارا ، فى غير خفية . بدا كما لو كان الجميع قد أدركوا حقيقة ما بينهما ، فلم يعد فى الامر ما يدعو الى الخفاء ، فوق انه يحس أن علاقته بها ليس فيها ما يؤخذ عليهما . اتصفت أحاديثه معها فى تلك الايام بقدر من الحماس القديم الذى كان يشيع فى حديثه الى ميريام ، لكنه معها أقل اهتماما بالكلام ، غير منشغل بالنقاش واستخلاص النتائج .

ذات يوم من أيام أكتوبر ذهبا الى لامبلى لتناول الشاى . فجأة توقفا على قمة التل ، كأنما باتفاق سابق . جلس . وجلست هى غير بعيدة عنه . هجع الأصيل حولهما فى سكون تام لا يعكره صوت ، يغلفه غيم خفيف تلتمع فيه حزم القمح الصفراء كالذهب . طال صمت بينهما ، ثم سألها بصوت خافت :

ـ كم كان عمرك عندما تزوجت ؟

ـ كنت فى الثانية والعشرين .

كان صوتها رقيقا خفيضا ، يكاد أن ينطق بخضوع لم يعهده فيها . ستبوح له الآن بكل ما يريد أن يعرف .

ـ كان ذلك منذ ثمانية أعوام ؟

ـ نعم .

ـ ومتى تركته ؟

ـ منذ ثلاثة أعوام .

ـ خمس سنوات ! هل كنت تحبينه عندما تزوجته ؟

لزمت الصمت لحظة ، ثم قالت ببطء :

– كنت أظن ذلك . ولو أني لم أفكر في الأمر كثيرا . كنت شديدة التعلق بأهداب العفة في تلك الأيام ، لا أتصور أن تفكر امرأة في هذه الأشياء .

– فكأنك انسقت الى ذلك الزواج مغمضة العينين .

– نعم . تستطيع أن تقول أني كنت كذلك طيلة حياتي . مغمضة العينين . نائمة .

– كمن تسير في نومها ؟ ولكن ... متى استيقظت اذن ؟

– لا أدرى ان كنت قد استيقظت كما تقـول ... لا أظنني فعلت ذلك منذ أن كنت طفلة .

– تعنين أنك استغرقت في النوم وأنت تكبرين فتصبحين امرأة ؟ عجيبة ! وهو لم يوقظك ؟

أجابت بنبرة رتيبة :

– كلا . لم يصل معي الى ذلك الحد .

طيور بنية كانت تمرق فوق الأسيجة حيث انتصبت ورود عارية قرمزية .

سألها :

– يصل الى أين ؟

– الى . فهو في الحقيقة لم يعن أى شيء بالنسبة الى أبدا .

كان الأصيل بالغ الرفق بدفئه وعتمته . أسقف الأكواخ الحمراء بدت كما لو كانت تتوقد في غيم المساء الأزرق . جلس مفتونا بما حوله من سكينة وجمال ، دون أن يقدر على فهم ما كانت تقول ، وان وعاه بشعوره .

– ولكن لم تركته ؟ كان فظيعا معك ؟

انتابتها رعدة خفيفة :

– كان ... كان يحتقرني بشكل ما . اراد أن ينغص علي عيشي لأنه لم يستطع أن يمتلكني . واذ ذاك احسست كما لو كنت أريد أن أجري ، كما لو كنت مقيدة مغلولة . وبدا هو لي مخلوقا قذرا .

– آه ، هذا .

قال ذلك كما لو كان قد فهم قولها، ولو أنه لم يفهم شيئا على الاطلاق .

سألها :

– وهل كان قذرا على الدوام ؟

أجابت ببطء :

ـ بعض الشيء • ثم بدا وكأنه لن يستطيع الوصول الى ابــدا• فازداد فظاظة حتي وصل الى حد الوحشية ••• تماما كما أقول لك : الوحشية !

ـ ولم تركته أخيرا ؟

ـ لأنه ـ لأنه خانني ـ

سكتا كلاهما لمدى لحظة . وضعت يدها بالقرب منه لتعتدل فى جلستها ، فوضع يده فوقها . تسارعت دقات قلبه .

ـ لكن هل كنت ـ هل ـ أعنى هل أعطيته فرصة أبدا ؟

ـ فرصة ؟ لأى شيء ؟

ـ لأن يقترب منك .

ـ لقد تزوجته ـ كنت على استعداد لأن ـ

بذلا كلاهما جهدا لكى يحتفظا بثباتهما •

قال :

ـ أعتقد انه ما زال يحبك .

اجابت :

ـ يبدو ذلك .

ـ أراد أن يسحب يده ، لكنه لم يستطع • فأنقذته من ورطته بأن سحبت هى يدها . قال بعد صمت :

ـ هل أسقطه من حسابك على طول الخط ؟

ـ هو الذى تركنى .

ـ وأظنه غير قادر على أن يجعل من نفسه انسانا يمكن أن يعنى كل شيء بالنسبة اليك ؟

ـ حاول أن يفعل ذلك مستخدما الفظاظة معى .

لكن الحديث كان قد تطور الى مالا قبل لكليهما به • فقفز واقفــا وهو يقول :

ـ هيا بنا • لنذهب فنتناول الشاى •

وجدا كوخا جلسا فى غرفة جلوسه الباردة . صبت له الشـاى وقد لاذت بصمت بدت كما لو كانت لن يخرجها منه شيء . أحس انها قد انسحبت متباعدة عنه • بعد الشاى أخذت تحدق مهمومةفى فنجانها ، وهى تدير دبلة الزواج حول اصبعها بغير انقطاع • خلعت الدبلة فى غمرة شرودها فأوقفتها على المنضدة وأخذت تديرها بسرعة حتى انقلب ذهبها الى كرة براقة شفافة ، ثم توقف دورانها ، فسقطت مرتعدة على سطح المنضدة ، فأدارتها مثنى وثلاث ، وهو يرقبهـــــا مسحورا •

انها امرأة متزوجة ، وهو يؤمن بالصـداقة البريئة . وقد أقنع نفسه بأن نواياه تجاهها شريفة ، وأن الامر بينهما لايخرج عن كـونه صداقة مهذبة بين رجل وامرأة يمكن أن تنشـأ بين اي شخصين متحضرين .

فهو في ذلك مثل كثرة من أبناء عصره . تعقد الجنس فيه حتى لم يعد بوسعه الا أن ينكر أنه يمكن أن يشتهي كلارا ، أو ميريام ، او اى امرأة يعرفها . الرغبة الجنسية ، في تصوره ، شيء منفصل تماما ، لايمكن ان يتعلق بامرأة بعينها انه يحب ميريام ، بروحه . ويفيض به دفء كلما فكر في كلارا ، يتشاجر معها ، ويعرف خطوط نهديها وكتفيها كانما حفرت تلك الخطوط في داخله ، لكنه لا يشتهيها بطريقة ايجابية . ذلك امر ينكره فلا يعترف به أبدا . وهو يعتقد أنه مرتبط بميريام حقا ، وأنه اذا فكر في الزواج في اي وقت ، في المستقبل البعيـد ، فان الواجب يقضي أن يكون زواجه من ميريام . ولقد شرح ذلك كله لكلارا ، فلم تعلق بشيء ، تاركة اياه وشأنه . لكنه لا يكف عن المجيء اليهما ، كلما سنحت له فرصة . وهو ، في الوقت ذاته ، يكثر من الكتابة الى ميريام ، ويزورها ، لماما . انقضى الشـتاء على تلك الوتيرة . تناقص توتره وقلقه ، فهدأت أمه بالا ، الى حد ما ، وقد بدا لها أنه آخذ في الابتعاد عن ميريام .

ادركت ميريام الآن مدى انجذابه الى كلارا ، لكنها ظلت على ايمانها بأن الجانب الأفضل فيه سوف ينتصر ، وأن شعوره تجاه مسز دوز — وهي سيدة متزوجة — شعور ضحل عابر اذا ماقورن بحبه لها . فهي موقنة من انه سيعود اليها ، لقد فقد بعض براءته الأولى فيما يحتمل ، لكنه سيكون قد شفي تماما من اشتهائه للأشياء الاقل قيمة التي تستطيع غيرها من النساء أن يمنحنها له . وهي مستطيعة أن تحتمل كل شيء طالما ظل في قرارة نفسه مخلصا لها ، وظلت عودته اليهـا في خاتمة المطاف أمرا لا شك فيه .

لم يفطن هو الى ما في ذلك كله من شذوذ . فميريام صـديقته القديمة ، وحبيبته ، وهي جزء من بستوود ، ومن بيته وشبابه . أما كلارا فصديقة أكثر جدة ، وهي جزء من نوتينجهام ، والحيـاة ، والعالم . بدا الأمر له واضحا ، غاية في البساطة ، لا اختلاط فيه .

لم تكن علاقته بمسز دوز ربيعا دائما . فما أكثر فترات الجفـاء بينهما ، وما أثقل برودها ، لكنهما بعد أن يتحاشى كل منهما الآخر

زمنا قد يطول وقد يقصر ، يعودان الى سابق عهدهما من جديـــد ، ريثما تقع جفوة جديدة .

سألها ، وذلك الامر يلح عليه ويؤرقه :

ــ هل كنت فظيعة مع باكستر دوز ؟

ــ من أية ناحية ؟

ــ أوه ، لا أدرى ! ولكن الم تكونى فظيعة معه ؟ الم تفعلى أبدا مامن شأنه أن يفسد حياته ؟

ــ ماذا بالله عليك ؟

ــ كأن تجعلينه يحس أنه لا يساوى قلامة ظفر ... أنا أعرفك .

قالت ببرود :

ــ أنت شديد البراعة كعهدى بك ياصاحبى !

تعثر الحديث عند ذلكُ الحد ، وتوقف ، لكن قوله جعلها تلتزم البرود معه ردحا من الوقت .

باتت زياراتها لميريام نادرة . لم تنقطع الصداقة بين المرأتين ، لكنها ضعفت كثيرا .

سألته كلارا فى أعقاب عيد الميلاد :

ــ هل ستحضر الكونسير بعد ظهر الأحد ؟

ــ لقد وعدت أن أذهب الى مزرعة ويللى .

ــ هكذا ؟ طيب .

ــ أنت لست غاضبة ، أليس كذلك ؟

ــ ولم أغضب ؟

أوشك قولها أن يثير حنقه .

ــ اتعرفين ؟ انا وميريام يعنى كل منا الكثير بالنسبة الى الآخر ، منذ أن كنا فى السادسة عشرة .. أى منذ سبع سنين .

ــ ذلك وقت طويل .

ــ نعم . لكنها ــ بطريقة ما ــ تفسد الامر .

ــ كيف ؟

ــ تبدو كما لو كانت تشدنى اليها حتى تستوعبنى ، فلا تبقى منى شعرة واحدة تستطيع أن تسقط فتطير حرة .

ــ لكنك يروق لك ذلك .

ــ ابدا . لا يروق لى ذلك كما تقولين . كم اتمنى لو كان الأمر سويا فيما بيننا : أخذ وعطاء .. كما هو بينى وبينك ، أريد أنتهتم بى امرأة

إن تحاول الاحتفاظ بى ، لا أن تضعنى فى جيبها ·
ـ لكن الامر لا يمكن أن يكون سويا ، كما هو بينى وبينك ، ان كنت تحبها حقا ·
ـ بلى . سيزداد حبى لها . انها من فرط رغبتها فى ، تجعلنى عاجزا عن أن أعطيها نفسى ·
ـ رغبتها فيك بأى شكل ؟
ـ رغبتها فى روحى · تريد أن تتشربها من جسدى · فلا أملك الا أن أتباعد عنها .
ـ ومع ذلك فأنت تحبها !
ـ كلا · لا أحبها · بل لا أقبلها أبدا ·
ـ ولم لا ؟
ـ لا أدرى .
ـ أظنك تخاف من ذلك .·
ـ أبدا . كل مافى الأمر أن شيئا فى داخلى ينفر منها بعنف . فهى شديدة الصلاح ، وأنا لست كذلك .
ـ وانى لك أن تعرف حقيقتها ؟
ـ بل أعرف . اعرف أنها تريد توحدا بالروح ، بشكل ما .
ـ ولكن كيف تعرف ماتريده هى ؟
ـ لقد صادقتها سبع سنين .
ـ ولم تكتشف مع ذلك اول شىء كان يجب أن تعرفه عنها .
ـ ماهو ؟
ـ انها لا تريد أية بلاهات روحية . تلك أشياء يصورها لك خيالك . انها تريدك أنت · تريدك كرجل ·
أخذ يفكر فى قولها . لعله قد أخطأ فهم ميريام بعد كل شىء .
ـ لكنها تبدو ···
فقاطعته قائلة
ـ لانك لم تحاول أبدا .

انتهى الجزء الثانى
ويليه الجزء الأخير



هــذه الــروايــة

هذا هو الجزء الثـانى من رواية « أبناء وعشاق » للكاتب الانجليزى الكبير « د٠ هـ ٠ لورانس » وتعتبر هذه الرواية من أهم الاعمـــال الفنية فى الادب العالمى المعاصر ، أما « لورانس » فهو كاتب من كتاب الصف الاول فى القرن العشرين ، وقد أثار ضجة عظمى بأعمـــاله الادبية المختلفة سواء فى بلده انجلترا أو فى المجتمعات الاخرى التى قرأت رواياته وتأثرت بها وناقشت مافيها من قيم وقضــايا فكرية وفنية مختلفة ، ٠٠ ولقد كانت روايته « عشيق ليدى تشــاترلى » أشبه بالقنبلة الادبية التى انفجرت فى المجتمع الانجليزى المحـافظ، ومزقت الكثير من قيمه البالية ، وقد ظل النص الاصلى لهذه الرواية ممنوعا من التداول سنوات عديدة ٠٠ أما رواية ((أبناء وع
فلها مكانة راقية فى أدب لورانس وهى رواية ممتعة وعميقة
روعة الفنان وأصالة المفكر ، وفيها رؤية صادقة حساسة لل
والصراعات العنيفة فى مجتمع صناعى قاس،شعاره «البقاء
ومبدؤه الاساسى ((الفقر خطيئة)) ٠ ومن هنا تعتبر هذه
ثورة صادقة على الاستغلال والفساد الاجتماعى السائد فى ال
الرأسمالية ، انها رواية رائعة وجريئة وممتعـــة ولذلك
« روايات الهلال » على تقديم نصها الكامل الى القارىء العرب

١٠ قــــروش